

قلعة في الهواء

ديانا وين جونز

ترجمة: بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

قلعة في الهواء



ر.د.م.ك: 978-9921-775-27-3
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022
5000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

دیانا وین جونز

مكتبة | 1247

قلعة في الهواء

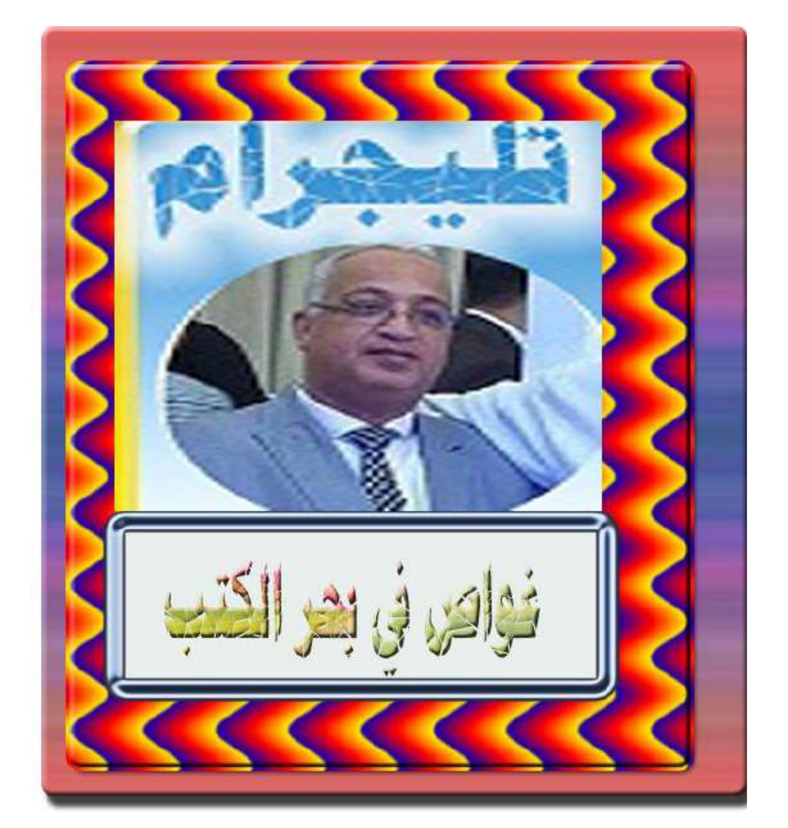
رواية

ترجمة

بثينة الإبراهيم



إلى فرانسيسكا



الفصل الأول
وفيه يشتري عبدالله بساطًا

في أقصى جنوب بلاد إنغري، في سلطنة راشفُت، عاش تاجر بُسُط شاب في مدينة زنزيب. لم يكن غنيًّا مثل التجار. كان خيبة أمل أبيه، وبعدما مات لم يترك لعبدالله من المال إلا ما يكفي لشراء خيمة متواضعة في الزاوية الشمالية الغربية من البازار وملئها بالبضائع. وما بقي من ثروة أبيه، ودكان السجاد الكبير الواقع وسط البازار، كلها ذهبت إلى أقارب زوجة أبيه الأولى.

لم يعرف عبدالله قط سبب خيبة أمل أبيه فيه. للأمر علاقة بنبوءة قيلت عند ولادته، لكن عبدالله لم يكترث قط لمعرفة المزيد. بل اكتفى بتصور أحلام يقظة حيال الأمر منذ أن كان صغيرًا. في أحلام يقظته كان الابن الضائع لأمير عظيم، وهذا يعني بلا شك أن أباه لم يكن أباه. لم يكن ذلك إلا قلعة في الهواء، وعرف عبدالله ذلك حق المعرفة. فقد أخبره الجميع بأنه ورث ملامح أبيه. حين نظر في المرآة، رأى شابًّا وسيمًا قطعًا، له وجه نحيل كوجه الصقر، وعرف أنه شديد الشبه بصورة أبيه في شبابه - مقرًّا بحقيقة أن

والده كان له شارب كث، أما عبدالله فما زال يحك الشعرات الست النابتات فوق شفته العليا ويأمل في أن تتضاعف قريبًا.

لسوء الحظ، ومثلما اتفق الجميع، فقد ورث عبدالله شخصيته عن أمه؛ زوجة أبيه الثانية. كانت امرأة حالمة هيابة، وخيبة أمل كبيرة للجميع. لم يأبه عبدالله لهذا، فحياة تاجر البُسُط لا تأتي إلا بفرص قليلة للشجاعة وقد كان راضيًا بذلك إجمالًا. تبين أن الخيمة التي اشتراها ذات موقع جيد، وإن كانت صغيرة. فلم تبعد عن الحي الغربي الذي يسكنه الأثرياء في بيوتهم الكبيرة المحاطة بحدائق جميلة. والأفضل من هذا أنها أول جزء من البازار يأتي إليه صانعو البُسُط لدى قدومهم إلى زنزيب من الصحراء في طريقهم إلى الشمال. كان الأثرياء وصانعو السجاد يبحثون عن الدكاكين الكبيرة وسط البازار، ولكن العجيب أن كثيرًا منهم كانوا راغبين في التوقف عند خيمة تاجر البُسُط الشاب حين يعترض ذلك التاجر الشاب طريقهم ويعرض عليهم صفقات وحسومات بتهذيب مفرط.

على هذا المنوال، كثيرًا ما نجح عبدالله في شراء أفضل أنواع البُسُط قبل أن تقع عليها عينا أي أحد آخر، وأن يبيعها محققًا ربحًا أيضًا. بين الشراء والبيع يجلس في خيمته ويستأنف أحلام اليقظة، التي ناسبته كثيرًا. بل إن المشكلة الوحيدة في حياته كانت أقارب زوجة أبيه الأولى، الذين يستمرون في زيارته كل شهر للتلميح إلى فشله.

«لكنك لا تدخر شيئًا من أرباحك!»، قال حكيم ابن أخي زوجة أبي عبدالله الأولى (الذي يبغضه عبدالله)، في يوم منحوس.

فشرح له عبدالله أن عادته أن يشتري بالربح بساطًا أحسن. وهكذا، رغم أن كل ماله يُصرف على مخزونه من السلع، فإنه يغدو أفضل فأفضل. كان لديه ما يكفيه قوت يومه، ولا يحتاج إلى المزيد لأنه عازب، كما قال لأقارب زوجة أبيه.

«عليك أن تتزوج إذن!»، قالت أخت زوجة أبي عبدالله الأولى فاطمة (التي يبغضها عبدالله أكثر). «قلتها مرة وسأكرر قولي؛ شاب مثلك لا بد أن يكون له زوجتان على الأقل!» ولمَّا لم تكتفِ فاطمة بقولها هذا، أعلنت أنها هذه المرة ستبحث له عن زوجة، عرضٌ جعل عبدالله يرتعد خوفًا.

«وكلما كانت بضاعتك أغلى، زاد احتمال سرقتها، أو أن تكون خسارتك أكبر إن اشتعلت النيران في خيمتك، هل فكرت في هذا؟»، تذمر ابن عم زوجة أبي عبدالله الأولى آصف (الذي يكرهه عبدالله أكثر من الاثنين الأولين معًا).

أكد لآصف أنه ينام دومًا في خيمته ويحمل المصباح بحذر شديد. هز الأقارب الثلاثة لزوجة أبيه الأولى رؤوسهم، وفرقعوا بألسنتهم وغادروا. وهذا يعني عادة أنهم سيتركونه في سلام لشهر آخر. تنفس عبدالله الصعداء وعاد إلى الغرق في حلم يقظته.

غدا حلم اليقظة كثير التفاصيل. وفيه كان عبدالله ابنًا لأمير

قوي يعيش أقصى الشرق في بلاد تجهلها زنزيب. لكن عبدالله اختُطف في عمر الثانية على يد قاطع طريق لئيم اسمه كابول عقبة. كان لكابول عقبة أنف معقوف مثل منقار العُقاب ويضع حلقة ذهبية مشبوكة في أحد منخاريه. حمل معه مسدسًا له أخمص مغطى بالفضة هدد به عبدالله، وعلى عمامته حجر عقيق يمنحه قوة تفوق قوة البشر. كان عبدالله شديد الخوف فهرب في الصحراء، حيث وجده الرجل الذي يسميه أباه. ولم يضع حلم اليقظة في الحسبان أن أبا عبدالله لم يسافر إلى الصحراء في حياته، بل إنه كثيرًا ما قال إن من يجرؤ على الخروج من زنزيب مجنون ولا شك. ورغم ذلك، تخيل عبدالله كل بوصة مشاها في رحلة العطش والجفاف وتقرح القدمين المروعة قبل أن يجده تاجر البُسُط الطيب. وبالمثل، تخيل القصر الذي اختطف منه بتفاصيله الرائعة، بغرفة العرش ذات العمد والمبلطة بالحجر السماقي الأخضر، وغرف النساء والمطابخ، وكلها توحي بالثراء الفاحش. كان لسطحه سبع قباب، كل واحدة منها تغطيها رقائق الذهب.

غير أن حلم اليقظة غدا في الآونة الأخيرة يركز على الأميرة التي خطبها لعبدالله عند ولادته. كانت سليلة نسب رفيع مثل عبدالله وكبرت في غيابه لتصبح فائقة الجمال ذات تقاسيم بديعة وعينين سوداوين حالمتين. وعاشت في قصر فاخر مثل قصر عبدالله، يصل إليه المرء من درب مشجر تحفه تماثيل ملائكية، ويدخله عبر طريق ذي سبع باحات رخامية، لكل منها نافورة في وسطها أجمل من

سابقتها، تبدأ بواحدة صنعت من الزبرجد الزيتوني وتنتهي بواحدة من الذهب الأبيض المرصع بالزمرد.

لكن عبدالله ذلك اليوم لم يشعر بتمام الرضا عن تخطيطه هذا. وهذا شعور ينتابه كثيرًا بعد زيارة أقارب زوجة أبيه الأولى. وخطر له أن القصر الجميل لا بد له من حدائق كبيرة. كان عبدالله مولعًا بالحدائق رغم معرفته البسيطة بها، إذ جاءت معظم خبرته من المتنزهات العامة في زنزيب -التي يداس عشبها وتقل أزهارها- التي قضى فيها أحيانًا ساعة غدائه إن استطاع الدفع إلى جمال الأعور ليراقب له خيمته. كان جمال صاحب كشك المقليات المجاور، ويسعه، مقابل قطعة نقدية أو نحوها، أن يربط كلبه أمام خيمة عبدالله. أدرك عبدالله كل الإدراك أن هذا لن يؤهله حقًّا لابتكار حديقة جميلة، ولكن ما دام أي شيء أفضل من التفكير في زوجتين تختارهما له فاطمة، فقد انصرف إلى السعف المتماوج والممرات المعطرة في حدائق أميرته.

أو كاد. قبل أن يبدأ عبدالله، قاطعه رجل طويل قذر يحمل بساطًا رث المظهر بين يديه.

«أتشتري بُسُطًا لتبيعها، يا سليل الحسب؟»، سأل هذا الغريب منحنيًا قليلًا.

لامرئ يحاول بيع بساط في زنزيب، حيث الباعة والمشترون يخاطبون بعضهم بعضًا بأشد أساليب الكلام رسمية وتزويقًا، كان أسلوب هذا الرجل فظًّا جدًّا. استاء عبدالله على أية حال لأن

حديقة حلمه تداعت عند هذه المقاطعة من الحياة الواقعية. فأجابه باقتضاب «هذا صحيح، يا ملك الصحراء. أتود أن تقايض هذا التاجر التعس؟».

«لا أقايض، بل أبيع، يا سيد أكداس الحُصُر»، صحّح له الغريب.

الحُصر! قال عبدالله في نفسه. كانت هذه إهانة. كان أحد البُسُط المعروضة أمام خيمة عبدالله مزهرًا معنقدًا من إنغري -أو أوشنستان كما يسمون تلك البلاد في زنزيب- وكان داخل الخيمة اثنان من إنهيكو وفرقطان، الذي ما كان السلطان نفسه ليأنف من مدّه في إحدى الغرف الصغيرة في قصره. لكن عبدالله لم يستطع قول هذا طبعًا، فعادات زنزيب تمنع المرء من مدح نفسه، فاكتفى بانحناءة باردة قصيرة.

«قد يتوفر في دكاني الوضيع الحقير ما تبحث عنه يا درة الجوالين»، قال وألقى نظرة مزدرية على ثوب الغريب الصحراوي القذر، والزمام المتآكل في جانب أنفه وعمامته البالية وهو يقول ذلك.

«إنه أكثر من حقير يا بائع فُرُش الأرض العظيم»، وافقه الغريب. وخفق طرفًا من بساطه الرث ناحية جمال، الذي كان يقلي حبارًا في غيوم زرقاء تفوح منها رائحة السمك «ألا يتغلغل العمل الشريف لجاركم في بضاعتك»، سأل، «كما تفعل رائحة الأخطبوط النفاذة؟».

تميّز عبدالله غيظًا واضطر إلى فرك يديه بتذلل لإخفاء ذلك. لا يحسن بالناس قول أشياء من هذا القبيل. ثم إن رائحة الأخطبوط

الطفيفة قد تجمّل ذلك الشيء الذي يود الغريب بيعه، قال في نفسه وهو يعاين البساط المهلهل الباهت في يدي الرجل.

«يحرص خادمك المطيع على تبخير أرجاء خيمته بعطور وفيرة، يا أمير الحكمة»، قال. «لعل الحساسية النبيلة لأنف الأمير تسمح له رغم ذلك أن يعرض على هذا التاجر الوضيع بضاعته؟».

«من غير ريب يا زنبقة بين أسماك الأسقمري»، رد الغريب. «وإلا فيم وقوفي هنا إذن؟».

فتح عبدالله الستارة مترددًا وقاد الرجل إلى داخل خيمته. هنالك أشعل المصباح المتدلي من عمود الوسط، ولكن بعدما تنشق رائحة خيمته عزم على ألا يهدر البخور على هذا الشخص. فقد كانت الرائحة من عطور البارحة قوية تمامًا. «أي تحفة لديك تعرضها على عينيّ الحقيرتين؟»، سأل متشككًا.

«هذا، يا مشتري اللقط!» قال الرجل، وبدفعة رشيقة من يده انفتح البساط وامتد على الأرض.

يستطيع عبدالله فعل هذا أيضًا، فبائع البُسُط يتعلم هذه الأشياء. لم يدهش، بل دس يديه في كميه متصنعًا التذلل وفحص البضاعة. لم يكن البساط كبيرًا، وبدا بعد فتحه أكثر رثاثة مما ظن، رغم أن نقوشه كانت غريبة أو لو أنها لم تهترئ لكانت غريبة. وما بقي منها كان قذرًا وأطرافها بالية.

«وا حسرتاه، لن يجني هذا البائع شيئًا إلا ثلاث قطع نحاسية

مقابل هذا البساط كثير الزخارف»، قال. «وهذا ما يتوفر في محفظتي الهزيلة. الأيام صعبة يا قائد الجِمال الكثيرة. أيعجبك السعر بأية حال؟».



«سآخذ خمسمئة»، قال الغريب.

«ماذا؟»، قال عبدالله.

«قطع ذهبية»، أردف الغريب.

«لا بد أن ملك لصوص الصحاري يحب المزاح؟»، قال عبدالله. «أو لعله رأى خيمتي الصغيرة ليس فيها شيء إلا رائحة قلي الحبار، أيود أن يغادر ويرى تاجرًا أغنى؟».

«ليس تمامًا»، قال الغريب. «رغم أني سأغادر إن لم تكن مهتمًا، يا جار سمك السلمون. إنه بساط سحري قطعًا».

سمع عبدالله هذا من قبل، فانحنى فوق يديه المدسوستين. «كثيرة جمة المزايا التي تتحلى بها البُسُط كما يقال»، قال موافقًا. «فأي شيء يزعم شاعر الرمال أن بساطه يتحلى بها؟ أيرحب بالرجل العائد إلى خيمته؟ أيُحِل الهدوء على المستوقد؟ أو ربما»، قال واكزًا الطرف المهترئ بإصبع قدمه عمدًا، «يقال إنه لا يهترئ أبدًا؟».

«إنه يطير»، قال الغريب. «يطير حيثما أمره صاحبه، يا أصغر العقول الصغيرة».

نظر عبدالله إلى وجه الرجل الداكن، حيث حفرت الصحراء خطوطًا عميقة تحت كل خد، وزاد التهكم من عمق الخطوط.

رأى عبدالله أنه كره الرجل بقدر ما كره ابن عم زوجة أبيه الأولى. «عليك أن تقنع هذا المتشكك»، قال. «إن تسنى لنا تجربة البساط، يا ملك الإفك، فلعلنا نبرم البيعة».

«بكل سرور»، قال الرجل الطويل ووقف على البساط.

في تلك اللحظة، نشب شجار في كشك الطعام المقلي المجاور كالعادة، فقد حاول بعض أولاد الشوارع سرقة بعض الحبار. على أية حال، اندفع كلب جمال نابحًا، وأخذ عدد من الناس من بينهم جمال يصرخون وكاد صوت تحطم الصحون وحسيس الدهن الساخن يغطي على تلك الأصوات.

كان الغش أسلوب حياة في زنزيب. لم يغفل عبدالله لحظة عن الغريب وبساطه. وكان محتملًا أن الرجل رشا جمالًا ليثير الجلبة. فقد ذكر جمالًا كثيرًا، كأن جمالًا يستحوذ على تفكيره. أبقى عبدالله نظره ثابتًا على القوام الطويل للرجل وتحديدًا على القدمين القذرتين المغروستين على البساط. لكنه أبقى جزءًا من نظره ليرى وجه الرجل فرأى شفتي الرجل تتحركان. وسمعت أذناه اليقظتان الكلمات «اعلُ قدمين إلى الأعلى» رغم الضجيج القادم من الدكان المجاور. ونظر بحذر أكثر حين ارتفع البساط بهدوء عن الأرض وحوّم بارتفاع ركبتي عبدالله، حتى لا تمس عمامة الغريب البالية سقف الخيمة. بحث عبدالله عن قضبان في الأسفل، وعن أسلاك ثبتت خلسة في السقف. وأمسك بالمصباح وأماله، فأضاء المصباح ما فوق البساط وما تحته في آن واحد.

وقف الغريب طاويًا ذراعيه والسخرية تحفر وجهه أثناء قيام عبدالله بهذه الأمور. «أترى؟»، قال. «أصدّق أشد المتشككين يأسًا الآن؟ أأنا واقف في الهواء أم لست كذلك؟». وتعين عليه أن يصرخ، إذ ما زال الضجيج القادم من الدكان المجاور يصمّ الآذان.

اضطر عبدالله إلى الاعتراف بأن البساط يبدو في الهواء دون أي أن يجد وسائل مساعدة. «كاد يصدق»، صرخ ردًّا. «والجزء التالي من عرضك أن تنزل لأركب البساط».

عبس الرجل. «ولماذا؟ وأي حواس أخرى ستثبت لك ما رأته عيناك، يا تنين الظنون».

«قد يكون بساطًا لرجل واحد»، زعق عبدالله، «مثل بعض الكلاب». كان كلب جمال لم يزل ينبح في الخارج، فلا بد أن يفكر في ذلك، وكلب جمال يعض كل من يلمسه إلا جمال.

تنهد الغريب. «انزل»، قال، فنزل البساط إلى الأرض بهدوء. ابتعد عنه الغريب ودفع عبدالله نحوه. «إنه أمامك لتجربه، يا شيخ الدهاء».

وطئ عبدالله البساط بقدر معقول من الحماس. «ارتفع قدمين»، قال له، أو صاح بالأحرى. ووصل حينئذ عسس المدينة إلى كشك جمال، فكانوا يقعقعون بالسلاح ويصرخون ليقال لهم ما حدث.

وأطاع البساطُ عبدالله، وارتفع قدمين في اندفاع سلس جعل معدة عبدالله تضطرب في أثره، فأسرع بالجلوس. كان البساط مريحًا

جدًّا في الجلوس، إذ بدا مثل أرجوحة نوم مشدودة جيدًا. «لقد اقتنع هذا الألمعي الخامل التعس»، اعترف للغريب. «كم كان السعر مرة ثانية، يا آية الجود؟ مئتا قطعة فضية؟».

«خمسمئة قطعة ذهبية»، قال الغريب. «قل للبساط أن ينزل وسنناقش الأمر».

قال عبدالله للبساط «انزل، واهبط على الأرض»، ففعل مزيحًا كل أثر للشك من ذهن عبدالله بأن يكون الغريب قال شيئًا إضافيًّا حين وطئ عبدالله البساط أول مرة حجبه عن سمعه الضجيج القادم من الدكان المجاور. فهبَّ واقفًا وبدأت المساومة.

«كل ما في محفظتي مئة وخمسون قطعة ذهبية»، قال موضحًا، «وهذا حين أنفضها وأتحسس زواياها».

«عليك إذن أن تأتي بمحفظتك الأخرى أو تتحسس أسفل فراشك»، قال الغريب. «فغاية كرمي هي أربعمئة وخمسة وتسعون قطعة ذهبية وما كنت لأبيعه لولا الحاجة الملحة».

«قد أعصر خمسة وأربعين قطعة ذهبية أخرى من نعل حذائي الأيسر»، أجاب عبدالله. «وهذا أحتفظ به للحالات الطارئة، وهذا المبلغ التافه هو كل ما أملك».

«انظر في حذائك الأيمن»، أجاب الغريب. «عن أربع وخمسين».

وهكذا مضى الأمر. خرج الغريب بعد ساعة من الخيمة بمئتين وعشر قطع ذهبية، تاركًا عبدالله المالك السعيد لما بدا بساطًا سحريًّا

فريدًا وإن كان باليًا. لم يزل الشك يساوره، إذ لم يصدق أن أحدًا، حتى جوَّاب الصحراء ذا الحاجات القليلة، قد يتخلى عن بساط طائر حقيقي -رغم أنه مهترئ- بأقل من أربعمئة قطعة ذهبية. كان مفيدًا جدًّا، أكثر من الجمل لأنه لا يحتاج إلى الطعام، والجمل الجيد يكلف أربعمئة وخمسين قطعة ذهبية.

لا بد أن في الأمر خدعة، وقد سمع عبدالله بحيلةٍ تُمارس مع الخيول أو الكلاب. إذ يأتي الرجل ليبيع مزارعًا واثقًا أو صيادًا حيوانًا بديعًا بثمن بخس حقًّا، قائلًا إن هذا كل ما يحتاجه ليقي نفسه التضور جوعًا. فيضع الفلاح (أو الصياد) السعيد الحصان في إسطبل (أو الكلب في وجار) لقضاء الليلة. وسيجده اختفى صباحًا، إذ دُرب على أن ينسل من لجامه (أو طوقه) ويعود إلى صاحبه ليلًا. وخُيل إلى عبدالله أن بساطه المطيع قد دُرب ليفعل الأمر نفسه. لذا قبل أن يغادر خيمته، لف البساط السحري بحذر شديد حول أحد الأعمدة التي تسند السقف وربطه هناك، مرة بعد مرة، ببكرة كاملة من الحبال، ربطه بعدئذ بأوتاد حديدية أسفل الجدار.

«أحسبك سيصعب عليك الفرار من هذا»، قال للبساط، وخرج ليعرف ما الذي يجري في كشك الطعام.

كان الكشك هادئًا ومرتبًا، وجمال جالسًا على منضدته يحضن كلبه حزينًا.

«ماذا حدث؟»، سأل عبدالله.

«بعض الأولاد السارقين سفحوا كل الحبار»، قال جمال. «لقد وقعت بضاعة اليوم في التراب، وضاعت، وأهدرت!».

كان عبدالله مسرورًا بلُقطته فنفح جمالًا قطعتين فضيتين ليشتري المزيد من الحبار. فبكى جمال امتنانًا وعانق عبدالله، ولم يحجم كلبه عن عض عبدالله وحسب، بل لعق يده. ابتسم عبدالله، فالحياة طيبة، ومضى يصفر ليتناول عشاء لذيذًا والكلب يحرس خيمته.

حين كان المساء يلطخ السماء بالحمرة خلف قباب زنزيب ومناراتها، عاد عبدالله ولم يزل يصفر، مفعمًا بالخطط لبيع البساط للسلطان بثمن باهظ. فوجد البساط حيث تركه. أو لعله يجدر به أن يجرب الوزير الأكبر، تساءل وهو يغتسل، ظانًّا أن الوزير يود إهداء السلطان شيئًا؟ هكذا يسعه أن يطلب ثمنًا أكبر. ولدى تفكيره في قيمة البساط، أخذت قصة الحصان المدرب على الانسلال من اللجام تلح عليه ثانية. ولما لبس عبدالله منامته أخذ يتخيل البساط يتلوى حرًّا. كان قديمًا ومهترئًا، ولعله مدرب جيدًا، لا بد أن في وسعه الانزلاق من الحبل. وإن كان لم يفعل لكن عبدالله عرف أن هذه الفكرة ستؤرقه طوال الليل.

في النهاية، قطع الحبل بحذر ومد البساط فوق كومة من أنفس البُسُط، ينام عليها عادة. ثم اعتمر قبعته الليلية -وكان هذا لازمًا لأن الريح الباردة هبت من الصحراء وملأت الخيمة بالتيارات الهوائية- وبسط بطانيته فوقه، ونفخ على مصباحه ونام.

الفصل الثاني
وفيه يُظن أن عبدالله شابة

استيقظ ليجد نفسه مستلقيًا على مصطبة، والبساط لم يزل تحته، في حديقة أجمل من أي واحدة تخيلها.

كان عبدالله واثقًا بأن هذا حلم. فها هنا الحديقة التي كان يحاول تصورها عندما قاطعه الغريب بوقاحة. وهذا القمر شبه مكتمل يطفو عاليًا، ملقيًا ضوءًا أبيض كبياض الصبغ على مئة زهرة صغيرة شذية في العشب من حوله. ومصابيح صفراء مدوّرة معلقة في الأشجار، تبدد الظلال السوداء الدامسة من القمر. وجد عبدالله هذه فكرة حلوة جدًّا. وفي الضوءين الأبيض والأصفر رأى قنطرة من المعترشات قائمة على عمد أنيقة وراء المرج الذي يستلقي عليه، ومن مكان ما خلف ذلك كان ماء خفي يجري.

كان المكان شديد البرودة وشديد الشبه بالجنة فنهض عبدالله وطفق يبحث عن الماء المستتر، حيث لفحت وجهه أزهار نجمية، بيضاء خافتة في ضوء القمر، وزهور شبيهة بالأجراس تنفث أرق

العطور وأفواها. ومثلما يكون المرء في الأحلام، تلمس عبدالله زنبقة لدنة كبيرة هنا، وانعطف هناك مبتهجًا في وهدة من الورد الفاتح. لم يحلم قط من قبل حلمًا بهذا الجمال.

كان الماء المستتر، بعد أن وجده خلف أجمة شبيهة بالسراخس يقطر منها الندى، نافورة رخامية بسيطة في مرج آخر، تضيئها حبال من مصابيح في الأشجار صيّرت الماء المتموج أعجوبة من الأهلّة الذهبية والفضية. وتقدم نحوها عبدالله منتشيًا.

لم ينقصه إلا شيء واحد لتكتمل نشوته، وكما في أجمل الأحلام، كان ذاك الشيء موجودًا. فقد عبرت المرج للقائه فتاة باهرة الجمال، تتهادى على العشب الرطب بقدمين حافيتين. والثياب الشفيفة الخافقة من حولها تشي برشاقتها، لكنها ليست نحيلة، تشبه الأميرة في حلم يقظة عبدالله. ولما اقتربت منه رأى أن وجهها لم يكن بالبيضاوي كوجه أميرة حلمه، وليست عيناها الكبيرتان الداكنتان بالحالمتين. بل عاينتا وجهه بدقة واهتمام واضح. عدّل عبدالله حلمه سريعًا، لأنها بارعة الجمال من غير ريب. وحين تكلمت كان صوتها كل ما تمناه، جذلًا وطروبًا كالماء في النافورة وكصوت امرأة واثقة جدًّا.

«أأنتَ نوع جديد من الخدم؟»، قالت.

يسأل الناس أسئلة غريبة في الأحلام، قال عبدالله في نفسه. «كلا، يا تحفة خيالي»، قال. «اعلمي أنني ابنٌ لأمير قاصٍ، ضاع منذ زمن بعيد».

«أوه»، قالت. «قد يحدث هذا فرقًا. أيعني هذا أنك نوع من النساء مختلف عني؟».

نظر عبدالله إلى فتاة أحلامه بشيء من الحيرة. «أنا لست امرأة!»، قال.

«هل أنت واثق؟»، سألته. «فأنت تلبس ثوبًا».

نظر عبدالله إلى الأسفل وتبين له أنه، كما في الأحلام، يلبس منامته. «هذا ليس إلا ثوبي الأجنبي الغريب»، قال على عجالة. «بلادي الحقيقية بعيدة من هنا. أؤكد لك أني رجل».

«أوه لا»، قالت بحزم. «لا يمكن أن تكون رجلًا، فهيئتك ليست كهيئة الرجال. فالرجال أضخم منك بضعفين وتبرز بطونهم في جزء بدين يدعى كرشًا. وعلى وجوههم شعر رمادي ولا شيء على رؤوسهم إلا الجلد اللامع. على رأسك شعر مثل شعري ويكاد وجهك يخلو من الشعر». ثم حين وضع عبدالله يده بازدراء على الشعرات الست التي تعلو شفته العليا، سألته «أو لعلك أصلع الرأس تحت قبعتك؟».

«كلا قطعًا»، قال عبدالله الذي كان فخورًا بشعره المموج الكثيف. فوضع يده على رأسه وأزاح ما بدا أنه قبعته الليلية. «انظري»، قال.

«آه»، قالت. وارتسمت الحيرة على وجهها الجميل. «شعرك جميل مثل شعري. لا أفهم».

«وأظنني لا أفهم أيضًا»، قال عبدالله. «أيحتمل أنك لم تري رجالًا من قبل؟».

«نعم حتمًا»، قالت. «لا تكن سخيفًا، لم أرَ إلا أبي! لكني رأيته كثيرًا، لذا فإني أعرف».

«ولكن... هل تخرجين؟»، سأل عبدالله يائسًا.

ضحكت. «أجل، أنا في الخارج الآن. هذه حديقتي الليلية. بناها لي أبي حتى لا أفسد شكلي بالخروج في الشمس».

«أعني، تخرجين إلى المدينة، لتري الناس كلهم»، أوضح عبدالله.

«حسن، لا، ليس بعد»، قالت معترفة. ولأن هذا أثار استياءها قليلًا، فقد استدارت بعيدًا عنه وذهبت لتجلس على طرف النافورة. قالت بعد أن التفتت إليه «يقول لي أبي إني قد أتمكن من الخروج ورؤية المدينة أحيانًا بعد أن أتزوج -إن سمح لي زوجي بذلك- لكنها لن تكون هذه المدينة. يدبر لي أبي الزواج بأمير من أوشنستان. وحتى ذلك الحين عليَّ البقاء داخل هذه الجدران طبعًا».

سمع عبدالله أن بعض أثرياء زنزيب يبقون بناتهم -وزوجاتهم أيضًا- كالسجينات داخل بيوتهم الكبيرة. وكم تمنى أن يحبس أحدٌ أختَ زوجة أبيه الأولى فاطمة هكذا. ولكن الآن، في هذا الحلم، خُيل إليه أن هذه العادة مبالغ فيها وليست عادلة بحق هذه الفتاة الجميلة. عجبٌ أنها لا تعرف كيف يبدو الشاب العادي!

«اغفري لي سؤالي، ولكن أيعقل أن هذا الأمير من أوشنستان مسن وقبيح قليلًا؟»، قال.

«حسن»، قالت والشك بادٍ عليها، «يقول أبي إنه في عنفوان شبابه، مثل أبي. لكني أظن أن المشكلة تكمن في الطبع الجامح للرجال. يقول أبي إن رآني رجل آخر قبل أن يراني الأمير، فإنه سيغرم بي من فوره وسيأخذني معه، وهذا ما سيفسد خطط أبي بطبيعة الحال. يقول إن جل الرجال بهائم كبيرة. فهل أنت بهيمة؟».

«ولا بأي شكل من الأشكال»، قال عبدالله.

«هذا ما ظننته»، قالت، ونظرت إليه في اهتمام بالغ. «لا تبدو لي بهيمة. وهذا يجعلني واثقة بأنك لست بالرجل حقًّا». واضح أنها من الناس الذين يتشبثون بنظرية ابتدعوها مرة. ثم سألت بعد أن فكرت لحظة «أيحتمل أن أسرتك، لأسباب تعنيهم، ربوك لتصدق كذبة؟».

ودَّ عبدالله لو قال لها إن العكس صحيح، ولكن، بعدما تبين له أن في هذا قلة أدب، اكتفى بهز رأسه نفيًا وقال إنه لكرمٌ منها أن تشغل بالها بأمره، وإن القلق على وجهها زاده جمالًا، ناهيك بلمعان عينيها تعاطفًا في الضوء الذهبي والفضي المنعكس من النافورة.

«ربما كان هذا لأنك من بلاد بعيدة»، قالت وربتت على طرف النافورة إلى جوارها. «اجلس واحكِ لي».

«أخبريني باسمك أولًا»، قال عبدالله.

«إنه اسم سخيف نوعًا ما»، قالت متوترة. «أُدعى زهرة في الليل».

كان الاسم الملائم لفتاة أحلامه، خطر لعبدالله. نظر إليها معجبًا «اسمي عبدالله»، قال.

«لقد سموك باسم رجل أيضًا!»، قالت زهرة في الليل بامتعاض. «اجلس واحكِ لي».

جلس عبدالله على الحاجز الرخامي بجوارها وظن هذا حلمًا حقيقيًّا جدًّا. كان الحجر باردًا، ولامس رشاش من النافورة منامته، وإذ امتزجت الرائحة الحلوة لماء الورد من زهرة في الليل بشذى الزهور في الحديقة امتزاجًا حقيقيًّا، فقد اتضح أن أحلام يقظته حقيقية هنا أيضًا. فأخبرها عبدالله بكل شيء عن القصر الذي عاش فيه أميرًا وأنه اختطفه كابول عقبة وهرب به إلى الصحراء، حيث وجده تاجر البُسُط.

أصغت زهرة في الليل بتعاطف تام. «يا للرعب! يا للمشقة!»، قالت. «أيمكن أن يكون أبوك بالتبني متواطئًا مع اللصوص لخداعك؟».

شعر عبدالله بإحساس متنامٍ، رغم أنه كان يحلم وحسب، بأنه يحصد تعاطفها على ادعاءات كاذبة. ووافقها على أن أباه قد يكون يعمل لحساب كابول عقبة، ثم غير الموضوع. «لنعد إلى أبيك وخططه»، قال. «يخيل إليَّ أنه لأمر غريب أن تتزوجي هذا الأمير

من أوشنستان دون رؤية رجال آخرين تقارنينه بهم. كيف ستعرفين إن كنت تحبينه أم لا؟».

«أنت محق»، قالت. «وهذا يثير قلقي أحيانًا».

«سأخبرك بأمر إذن»، قال عبدالله. «ما رأيك لو عدت غدًا وجلبتُ معي صور رجال بقدر ما أستطيع؟ سيمنحك هذا شيئًا من المعايير لتقارني الأمير وفقها». حلم أم لا، لم يشك عبدالله قطعًا أنه سيعود غدًا، وسيعطيه هذا حجة مناسبة.

فكرت زهرة في الليل في هذا العرض، متمايلة في حيرة إلى الأمام والخلف ويداها متشابكتان حول ركبتيها. ولاح لعبدالله صف من الرجال البدينين الصلع ذوي اللحى الشائبة يمرون في خيالها.

«أؤكد لك»، قال، «إن الرجال لهم أشكال وأحجام شتى».

«سيكون هذا أمرًا تثقيفيًّا جدًّا»، قالت موافقة. «سيعطيني حجة لرؤيتك ثانية، فأنت من ألطف الناس الذين رأيتهم».

فزاد هذا من إصرار عبدالله على العودة غدًا. وقال في نفسه إن من الحيف تركها في هذه الحال من الجهل. «وأنا أقول المثل عنك»، قال خجلًا.

عندئذ، ولخيبته، نهضت زهرة في الليل لتغادر. «عليَّ الدخول الآن»، قالت. «يجب ألا تستمر الزيارة الأولى أكثر من نصف ساعة، وأكاد أكون واثقة بأنك قضيت هنا وقتًا أطول من ذلك بمرتين. أما وقد تعارفنا، فيسعك البقاء ساعتين المرة القادمة».

«شكرًا لك. سأفعل»، قال عبدالله.

ابتسمت وذهبت كالحلم وراء النافورة ثم خلف أجمتين مزهرتين مورقتين.

بعدئذ، غدت الحديقة ونور القمر والعطور تافهة، فلم يفكر عبدالله في شيء يفعله أفضل من السير عائدًا من حيث أتى. وهنالك، على المصطبة المضاءة بنور القمر وجد البساط. لقد نسي أمره تمامًا. ولكن ما دام موجودًا في الحلم أيضًا فقد اضطجع عليه وغط في النوم.

استيقظ بعد ساعات وضوء نهار ساطع يتسلل من شقوق خيمته. ووجد رائحة بخور أمس الأول العالقة في الهواء رخيصة خانقة. بل إن الخيمة بكاملها نتنة ورديئة ورخيصة. وكانت أذنه تؤلمه لأن قبعته الليلية قد وقعت أثناء الليل. لكنه وجد، أثناء بحثه عن القبعة الليلية، أن البساط لم يهرب في الليل، بل لم يزل تحته. كان هذا أمرًا جيدًا في ما بدا له فجأة حياة رتيبة تعسة جدًّا.

هنا جمال، الذي لم يزل شاكرًا للقطعتين الفضيتين، نادى من الخارج أنه أعد الفطور لكليهما. رفع عبدالله ستارة الخيمة مسرورًا. صاحت الديكة من بعيد، والسماء تشع زرقة، ومرت أشعة ضوء النهار القوي عبر الغبار الأزرق والبخور القديم داخل الخيمة. ولم يجد عبدالله قبعته الليلية حتى في وضح النهار، وازداد أساه.

«قل لي، أتجد نفسك أحيانًا حزينًا على بعض الأيام لأسباب لا

تعلمها؟»، سأل جمالًا حين جلس كلاهما متربعين تحت الشمس في الخارج ليأكلا.

ألقم جمال برقة كلبه قطعة من المعجنات الحلوة. «لولاك لكنت حزينًا اليوم»، قال. «أظن أن أحدًا دفع إلى أولئك الصبية اللئام ليسرقوا. كانوا بارعين جدًا. وعلاوة على ذلك فقد غرمني رجال العسس. هل قلت لك؟ أظن أن لي أعداء يا صديقي».

رغم أن هذا أكد شكوك عبدالله في الغريب الذي باعه البساط، فإنه لم يكن بذي فائدة كبيرة. «ربما»، قال، «عليك أن تكون أكثر حذرًا فيمن تسمح لكلبك بعضه».

«لست أنا!»، قال جمال. «أنا مؤمن بالإرادة الحرة. إن شاء كلبي أن يكره كل بني البشر عداي، فلا بد أن يكون حرًّا في ذلك».

بعد الإفطار، بحث عبدالله عن قبعته الليلية ثانية. لم تكن موجودة، وحاول أن يتذكر بعناية آخر مرة كان يضعها فيها. كان ذلك عندما اضطجع للنوم الليلة الماضية، أثناء تفكيره في أخذ البساط إلى الوزير العظيم. وبعد ذلك بدأ الحلم. وجد أنه كان يعتمر قبعته الليلية حينئذ، وتذكر أنه خلعها ليري زهرة في الليل (يا له من اسم بديع!) أنه ليس بأصلع. منذئذ، وبقدر ما تسعفه ذاكرته، حمل قبعته الليلية في يده حتى اللحظة التي جلس فيها بجوارها على طرف النافورة. بعدها، حين تذكر قصة اختطافه على يد كابول عقبة، تذكر بوضوح التلويح بكلتا يديه بحرية وهو يتكلم وعرف أن القبعة الليلية لم تكن في أية يد. تختفي الأشياء هكذا في الأحلام،

أدرك هذا، لكن الدليل يثبت، رغم ذلك، أنه أوقعها حين جلس. أيحتمل أنه تركها على العشب قرب النافورة؟ وفي هذه الحال...

تسمر عبدالله وسط الخيمة، محملقًا إلى أشعة ضوء النهار التي، ويا للغرابة، لم تعد مترعة بذرات قذرة من الغبار والبخور العتيق. بل كانت شرائح ذهب خالص من الجنة نفسها.

«لم يكن حلمًا!»، قال عبدالله.

لقد تبدد بؤسه نوعًا ما، وصار تنفسه أسهل.

«لقد كان حقيقة!»، قال.

ذهب ليقف متفكرًا ناظرًا إلى البساط السحري. لقد كان هذا في الحلم أيضًا. وفي هذه الحال... «هذا يعني أنك نقلتني إلى حديقة رجل ثري أثناء نومي»، قال له. «لعلي تكلمت وأمرتك أن تفعل ذلك في نومي. وارد جدًا. كنت أفكر في الحدائق. إنك أثمن بكثير مما ظننت».

الفصل الثالث

وفيه تعرف زهرة في الليل عددًا من الحقائق المهمة

ربط عبدالله بحذر البساط إلى عمود السقف مرة أخرى وخرج إلى البازار، ومضى نحو خيمة أمهر الرسامين الجالسين هناك.

وبعد التحيات المعتادة، التي دعا خلالها عبدالله الفنان بأمير قلم الرصاص وساحر الطباشير، ورد الفنان على عبدالله بدعوته صفوة الزبائن ودوق النباهة، قال عبدالله «أريد رسومات لكل صنف وشكل وحجم من الرجال رأيتها. ارسم لي ملوكًا وشحاذين، تجارًا وصانعين، بدينين ونحيلين، شيبًا وشبانًا، وسيمين ودميمين، وعاديين ومتوسطين. وإن لم تكن عينك قد وقعت على بعض أصناف هؤلاء الرجال، فإني أسألك أن تبتدعهم يا بهي الريشة. وإن أخفق إبداعك، وهذا ما أستبعده، يا أفخم الفنانين، فكل ما عليك فعله أن تدير عينيك إلى الخارج وتنظر وتقلد!».

مد عبدالله ذراعًا ليشير إلى الجموع الغفيرة المندفعة المتسوقة في البازار. وكاد ينفجر باكيًا لمَّا تذكر أن هذا المنظر اليومي أمر لم تره زهرة في الليل قط.

مرر الفنان يده على لحيته المشعثة محتارًا. «من غير ريب أيها المحب النبيل لبني البشر»، قال. «هذا يسير عليَّ فعله. ولعل درة الحصافة يخبر هذا الرسام الوضيع بحاجته إلى هذه الرسومات».

«ولماذا يود تاج لوح الرسم وإكليله معرفة ذلك؟»، سأل عبدالله بشيء من الخوف.

«قطعًا، يدرك شيخ الزبائن أن هذا الدودة المتلوية يود معرفة أي وسيلة يستخدم»، أجاب الفنان. وفي الحقيقة انتابه فضول لمعرفة السبب وراء هذا الطلب الغريب. «أأرسم بالزيت على الخشب أو القماش، أم بقلم الحبر على الورق أو الرق، أم بالجص على الجدار، بناء على ما يشاء لؤلؤة الرعاة فعله بهذه الرسوم».

«آه، ورق من فضلك»، قال عبدالله على عجالة. لم يكن عنده رغبة في إفشاء سر اللقاء مع زهرة في الليل. فقد تبين له أن أباها رجل فاحش الثراء لن يوافق قطعًا على أن يعرض تاجر بُسُط شاب عليها رجالًا آخرين غير أميره من أوشنستان. «هذه الرسوم لعاجز لم يتمكن يومًا من الخروج كما يفعل الرجال الآخرون».

«فأنت بطل الإحسان إذن»، قال الفنان، ووافق على رسم الصور مقابل مبلغ زهيد حقًا.

«كلا، يا ابن النعيم، لا تشكرني»، قال عندما حاول عبدالله إظهار امتنانه. «ولي أسباب ثلاثة. أولها لقد رسمت رسومًا كثيرة للتسلية، وليس عدلًا أن أتقاضى منك أجرًا عليها، ما دمت قد رسمتها على

أية حال. ثانيها المهمة التي تطلبها أكثر إثارة بعشرة أضعاف من عملي المعتاد، أي أن أرسم شابات أو عرائسهم، أو خيولًا وجمالًا، وكل هذا عليَّ أن أرسمه رسمًا جميلًا بصرف النظر عن الحقيقة، أو أن أرسم صفوفًا من الأطفال اللزجين الذين يود أهلهم أن يبدوا كالملائكة، بصرف النظر عن الحقيقة مرة أخرى. وسببي الثالث هو أني أراك مجنونًا، يا أنبل زبائني، وسيورثني استغلالك حظًا منحوسًا».

وسرعان ما ذاع في أنحاء البازار أن الشاب عبدالله تاجر البُسُط قد فقد صوابه وسيشتري أي رسومات يود الناس بيعها.

كان هذا مزعجًا لعبدالله، فقد قضى ما بقي من يومه يقاطعه أناس يأتون بخطابات مطنبة منمقة حول هذه الرسمة لجدتهم لن يدفعهم إلى بيعها إلا الفاقة، أو رسمة لجمل سباق السلطان الذي سقط عن ظهر عربة، أو قلادة فيها رسمة لأختهم. استغرق عبدالله وقتًا طويلًا للتخلص من هؤلاء الناس، وفي بعض الحالات اشترى رسمة أو لوحة إن كان موضوعها رجلًا، وهذا ما دعا الناس إلى مواصلة القدوم.

«اليوم فقط. يدوم عرضي حتى مغيب شمس اليوم»، قال للجمع المحتشد أخيرًا. «ليأتِ إليَّ كل من عنده رسمة لرجل يود بيعها قبل ساعة من الغروب وسأشتري. ولكن حتى ذلك الوقت فقط».

فمنحه هذا بضع ساعات من الهدوء ودَّ تجربة البساط فيها. أخذ يتساءل إن كان محقًا في الظن بأن زيارته إلى الحديقة لم تكن إلا حلمًا، فالبساط لم يتحرك. لقد جربه عبدالله طبعًا بعد الإفطار إذ

سأله أن يرتفع قدمين ثانية، ليثبت أنه ما زال قادرًا على ذلك. ولكنه ظل على الأرض، فتفحصه ثانية لدى عودته من خيمة الرسام، فوجده لا يزال هناك.

«ربما لم أحسن معاملتك»، قال للبساط. «لقد مكثت معي مخلصًا، رغم ظنوني، وكافأتك بربطك في العمود. أستسعد لو أطلقتك على الأرض يا صديقي؟ أهذا ما تريد؟».

ترك البساط على الأرض، لكنه لم يطِر. ولم يعدُ كونه بساطَ مستوقد قديم.

فكر عبدالله ثانية، والناس يزعجونه لشراء اللوحات. وعادت إليه ظنونه بالغريب الذي باعه هذا البساط والفوضى الكبيرة التي اندلعت في كشك جمال في اللحظة نفسها التي أمر الغريب فيها البساط بالارتفاع. تذكر أنه رأى شفتي الرجل تتحركان في المرتين، لكنه لم يسمع كل ما قال.

«هذه هو الأمر!»، صاح ضاربًا قبضته على راحة يده الأخرى. «لا بد من قول كلمة سرية قبل أن يتحرك، ولأسبابه الخاصة -أسباب خبيثة من غير ريب- كتمها هذا الرجل عني. اللئيم! ولا بد أن هذه الكلمة قيلت أثناء نومي».

اندفع إلى مؤخرة خيمته وبحث عن القاموس المهترئ الذي استخدمه في المدرسة يومًا. ثم واقفًا على البساط قال «يا أبا ذقن طِر من فضلك!».

لم يحدث شيء، لا حينئذ ولا لدى قوله أية كلمة تبدأ بحرف الألف. بإصرار انتقل عبدالله إلى حرف الباء، ولمّا لم يُجدِ هذا نفعًا، واصل ثانية مجربًا القاموس بكامله. ومع تواصل مقاطعات بائعي اللوحات، استغرق هذا بعض الوقت. رغم ذلك، وصل كلمات حرف الياء أول المساء من غير أن يتحرك البساط قيد أنملة.

«لا بد أنها كلمة مختلقة أو أجنبية!»، قال منفعلًا. إما أنها كذلك، وإما أن يصدق أن زهرة في الليل كانت حلمًا ليس إلا. وإن كانت حقيقية، فإن فرصه في جعل البساط يأخذه إليها تبدو أضعف في اللحظة الراهنة. وقف هناك لافظًا كل صوت غريب أو كل كلمة أجنبية تذكرها، وظل البساط لا يأتي بأية حركة.

قاطع عبدالله مرة أخرى قبل ساعة من الغروب جمعٌ محتشد خارجًا، حاملًا رزمًا ورزمًا منبسطة كبيرة. تعيَّن على الفنان أن يشق طريقه في الجمع حاملًا حقيبة رسوماته. كانت الساعة التالية مثيرة إلى أبعد حد. إذ تفحص عبدالله الرسومات، ورفض رسمات العمات والأمهات، وخفّض الأثمان الباهظة المطلوبة مقابل رسمات أبناء الإخوة. وفي تلك الساعة حصل، إضافة إلى الرسومات البارعة المئة من الفنان، على تسع وثمانين لوحة وقلادة ورسمة إضافية، بل حصل على جزء من جدار طُلي عليه وجه. كما أنه أنفق كل ما بقي عنده من مال بعد شرائه البساط السحري، إن كان سحريًا. ولما أقنع الرجل الذي زعم أن اللوحة الزيتية لأم زوجته الرابعة كانت شبيهة بالرجل ليبيعها، أن هذا ليس بالمطلوب، ودفعه خارج خيمته، كان

الظلام قد حل. ولولا أن جاء جمال -الذي ازدهر عمله وهو يبيع المأكولات الخفيفة للجمع المنتظر- حاملًا سيخًا من اللحم الطري لأوى إلى فراشه.

«لست أدري ما أصابك»، قال جمال. «اعتدت الظن أنك سويّ. ولكن سواء أكنت مجنونًا أم لا، فلا بد أن تأكل».

«ليس الأمر بجنون»، قال عبدالله. «لقد عزمت على بدء خط جديد في التجارة». لكنه أكل اللحم.

وتمكن أخيرًا من تكديس لوحاته المئة والتسع والثمانين على البساط واضطجع بينها.

«استمع إلى هذا»، قال للبساط. «إن نطقتُ في سانحة سعيدة بكلمة أمرك في نومي، فعليك أن تطير بي حالًا إلى الحديقة الليلية لزهرة في الليل». كان هذا أفضل ما استطاعه، واستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يغط في النوم.

واستيقظ على الشذى الحالم لزهور الليل ويد تنخزه برفق. كانت زهرة في الليل منحنية فوقه، ورأى عبدالله أنها أجمل بكثير مما يتذكر.

«لقد جلبت الصور فعلًا!»، قالت. «إنك بالغ اللطف».

فعلتها! قال عبدالله في نفسه مبتهجًا. «أجل»، قال. «الذي مئة وتسعة وثمانون نوعًا من الرجال هنا. أحسب أن هذا سيعطيك فكرة عامة».

وساعدها في إنزال عدد من المصابيح الذهبية ووضعها في حلقة قرب المصطبة. ثم عرض عليها عبدالله الصور، حاملًا إياها تحت المصباح أولًا، ثم مسندًا إياها إلى المصطبة. وخامره شعور بأنه رسام شارع.

عاينت زهرة في الليل كل الرجال أثناء عرض عبدالله، بحياد وتركيز شديدين من غير ريب. ثم حملت مصباحًا وعاينت رسومات الفنان مرة أخرى. أسعد هذا عبدالله، فقد كان الفنان بارعًا جدًّا إذ رسم الرجال مثلما قال له عبدالله، من رجل نبيل ملكي واضح أنه استوحاه من نصب، إلى الأحدب الذي يلمع الأحذية في البازار، بل إنه رسم صورة لشخصه أيضًا.

«نعم، إني أفهم»، قالت زهرة في الليل أخيرًا. «يختلف الرجال اختلافًا كبيرًا مثلما قلت. وأبي ليس النمط، ولا أنت قطعًا».

«تقرين إذن بأني لست امرأة؟»، قال عبدالله.

«مجبرة على ذلك»، قالت. «أعتذر إليك عن خطئي». ثم حملت المصباح على امتداد المصطبة وهي تعاين بعض الصور للمرة الثالثة.

لاحظ عبدالله بشيء من التوتر أن الصور التي أشارت إليها كانت صور أشد الرجال وسامة. راقبها تميل عليها وعلى جبينها تقطيبة صغيرة وفوق التقطيبة تتمايل خصلة جعداء من الشعر الداكن، بادٍ عليها الانهماك الشديد، وأخذ يتساءل عما فعله.

جمعت زهرة في الليل الصور ورتبتها في كومة أنيقة بجانب

المصطبة. «الأمر كما ظننت»، قال. «أفضّلك على كل واحد من هؤلاء. إذ يبدو بعضهم شديدي الاعتداد بأنفسهم وبعضهم الآخر أنانيين وقساة. أما أنت فمتواضع وطيب. أنوي سؤال أبي أن يزوجني بك، بدلًا من أمير أوشنستان. أتمانع؟».

دارت الحديقة بعبدالله في دوامة من الذهبي والفضي والأخضر الداكن . «أظن هذا لن ينجح»، تمكن من القول أخيرًا.

«ولم لا؟»، سألته. «أأنت متزوج؟».

«لا، لا»، قال. «ليس هذا هو الأمر. يسمح القانون للرجل بأن يتخذ أربع زوجات إن كان مقتدرًا، ولكن...».

عادت التقطيبة إلى جبين زهرة في الليل. «وكم زوجًا يسمح للمرأة أن تتخذ؟».

«واحد فقط!»، قال عبدالله بشيء من الصدمة.

«هذا ظلم كبير»، قالت زهرة في الليل متفكرة. وجلست على المصطبة وفكرت «أتظن أن لأمير أوشنستان بعض الزوجات؟».

شاهد عبدالله التقطيبة تكبر على جبينها والأصابع الرشيقة ليدها اليمنى تنقر بحنق على العشب. فأيقن أنه فعل أمرًا. كانت زهرة في الليل تكتشف أن أباها قد أبقاها جاهلة ببعض الحقائق المهمة. «إن كان أميرًا»، قال عبدالله بقليل من القلق، «فقد يكون عنده عدد من الزوجات».

«هذا يعني أنه جشع»، قالت زهرة في الليل. «وهذا يزيح عبئًا

عن كاهلي. لماذا قلت إن زواجي بك قد لا ينجح؟ لقد ذكرت البارحة أنك أمير».

شعر عبدالله بوجهه يشتعل حمرة، ولعن نفسه لإفشاء حلم يقظته إليها. ورغم أنه قال لنفسه إن عنده أسبابًا كافية تدعوه إلى التصديق بأنه كان يحلم لدى إخبارها، غير أن هذا لم يشعره بتحسن. «صحيح، ولكني أخبرتك أيضًا أنني اختطفت وأني بعيد عن مملكتي»، قال. «وكما يخيل لك، فأنا مجبر على كسب عيشي بوسائل وضيعة. فأنا أبيع البُسُط في بازار زنزيب. أما أبوك فجلي أنه رجل فاحش الثراء، ولن يرى في هذا زواجًا ملائمًا».

نقرت أصابع زهرة في الليل بغضب. «تتكلم كأن أبي هو من ينوي الزواج بك!»، قالت. «ما الأمر؟ أنا أحبك، ألا تحبني؟».

ونظرت إلى وجه عبدالله لدى قولها هذا. وبادلها النظر فيما بدا سرمدًا من العيون الداكنة الكبيرة. ووجد نفسه يقول «بلى». ابتسمت زهرة في الليل وانقضت آباد عديدة ينيرها القمر.

«سأذهب معك حين تغادر هذا المكان»، قالت زهرة في الليل. «وقد تكون محقًا فيما قلته عن موقف أبي منك، لذا فلنتزوج أولًا ثم نخبر أبي، ولن يستطيع قول شيء عندئذ».

ودَّ عبدالله الذي كان له بعض التجارب مع الرجال الأثرياء لو كان واثقًا من هذا. «قد لا يكون الأمر بهذه السهولة»، قال. «بل حين أفكر في الأمر أوقن أن سبيلنا الآمن الوحيد هو مغادرة زنزيب. ولا

بد لهذا من أن يكون سهلًا لأني أملك بساطًا سحريًا... ها هو هناك على المصطبة. لقد جلبني إلى هنا. ولسوء الحظ فإنه يتعين تحريكه بكلمة سحرية يبدو أني لا أستطيع قولها إلا في نومي».

حملت زهرة في الليل مصباحًا ورفعته عاليًا لتعاين البساط. راقبها عبدالله، معجبًا بالأناقة التي انحنت بها نحوه. «يبدو عتيقًا جدًّا»، قالت. «قرأت عن بُسُط كهذا. وكلمة الأمر على الأرجح كلمة شائعة تنطق بلفظها القديم. تقول قراءاتي إن الهدف من هذه البُسُط هو الاستخدام السريع في حالات الطوارئ. لماذا لا تخبرني بالتفصيل كل ما تعرفه عنه؟ وستتمكن من تشغيله متعاونين».

أدرك عبدالله عندئذ أن زهرة في الليل -إن غضضت الطرف عن الثغرات في معرفتها- كانت ذكية ومطلعة جدًّا، فازداد بها إعجابًا. وأخبرها بكل حقيقة يعرفها عن البساط بقدر معرفته به، ومنها الضجيج في كشك جمال الذي منعه من سماع كلمة الأمر.

أصغت زهرة في الليل وهزت رأسها لدى كل حقيقة جديدة. «إذن»، قالت، «لنترك السبب الذي يدعو أحدًا إلى بيعك بساط سحريًا موثوقًا ويحرص على ألا تتمكن من استخدامه. هذا أمر بالغ الغرابة وأظن أن علينا التفكير فيه لاحقًا. ولكن دعنا نفكر أولًا في ما يفعله البساط. أرأيته يهبط عندما أمرته؟ أتحدث الغريب حينئذ؟».

كانت تتمتع بالذكاء والمنطق. لقد وجد لؤلؤة بين النساء بلا ريب، خطر لعبدالله. «أنا واثق بأنه لم يقل شيئًا»، قال.

قالت زهرة في الليل «إذن، لا داعي إلى كلمة الأمر إلا لطيران البساط. ومن ثَم فإني أرى احتمالين. الأول أن البساط سيفعل ما تؤمره حتى يلمس الأرض في أي مكان. والثاني أنه سيطيع أمرك حتى يعود إلى المكان الذي انطلق منه أول مرة...».

«يسهل إثبات هذا»، قال عبدالله. كان دائخًا من إعجابه بمنطقها. «أرى الاحتمال الثاني هو الصحيح». ووثب إلى البساط وقال قول الخبير «ارتفع وأعدني إلى خيمتي!».

«لا، لا! لا تفعل! انتظر!» صاحت زهرة في الليل في اللحظة نفسها.

لكن الأوان فات، فقد رفرف البساط في الهواء، ثم مال على الجانبين بسرعة وفجأة كبيرتين ارتمى معهما عبدالله على ظهره، وقد انقطعت أنفاسه، ثم تدلى نصفه فوق طرفه المهترئ في ارتفاع مخيف في الهواء. وحالما استعاد عبدالله أنفاسه اختطفتها منه ريح حركة البساط ثانية. وما استطاع إلا التشبث المجنون بحاشية الطرف. وقبل أن يتمكن من المضي في طريقه لاعتلائه، ناهيك بالكلام، نزل البساط -مخلفًا ما استعاده عبدالله من أنفاس في الجو عاليًا- وشق طريقه عبر ستارة الخيمة، وهو يكاد يخنق عبدالله وهبط بهدوء وبعد لأي على الأرض داخل الخيمة.

انكب عبدالله على وجهه لاهثًا وفي ذهنه ذكريات مشوشة لبريجات تدور حوله في سماء مضيئة بالنجوم. حدث كل شيء بسرعة كبيرة فلم يفكر إلا في أن المسافة بين خيمته والحديقة الليلية

قصيرة جدًّا. ثم لما استعاد أنفاسه أخيرًا أراد أن يركل نفسه. يا لغباء ما فعل! كان عليه الانتظار حتى يتسنى لزهرة في الليل أن تعتلي البساط أيضًا. وقد بين له منطق زهرة في الليل أنه ما من وسيلة للعودة إليها إلا بأن يغط في النوم ثانية، وتمنى مرة أخرى أن يحالفه الحظ في قول كلمة الأمر في نومه. لكنه فعل ذلك مرتين سلفًا، وكان واثقًا بنجاحه كل الثقة. بل كان واثقًا من أن زهرة في الليل ستدرك ذلك بنفسها وتنتظره في الحديقة. كانت الذكاء نفسه، لؤلؤة بين النساء، ستتوقع عودته في غضون ساعة أو نحوها.

استغرق عبدالله في النوم بعد ساعة من لوم نفسه ثم الثناء على زهرة في الليل. ولكن وا أسفاه! كان وجهه لم يزل منكبًّا على البساط وسط خيمته بعد استيقاظه. وكان كلب جمال ينبح خارجًا وهذا ما أيقظه.

«عبدالله!»، نادى صوت ابن أخي زوجة أبيه الأولى. «أأنت مستيقظ؟».

تأوه عبدالله، كأن هذا ما ينقصه.

الفصل الرابع

يدور حول الزواج والنبوءة



لم يعرف عبدالله ما الذي يفعله حكيم هناك. فلا يزوره أقارب زوجة أبيه الأولى إلا مرة في الشهر عادة، وقد زاروه منذ يومين. «ماذا تريد يا حكيم؟»، صاح به متبرمًا.

«أن أتحدث إليك قطعًا!»، رد عليه حكيم صائحًا هو الآخر. «في التو واللحظة!».

«ارفع الستائر وادخل إذن»، قال عبدالله.

حشر حكيم جسمه المكتنز بين الستارتين. «لا بد لي من القول إن هذا ليس بالحصن الأمين يا ابن زوج خالتي»، قال، «لا أراه منيعًا، ويسع أي أحد الدخول ومباغتتك أثناء نومك».

«لقد أنذرني الكلب في الخارج بوجودك»، قال عبدالله.

«وما جدوى هذا؟»، سأل حكيم. «وماذا كنت فاعلًا لو أنني لص؟ تخنقني ببساط؟ كلا، لست راضيًا عن احترازاتك».

«وماذا تود مني أن أفعل؟»، سأل عبدالله. «أوَ جئت إلى هنا تتسقّط الأخطاء كعادتك؟».

جلس حكيم باستعلاء على كومة من البسط. «لست مهذبًا تهذيبك المرتاب اليوم على غير عادتك، يا قريبي بالمصاهرة»، قال. «لو سمعك ابن عم أبي، لما أعجبه قولك».

«لست مطالبًا بتبرير سلوكي لآصف أو غيره!»، قرّعه عبدالله. كان شديد التعاسة، وتاقت روحه إلى زهرة في الليل ولا يسعه الوصول إليها، فما طاق صبرًا على شيء آخر.

«لن أزعجك إذن برسالتي»، قال حكيم وهو ينهض متغطرسًا.

«أحسن!»، قال عبدالله. وذهب إلى مؤخرة خيمته ليغتسل.

ولكن ما كان لحكيم أن يذهب دون أن ينقل رسالته قطعًا. عندما فرغ عبدالله من اغتساله، كان حكيم لم يزل واقفًا هناك. «يحسن بك تغيير ثيابك والذهاب إلى الحلاق، يا قريبي بالمصاهرة»، قال لعبدالله. «فلست تبدو في مظهرك هذا امرأً يليق بزيارة متجرنا».

«وما الذي سيأخذني إلى هناك؟»، سأل عبدالله، وقد فوجئ قليلًا. «لقد أخبرتموني منذ زمن بعيد أني لست مرحبًا بي هناك».

«لأن»، قال حكيم، «لأن النبوءة التي قيلت عند ولادتك قد جاءت في صندوق خفيف ظننا طويلًا أن فيه بخورًا. إن حرصت على القدوم إلى المتجر بمظهر لائق، سيسلم لك هذا الصندوق».

لم تثر النبوءة اهتمام عبدالله، ولا فهم لماذا عليه الذهاب بنفسه

لجلب الصندوق في حين كان بوسع حكيم جلبه إليه. كاد يرفض ثم جال في ذهنه أنه لو نجح في قول الكلمة الصحيحة أثناء نومه الليلة (وقد كان واثقًا بهذا، وقد فعلها مرتين من قبل)، فالاحتمال الكبير أنه وزهرة في الليل سيهربان معًا. ولا بد للرجل أن يذهب إلى زفافه حليقًا مغتسلًا حسن الهندام. لذا، ما دام سيذهب إلى الحمامات والحلاق على أية حال، فلا بأس أن يمر ويأخذ النبوءة السخيفة في طريق عودته.

«حسن جدًّا»، قال. «انتظروني قبل المغيب بساعتين».

عبس حكيم. «ولماذا التأخير؟».

«لأن عندي أمورًا يجب أن أفعلها، يا قريبي بالمصاهرة»، أوضح له عبدالله. أسعدته فكرة هروبه القادم كثيرًا فابتسم لحكيم وانحنى بتهذيب مفرط. «رغم أن عندي انشغالات في حياتي لا تبقي لي وقتًا لطاعة أوامرك، لكني سآتي فلا تخشَ شيئًا».

ظل حكيم عابسًا، والتفت إلى عبدالله عابسًا وهو يغادر. كان باديًا عليه عدم الرضا والشك، غير أن عبدالله لم يكترث له. وحالما غاب حكيم عن الأنظار، سُر بإعطاء جمال ما بقي عنده من مال ليحرس له خيمته طوال اليوم. ومقابل ذلك تعين عليه أن يقبل من جمال الممتن فطورًا يتألف من كل طعام شهي في كشكه. لقد سلب الحماس عبدالله شهيته. كان أمامه طعام كثير قدمه إلى الكلب خلسة لئلا يجرح مشاعر جمال، وقدمها حذرًا لأن الكلب كان نهاشًا عضاضًا. كأنما الكلب يقاسم سيده امتنانه، فقد خبط بذيله بتهذيب لكل ما قدمه عبدالله ثم حاول لعق وجهه.

تملص عبدالله من هذا التهذيب، وكانت أنفاس الكلب تفوح برائحة حبار قديم. فربّت بحذر على رأسه المغضن، وشكر جمالًا، وأسرع منطلقًا إلى البازار. هنالك اكترى بما بقي معه من مال عربة يدوية، وحمّلها بعناية بأجمل بُسُطه وأبدعها؛ البساط المزهر من أوشنستان، والحصيرة اللامعة من إنهكو، وبُسُط فرقطان الذهبية المزخرفة الأخاذة من أعماق الصحراء، والبساطين المتماثلين من ثاياك البعيدة - وأخذها إلى المتاجر الكبيرة في قلب البازار حيث يعمل أثرى التجار. ورغم حماس عبدالله الشديد، فقد كان عمليًّا. لا شك أن والد زهرة في الليل فاحش الثراء، ولن يستطيع أحد دفع مهرًا للزواج بأميرة إلا أغنى الرجال. ولذا كان جليًّا أن على عبدالله وزهرة في الليل السفر بعيدًا، وإلا نغّص أبوها عيشتهما. ولكن كان واضحًا في نظر عبدالله أيضًا أن زهرة في الليل تعودت امتلاك الأغلى من كل شيء، ولن تكون سعيدة بالتقشف، لذا لا بد له أن يملك المال. انحنى أمام التاجر في أفخم المتاجر الفخمة، وسماه بالدرّة بين الباعة وأعظم التجار، وعرض عليه البساط المزهر من أوشنستان مقابل مبلغ ضخم حقًّا.

كان التاجر صديقًا لأبي عبدالله. «ولماذا، يا ابن ألمع تجار البازار»، سأله، «تود بيع هذه الجوهرة بين مجموعتك، كما يبدو من سعرها؟».

«أحاول تنويع بضاعتي»، قال له عبدالله. «لعلك سمعت بالأمر، فقد ابتعت لوحات وأعمالًا فنية أخرى. ومن أجل إفساح مكان لها، فلا بد لي من التخلص من أرخص بُسُطي. وخطر لي أن

تاجر مشغولات حريرية مثلك سيقبل بمساعدة ابن صديقه القديم إن خلصني من هذا الشيء المزهّر البائس، بسعر زهيد».

«لا بد أن تكون بضاعتك وجهة لي في المستقبل»، قال التاجر. «دعني أعرض عليك نصف ما طلبت».

«آه، يا أدهى الرجال الأذكياء»، قال عبدالله. «تخفّض السعر المخفّض، لكني سأقلل سعري قطعتين نحاسيتين».

كان يومًا طويلًا حارًّا، ولكن بحلول أول المساء باع عبدالله أفضل بسطه كلها بسعر يبلغ ضعفي ما دفعه ثمنًا لها. وحسب أن عنده مالًا كافيًا لتعيش زهرة في الليل حياة رغدة لثلاثة أشهر أو نحوها. أما بعدها، فقد تمنى أن يحدث شيء ما، أو أن حلاوة طباعها ستجعلها تألف الفقر. ذهب إلى الحمامات، وإلى الحلاق. وذهب إلى العطار وضمخ نفسه بالزيوت، ثم عاد إلى خيمته ولبس أبهى حلله. هذه الثياب، كثياب كل التجار، لها مظهر خداع، فلم تكن قطع مطرزة وانثناءات زخرفية مضفورة بالزينة، بل لإخفاء أكياس المال. وزع عبدالله المال الذي كسبه فورًا بين هذه الأماكن الخفية وأصبح مستعدًّا أخيرًا. وذهب، دون رضًا كبير، إلى متجر أبيه القديم، وقال لنفسه إنه سيقضي الوقت الواقع ما بين الآن وساعة هروبه.

انتابه إحساس غريب لدى ارتقاء الدرجات المسطحة من خشب الأرز ودخول المكان الذي قضى فيه شطرًا من طفولته. كانت رائحته، خشب الأرز والتوابل والرائحة الزيتية المشعرة للبُسُط، مألوفة جدًّا، حد أنه لو أغمض عينيه لتخيل أنه عاد إلى سن العاشرة،

يلعب خلف بساط ملفوف وأبوه يساوم الزبائن. غير أنه لم يرَ هذا وعيناه مفتوحتان. كانت أخت زوجة أبيه الأولى مولعة ولعًا مؤسفًا باللون البنفسجي الفاقع. فالجدران والسواتر الشبكية وكراسي الزبائن، وطاولة الحساب بل وصندوق المال طليت كلها بلون فاطمة المفضل. جاءت فاطمة لاستقباله تلبس ثوبًا له اللون نفسه.

«عجبًا يا عبدالله! يا لك من عجول، ويا لك من أنيق!»، قالت، ووشى أسلوبها بأنها انتظرت وصوله متأخرًا لابسًا أسمالًا.

«إنه يبدو كمن تأنق لحفل زفافه!»، قال آصف، مقتربًا أيضًا، راسمًا ابتسامة على وجهه النحيل الشكس.

كانت ابتسامات آصف نادرة فظن عبدالله لوهلة أن آصف قد لوى عنقه وكان يكشر متوجعًا. ثم قرقر حكيم، فانتبه عبدالله إلى ما قاله آصف لتوه. واستاء جدًّا فاحمر وجهه غيظًا. واضطر إلى أن ينحني بتهذيب ليخفي وجهه.

«لا يجدر بك إثارة خجل الصبي»، قالت فاطمة، وهذا ما جعل عبدالله يزداد احمرارًا. «ما هذه الأقاويل التي نسمعها بأنك تود فجأة بيع اللوحات يا عبدالله؟».

«وأنك تبيع أفضل بضاعتك لتفسح مكانًا للوحات»، أضاف حكيم.

كف عبدالله عن الاحمرار. وأدرك أنه استدعي إلى هنا ليقرع. وكان واثقًا بذلك حين أردف آصف مستهجنًا «لقد جرحت

مشاعرنا، يا ابن زوج ابنة أختي، لأنك لم تفكر في أننا سنتفضل عليك بتخليصك من بعض البُسُط».

«يا أقاربي الأعزاء»، قال عبدالله، «ما كنت لأبيعكم البسط من غير ريب. وكنت أريد التربح وما كان لي أن أكلّفكم يا من أحبهم أبي». كان شديد الاستياء واستدار ليعود من حيث أتى فوجد حكيمًا قد أغلق الأبواب وأقفل مزاليجها بهدوء.

«لا داعي إلى إبقائها مفتوحة. لنجلس نحن أفراد الأسرة وحدنا».

«يا للصبي المسكين!»، قالت فاطمة. «ما كان أحوج إلى الأسرة التي تحفظ له عقله أكثر منه اليوم!».

«نعم، حقًّا»، قال آصف. «تقول بعض الشائعات في البازار إنك جننت يا عبدالله، ولا يعجبنا هذا».

«إن أفعاله غريبة من غير شك»، وافقهما حكيم. «ولا نريد أن تتردد أقاويل كهذه عن عائلة محترمة كعائلتنا».

كان هذا أسوأ من المعتاد. قال عبدالله «لم يصب عقلي بسوء، بل أدرك ما أنا فاعل. وأنوي ألا أمنحكم فرصة لانتقادي، بحلول غد على الأرجح. أما الآن، فقد أبلغني حكيم أن آتي لأنكم وجدتم النبوءة التي قيلت يوم مولدي. أهذا صحيح، أم أنها حجة فحسب؟» لم يكن يومًا وقحًا مع أقارب زوجة أبيه الأولى، لكن غضبه شديد وهم يستحقونه.

أما الغريب، فهو أن أقارب زوجة أبيه الأولى الثلاثة أخذوا يندفعون في أنحاء المتجر بحماس، بدلًا من أن يغضبوا.

«أين الصندوق؟»، قالت فاطمة.

«اعثرا عليه، اعثرا عليه»، قال آصف. «إنها كلمات العرّافة التي جلبها أبوه إلى جانب سرير زوجته الثانية قبل ساعة من مولد عبدالله. يجب أن يراه!».

«كتب بخط يد أبيك»، قال حكيم لعبدالله. «أعظم كنز عندك».

«ها هو!»، قالت فاطمة، مبتهجة وهي تسحب صندوقًا خشبيًّا منقوشًا من رف عالٍ. ناولت الصندوق آصف، الذي ألقاه بين يدي عبدالله.

«افتحه، افتحه!»، صاح الثلاثة في حماس.

وضع عبدالله الصندوق على طاولة الحساب البنفسجية وفتح قفله. ارتد الغطاء إلى الوراء، باعثًا رائحة نتنة من داخله، الذي كان شديد البساطة وفارغًا إلا من ورقة مصفرة مطوية.

«أخرجها! اقرأها!»، قالت فاطمة في حماس أكبر.

لم يفهم عبدالله ما الداعي إلى كل هذا الحماس، لكنه نشر الورقة. كان فيها بضعة سطور مكتوبة، بنية وباهتة، وبخط والده قطعًا. فاستدار نحو المصباح المعلق وهو يحملها. بعد أن أغلق حكيم الأبواب الرئيسة، جعل اللون البنفسجي الطاغي على المتجر قراءتها صعبة.

«لا يمكنه أن يرى!»، قالت فاطمة.

قال آصف «ليس غريبًا، فالضوء قليل هنا. أدخليه إلى الغرفة في مؤخرة الخيمة. فمصاريع الكوة السقفية مفتوحة».

أمسك هو وحكيم بكتفي عبدالله ودفعاه وناكباه نحو مؤخرة المتجر. كان عبدالله مشغولًا بقراءة خط أبيه المخربش الباهت وتركهما يدفعانه حتى وقف تحت مصاريع الكوة السقفية في غرفة الجلوس خلف المتجر. كان هذا أحسن. فعرف الآن سبب خيبة أمل أبيه فيه. تقول الكلمات:

هذه كلمات العرّافة الحكيمة. «ابنك هذا لن يكون تاجرًا مثلك. بعد عامين من موتك، وهو لم يزل شابًا، سيعلو شأنه على الآخرين في هذه البلاد. هذا ما قضى به القدر، وقلته لك».

حظ ابني يحزنني. فليهبني القدر أولادًا آخرين، وإلا فسأكون قد بددت أربعين قطعة ذهبية على هذه النبوءة.

«إن مستقبلًا رائعًا ينتظرك كما ترى يا بني العزيز»، قال آصف.

ضحك أحدهم.

رفع عبدالله نظره عن الورقة، وقد اعتراه شيء من الدهشة. في الجو رائحة جارفة.

سمع الضحك مرة أخرى، ضحكتين من أمامه.

نتأت عينا عبدالله، وشعر بهما تجحظان. وقفت أمامه شابتان مفرطتا البدانة، ونظرتا إلى عينيه الجاحظتين وضحكتا بخفر. كانت

كلتاهما شديدة الأناقة تلبس ثيابًا من أطلس براق ونسيج شبكي رقيق فضفاض -زهري اللون لليمنى، وأصفره لليسرى- مشنشلتين بقلائد وأساور أكثر مما يطاق. كما أن ذات الزهري، وهي الأسمن، على جبينها دلية لؤلؤ، تحت شعرها المجعد بعناية. أما ذات الأصفر، التي لم تكن الأسمن، فقد وضعت تاجًا كهرمانيًّا وشعرها أكثر تجعيدًا. وكلتاهما تبرجت تبرجًا مفرطًا، وكان هذا خطأً فادحًا من كلتيهما.

وحالما تأكدتا أنهما استرعتا انتباه عبدالله -والحقيقة أنه شلّه الخوف- سحبت كل فتاة خمارًا من على كتفيها العريضتين -خمار زهري على اليسار وأصفر على اليمين- وأرخته باحتشام على رأسها ووجهها. «مرحبًا يا زوجنا العزيز!»، قالتا بصوت واحد من تحت خماريهما.

«ماذا؟!»، قال عبدالله خائفًا.

«لقد غطينا أنفسنا»، قالت الزهرية.

«لأنك لا تستطيع النظر إلى وجهينا»، قالت الصفراء.

«حتى نتزوج»، أكملت الزهرية.

«لا بد أن في الأمر خطأً»، قال عبدالله.

«أبدًا»، قالت فاطمة. «هاتان ابنتا أختيْ ابنتيْ أختيّ جئن للزواج بك. ألم تسمعني أقول إني سأبحث لك عن زوجتين؟».

فضحكت ابنتا الأختين. «إنه شديد الوسامة»، قالت الصفراء.

بعد صمت طويل حقًّا، ابتلع فيه عبدالله ريقه وبذل قصارى جهده ليكظم مشاعره، قال بتهذيب «أخبروني يا أقارب زوجة أبي الأولى، أعرفتم بالنبوءة التي قيلت لدى مولدي منذ زمن بعيد؟».

«منذ زمن طويل»، قال حكيم. «أتحسبنا حمقى؟».

«لقد عرضها أبوك العزيز علينا»، قالت فاطمة، «حين كتب وصيته».

«ومن غير شك لسنا ننوي السماح لحظك الرائع بأن يبعدك عن العائلة»، أوضح آصف. «لقد انتظرنا اللحظة التي ستكف فيها عن العمل بمهنة أبيك، وقد كانت هذه الإشارة للسلطان ليجعلك وزيرًا أو يدعوك لتكون قائدًا لجيوشه، أو لعله يرفع مقامك بصورة أخرى. ثم اتخذنا خطوات لنتأكد أننا ساهمنا في حظك السعيد. عروستاك هاتان مقربتان جدًّا منا نحن الثلاثة. لذا فلن تتجاهلنا حين يعلو شأنك. فيا بني العزيز، لم يبقَ إلا أن أقدمك إلى القاضي الذي يقف منتظرًا تزويجك».

ظل عبدالله عاجزًا عن إبعاد ناظريه عن القوامين المنتفخين لابنتي الأختين. فرفع نظره ليرى النظرة الساخرة على وجه قاضي البازار، الذي ظهر من خلف ستار حاملًا بيده سجل الزواج. فتساءل عبدالله عن المبلغ الذي دفع إليه.

انحنى عبدالله بتهذيب للقاضي. «أخشى أن هذا ليس ممكنًا»، قال.

«آه، عرفت أنه سيكون جاحدًا بغيضًا!»، قالت فاطمة. «فكر في الخزي والخيبة التي ستشعر بها هاتان الفتاتان المسكينتان إن رفضت الزواج بهما! بعد أن قطعتا كل هذا الطريق، منتظرتين أن تتزوجا، ولبستا أجمل الثياب! كيف يهنأ لك بال يا ابن الأخ؟».

«ثم إني غلّقت كل الأبواب»، قال حكيم. «لا تحسبن أنك قادر على الفرار».

«يؤسفني أن أؤذي شعور شابتين بديعتين كهاتين...»، بدأ عبدالله حديثه.

غير أن كبرياء العروسين قد جرحت على أية حال. وناحت كل شابة، ودفنت كل منهما وجهها المغطى في يديها وبكت بحرقة.

«هذا فظيع!»، قالت الزهرية باكية.

«كان عليهم سؤالي قبلًا!»، بكت الصفراء.

اكتشف عبدالله أن منظر نساء يبكين -وبخاصة البدينات منهن، اللاتي ترتج أجسامهن مع البكاء- يشعره بالوضاعة. فأدرك أنه كان أحمق دنيئًا، وشعر بالخجل. لم يكن الموقف خطأ الشابتين. لقد استغلهما آصف وفاطمة وحكيم، مثلما استغلوا عبدالله. لكن أكثر ما أشعره بالوضاعة، وما جعله يخجل من نفسه حقًا، أنه أرادهما أن تتوقفا عن البكاء، أن تخرسا وتكفًا عن الارتجاج. عدا ذلك لم يعبأ بمشاعرهما. ولو قارنهما بزهرة في الليل، لقال إنهما تثيران قرفه، وظلت فكرة الزواج بهما تقلب معدته، فشعر بالغثيان.

ولكن لأنهما تنوحان وتنشقان وترتجان أمامه، قال في نفسه إن ثلاث زوجات لسن كثيرات في نهاية الأمر. ستكون كلتاهما رفيقة لزهرة في الليل عندما يبتعدون كلهم عن زنزيب والديار. وسيضطر إلى شرح الموقف لهما وحملهما على البساط السحري...

أعاد هذا عبدالله إلى صوابه. بارتجاج، سيرتج البساط السحري إن حمل عليه هاتين المرأتين البدينتين، مفترضًا أنه سيتمكن من الارتفاع عن الأرض وهما جالستان عليه أصلًا. كانتا شديدتي البدانة. أما ظنه بأنهما ستكونان رفيقتين لزهرة في الليل، هراء! لقد كانت ذكية ومتعلمة ولطيفة، إلى جانب جمالها (ورشاقتها). لا بد أن تثبت له هاتان الاثنتان أن لهما دماغين. لقد أرادتا الزواج وكان بكاؤهما نوعًا من التنمر عليه لدفعه إلى ذلك. كما أنهما ضحكتا، ولم يسمع قط زهرة في الليل تضحك.

ذهل عبدالله عندئذ لمعرفة أنه، صدقًا وحقًا، يحب زهرة في الليل من كل قلبه مثلما كان يقول لنفسه، أو أكثر لأنه رأى الآن أنه يحترمها. وعرف أنه سيموت من دونها، وإن وافق على الزواج بابنتي الأختين، فلن يكون معها. وستسميه طماعًا، مثل أمير أوشنستان.

«أنا آسف جدًا»، قال، بصوت يعلو على صوت بكائهما. «كان عليكم أخذ رأيي في هذا أولًا، يا أقارب زوجة أبي الأولى، ويا أيها القاضي المبجل النزيه. لتجنبنا هذه اللبس. لا يمكنني الزواج، فقد قطعت عهدًا».

«أي عهد؟» سأل الجميع، والعروسان البدينتان أيضًا، وأردف القاضي «وهل سجلت هذا العهد؟ لا بد من تسجيل كل العهود لدى القاضي لتكون قانونية».

كان هذا غريبًا. فكر عبدالله بسرعة «في الحقيقة إنه مسجل، يا ميزان العدل الراجح العادل»، قال. «أخذني أبي إلى قاضٍ لتسجيل العقد حين أمرني بأن أقطعه. لم أكن إلا فتى صغيرًا حينئذ. ورغم أني لم أفهم الأمر يومها، فإني أرى أن هذا بسبب النبوءة. أبي، الرجل الحصيف، لم يرد أن تضيع قطعه الذهبية الأربعون سدى. فجعلني أقسم بألا أتزوج حتى يعلي القدر شأني على الآخرين في هذه البلاد. ولذا فأنت تفهم...» وضع عبدالله يديه في كمي أفضل حلله وانحنى متأسفًا للعروسين البدينتين، «لا يمكنني الزواج بكما، يا توءم البرقوق المسكر المحلى، حتى يحين الوقت».

قال الجميع «في هذه الحال...!» بنبرات مختلفة من الاستياء، وأشاح جلهم بوجوههم عنه فارتاح عبدالله ارتياحًا كبيرًا.

«رأيت والدك دومًا رجلًا جشعًا»، قالت فاطمة.

«حتى وهو راقد في قبره»، وافقها آصف. «علينا الانتظار حتى يعلو شأن هذا الصبي العزيز إذن».

أما القاضي فظل ثابتًا «وأي قاضٍ قطعت هذا العهد أمامه؟»، سأله.

«لا أعرف اسمه»، كذب عبدالله، وهو يتكلم بأسف شديد.

غير أنه تصبب عرقًا. «كنت طفلًا صغيرًا، وبدا لي رجلًا طاعنًا في السن له لحية بيضاء طويلة». وقال في نفسه إن هذا وصف يصدق على كل قاضٍ، ومنهم القاضي الماثل أمامه.

«علي مراجعة كل السجلات»، قال القاضي مستاء. والتفت نحو آصف وحكيم وفاطمة، وبشيء من الفتور، حياهم مودعًا.

غادر عبدالله معه، وهو يكاد يتشبث بنطاق القاضي الرسمي ليهرب من المتجر والعروسين.

الفصل الخامس

وفيه والد زهرة في الليل يرغب في إعلاء عبدالله على الآخرين في البلاد

«عجبًا له من يوم!» قال عبدالله لنفسه حين دخل عائدًا إلى خيمته أخيرًا. «إن كان حظي سيظل هكذا، فلن أستغرب عجزي عن تحريك البساط الثانية!» أو، ظن وهو يستلقي على البساط وما زال لابسًا أبهى ثيابه، أنه قد يصل إلى الحديقة الليلية فيجد زهرة في الليل حانقة جدًّا على غبائه الليلة الماضية ولن تحبه بعد اليوم. أو لعلها ما زالت تحبه، غير أنها عزمت على ألا تهرب معه. أو...

استغرق بعض الوقت قبل أن يغط في النوم.

ولما استيقظ، وجد كل شيء رائعًا، فالبساط ينزلق في هبوط لطيف على المصطبة التي يضيئها نور القمر. عرف عبدالله أنه قال الكلمة السرية أخيرًا، وقد انقضى وقت قصير جدًّا منذ أن قالها إذ تذكر تقريبًا ما كانت. لكنها تلاشت من رأسه حين جاءته زهرة في الليل راكضة متلهفة، بين الأزهار العطرة البيضاء والمصابيح المدورة الصفراء.

«لقد عدت!»، قالت وهي تركض. «كنت شديدة القلق!».

لم تكن حانقة. فرقص قلب عبدالله فرحًا. «أأنت مستعدة للرحيل؟»، رد عليها. «اقفزي إلى جانبي».

ضحكت زهرة في الليل فرحة -لم تكن قهقهة من غير شك- وجاءت تركض عبر المرج.

احتجب القمر عندئذ خلف غيمة، لأن عبدالله رآها وقد سطعت عليها المصابيح للحظة، ذهبية متلهفة هي تركض. فنهض ومد يديه إليها.

وإذ فعل ذلك، هبطت الغيمة على ضوء المصابيح. لم تكن غيمة، بل جناحين جلديين أسودين، يخفقان في صمت. وخرجت ذراعان جلديتان مثلهما لهما أظافر كالمخالب من ظل هذين الجناحين المرفرفين وطوقتا زهرة في الليل. رآها عبدالله تجفل لما أوقفها الجناحان عن الركض. نظرت حولها وإلى الأعلى، وأيًا كان ما رأته فقد جعلها تصرخ صرخة واحدة عالية موارة، انقطعت حين غيرت إحدى الذراعين مكانها لتطبق يدها الضخمة ذات المخالب على وجهها.

ضربت زهرة في الليل الذراع بقبضتيها، وركلت وتلوت، ولكن دون جدوى. رفعت إلى الأعلى، مثل إصبع صغيرة بيضاء وخلفها هذا السواد الهائل. وخفق الجناحان الكبيران بصمت مرة أخرى. قدم عملاقة، لها مخالب كاليدين، داست العشب على بعد

باردة أو نحوها من المصطبة التي لم يزل عبدالله واقفًا عليها، ومدت رجل جلدية عضلات سمانية جبارة حين قفز الشيء -أيًا كان- إلى الأعلى. وللحظة قصيرة، وجد عبدالله أنه يحدق إلى وجه شرير جلدي يضع في أنفه المعقوف زمامًا، وله عينان مزورّتان متباعدتان وقاسيتان. لم يكن الشيء ينظر إليه، بل كان مركزًا على الطيران بنفسه وبأسيرته.

ارتفع عاليًا في اللحظة التالية، ورآه عبدالله يعلو لنبضة قلب، عفريت جبار من الجن يدلي فتاة بشرية صغيرة شاحبة بين ذراعيه. ثم ابتلعها الليل. لقد حدث ذلك كله بسرعة لا تصدق.

«اذهب خلفه! اتبع ذلك العفريت!»، أمر عبدالله البساط.

أطاع البساط، فارتفع قليلًا عن المصطبة. ثم، كأنما أمره أحد آخر، هبط ثانية وسكن.

«يا حصيرة الباب التي أكلها العث!»، صرخ به عبدالله.

جاءت صرخة أخرى من الطرف الآخر للحديقة «من هنا يا رجال! لقد جاءت الصرخة من هناك!».

على امتداد القنطرة، لمح عبدالله ضوء القمر يسطع على خوذ معدنية و-الأدهى من ذلك- وضوء المصابيح الذهبي يسطع على السيوف وأقواس النشاب. لم ينتظر ليشرح لهؤلاء الناس سبب صراخه، بل ألقى بنفسه وتمدد على البساط.

«عد إلى الخيمة!»، همس له. «بسرعة! أرجوك!».

أطاعه البساط هذه المرة، بسرعة مثلما فعل الليلة الماضية. ارتفع عن المصطبة في طرفة عين ثم اندفع جانبًا عابرًا سورًا حصينًا عاليًا. لمح عبدالله جمعًا كبيرًا من مرتزقة الشمال يدورون في أنحاء الحديقة التي يضيئها القمر، قبل أن يطير مسرعًا فوق أسطح المنازل الهاجعة وأبراج زنزيب التي ينيرها القمر. لم يتسنَ له الوقت للتفكير في أن والد زهرة في الليل أغنى بكثير مما تصور -استطاع قلةٌ الدفع إلى هذا العدد من الجنود المستأجرين ومرتزقة الشمال كانوا أعلاهم سعرًا- قبل أن ينزل البساط ويدخله من بين الستائر برفق وسط خيمته.

هنالك استسلم لليأس.

لقد خطف العفريت زهرة في الليل ورفض البساط أن يتبعه. عرف أن هذا ليس بالغريب. فعفريت الجن، كما يعرف كل أهل زنزيب، تأتمر بأمره قوى هائلة في السماء والأرض. لا شك أن العفريت، مستبقًا الخطر، قد أمر كل شيء في الحديقة أن يلزم مكانه أثناء هربه بزهرة في الليل. بل على الأرجح أنه لم يرَ البساط، أو عبدالله واقفًا عليه، لكن سحر البساط الأضعف أُجبر على تنفيذ أمر العفريت. فخطف زهرة في الليل، التي أحبها عبدالله أكثر من روحه، في اللحظة التي كاد يعانقها فيها، وما كان في وسعه أن يفعل شيئًا.

فبكى.

بعد ذلك، أقسم أن يلقي كل المال المخبأ في ثيابه، فما عاد بذي نفع له الآن. وقبل أن يفعل، قضى وقته في البكاء، والنواح العالي

أولًا، تفجع فيه عاليًا وضرب صدره على عادة أهل زنزيب، ثم لَمَّا صاحت الديكة وأخذ الناس يخرجون إلى المدينة، انزوى في يأس صامت. ما كان للحركة جدوى. تحرك الآخرون في نشاط وصفروا وقرقعوا بالدلاء، لكن عبدالله لم يعد جزءًا من تلك الحياة. ومكث مقرفصًا على البساط السحري، متمنيًا الموت.

كان شديد التعاسة فلم يخطر له أنه في خطر. ولم يعر انتباهًا لصمت الأصوات في البازار، مثلما تفعل الطيور لدى دخول الصياد إلى الغابة. ولم يلحظ وقع الأقدام الثقيلة المقتربة، ولا تكرار القرقعة، القرقعة، القرقعة لدروع المرتزقة التي رافقتها. ولم يلتفت عندما زعق أحدهم «قف!»، خارج خيمته، لكنه استدار حين مزقت ستائر الخيمة. كان مدهوشًا دَهَشًا بليدًا، وطرف بعينيه المتورمتين من ضوء الشمس الساطع وتساءل محتارًا ما الذي تفعله كتيبة مرتزقة الشمال بدخولها إلى خيمته.

«هذا هو»، قال واحد يلبس ثيابًا مدنية، ربما كان حكيمًا، ثم اختفى بحذر قبل أن يتمكن نظر عبدالله من التركيز عليه.

«أنت!»، قال قائد الكتيبة. «اخرج معنا».

«ماذا؟»، قال عبدالله.

«هاتوه»، قال القائد.

دهش عبدالله، واعترض خائفًا حين جروه ولفوا ذراعيه ليجعلوه يمشي. استمر في الاعتراض وهم يأخذونه إلى الخارج إلى

القرقعة المزدوجة كلانك كلانك، كلانك كلانك، خارج البازار وإلى الحي الغربي. ثم أخذ يعترض بقوة حقًّا. «ما هذا؟»، قال لاهثًا. «أطالب، باعتباري مواطنًا - أين نذهب؟».

«اخرس. ستعرف»، أجابوه. كانت لياقتهم عالية فلم يلهثوا.

وبعد وقت قصير، دخلوا بعبدالله بوابة حجرية ضخمة، صنعت من آجرات صخرية تلمع بيضاء في الشمس، إلى داخل فناء متوهج، حيث قضوا خمس دقائق خارج مشغل حدادة كالفرن يثقلون عبدالله بالسلاسل. فاعترض أكثر. «ولأي شيء هذه؟ أطالب بأن أعرف!».

«اخرس!» قال قائد الكتيبة. وقال لنائبه، بلهجته الهمجية الشمالية، «أهل زنزيب دائمو التشكي هكذا. ليس عندهم ذرة من كرامة».

حين قال قائد الكتيبة هذا، غمغم الحداد، الذي كان من أهل زنزيب أيضًا - قائلًا لعبدالله «السلطان يريدك. لكني لا أراك سعيد الحظ. آخر من سلسلوه هكذا صلب».

«لكني لم أفعل شيـ...!»، قال عبدالله معترضًا.

«اخرس!»، صاح به قائد الكتيبة. «هل انتهيت أيها الحداد؟ حسن. أسرعوا!»، فاقتادوا عبدالله، عبر الباحة اللامعة إلى داخل مبنى كبير خلفها.

كان عبدالله سيقول إنه يستحيل عليه السير بهذه السلاسل،

فهي ثقيلة جدًّا، ولكن عجبٌ ما يمكنك فعله إن عزم جمع من جنود مكفهري الوجوه على جعلك تفعله. مشى، كلانك تشانكل، كلانك تشانكل، حتى وصل بعد إرهاق مجلجل إلى أسفل كرسي مرفوع عاليًا صنع من البلاطات الباردة الزرقاء نثرت عليه الوسائد. هنالك جثا كل الجنود، في هيئة أنيقة بعيدة، كما يفعل جنود الشمال للشخص الذي يدفع أجورهم.

«ماثل أمامك السجين عبدالله يا مولاي السلطان»، قال قائد الكتيبة.

لم يجثُ عبدالله، بل اتبع عادة أهل زنزيب وخرّ على وجهه. كما أنه كان متعبًا وكان السقوط إلى الأسفل بجلبة عالية أسهل عليه من أي شيء آخر. كانت الأرض المبلطة باردة برودة مبهجة رائعة.

«اجعلوا ابن روَث الجمل يجثو»، قال السلطان. «اجعلوا هذا المخلوق ينظر إلينا إلى وجهنا»، قال صوت خفيض لكنه يتهدج غيظًا.

حل جنديٌّ السلاسلَ وجر آخران ذراعي عبدالله حتى انحنى على ركبتيه. وأبقوه هكذا وفرح عبدالله، ولولا أن أمسكوه لانقلب خوفًا. كان الرجل المسترخي على العرش المبلط رجلًا بدينًا أصلع له لحية شيباء كثة. كان يضرب الوسادة بخمول فيما يبدو، لكنه في الحقيقة يستشيط غيظًا، بشيء أبيض قطني له شرابة في أعلاه. كان هذا الشيء ذو الشرابة هو ما جعل عبدالله يدرك المأزق الذي وقع فيه، فقد كانت هذه قبعته الليلية.

«والآن يا كلب القمامة»، قال السلطان. «أين ابنتي؟».

«ليس لي علم»، قال عبدالله حزينًا.

«أتنكر»، قال السلطان ملوحًا بالقبعة الليلية كأنها رأس مقطوع يمسكه من شعره، «أتنكر أن هذه قبعتك الليلية؟ اسمك منقوش داخلها أيها البائع التعيس! لقد وجدتها أنا -وجدناها نحن بذاتنا- داخل صندوق حلي ابنتي، إلى جانب اثنتين وثمانين صورة لرجال من العوام، خبأتها ابنتي في اثنين وثمانين مكانًا ذكيًا. أتنكر أنك تسللت إلى حديقتي الليلية وقدمت إلى ابنتي هذه اللوحات؟ أتنكر أنك خطفت ابنتي بعدئذ؟».

«أجل، أنكر ذلك!»، قال عبدالله. «لست أنكر يا نصير المظلومين، أمر القبعة الليلية أو اللوحات رغم أني لا بد لي من الإشارة إلى أن ابنتك أذكى في الإخفاء منك في العثور، يا أيها الحكيم العظيم، فقد أعطيتها مئة وسبع لوحات أخرى إلى جانب ما وجدت - غير أني قطعًا لم أخطف زهرة في الليل. لقد خطفها أمام عينيّ عفريت شرير ضخم من الجن. ولست أعلم أكثر مما تعلم ذاتكم المبجلة مكانها الآن».

«قصة معقولة!»، قال السلطان. «عفريت إذن! أيها الكاذب! أيها الحشرة!».

«أقسم إنها الحقيقة!»، صاح عبدالله. كان يائسًا جدًا فلم يكترث بما قال. «هاتِ أي شيء مقدس تريد وسأقسم عليه إنه العفريت.

دعهم يسحروني لأقول الحقيقة وسأظل أكرر قولي، يا عظيمًا يفتك بالمجرمين. لأنها الحقيقة، ولما كنت على الأرجح أكثر منك فجيعة بفقدان ابنتك، أيها السلطان العظيم، يا مجد بلادنا، فإني أتوسل إليك أن تقتلني وتخلصني من حياة بائسة!».

«سآمر بإعدامك بلا تردد»، قال السلطان. «ولكن أخبرني أولًا أين هي».

«لكني أخبرتك يا معجزة العالم!»، قال عبدالله. «لا علم لي بمكانها».

«خذوه»، قال السلطان بهدوء شديد لجنوده الراكعين. فنهضوا بسرعة وأنهضوا عبدالله. «عذبوه حتى تعرفوا الحقيقة منه»، أضاف السلطان. «عندما نعثر عليها اقتلوه. ولكن انتظروا حتى ذلك الحين. أحسب أن أمير أوشنستان سيقبل بها أرملة إن ضاعفت المهر».

«أنت مخطئ يا سيد الأسياد»، قال عبدالله لاهثًا والجنود يدفعونه على البلاط. «لا أدري أين ذهب العفريت، وإني لشديد الحزن إذ أخذها قبل أن يتسنى لنا الزواج».

«ماذا؟»، صاح السلطان. «أعيدوه!» جر الجنود عبدالله وسلاسله في الحال إلى العرش المبلط، حيث كان السلطان يميل إلى الأمام ويستشيط غضبًا. «هل تلوثت أذناي الطاهرتان بقولك إنك لم تتزوج ابنتي أيها الوسخ؟»، سأل.

«هذا صحيح أيها الملك العظيم»، قال عبدالله. «جاء العفريت قبل أن نتمكن من الهرب».

نظر السلطان إلى عبدالله فيما بدا خوفًا «أهذه هي الحقيقة؟».

«أقسم»، قال عبدالله، «بل إني لم أقبّل ابنتك بعد. بل إني عزمت على البحث عن قاضٍ حالما نهرب من زنزيب. أنا أعرف الأصول. ولكني شعرت أيضًا أن الأصول تقتضي التأكد من رغبة زهرة في الليل بالزواج مني. لقد ذهلت أنها اتخذت قرارها عن جهل رغم المئة والتسع والثمانين لوحة. إن غفرت لي قولي هذا يا حامي المواطنين، فقد أخطأت في تربية ابنتك قطعًا. لقد حسبتني امرأة حين رأتني أول مرة».

«إذن»، قال السلطان متفكرًا، «حين أطلقت رجالي ليقبضوا على المتسلل ويقتلوه في الحديقة البارحة، كان الأمر كارثيًا أيها الأحمق»، قال لعبدالله، «أيها العبد والمهجّن الذي يجرؤ على انتقادي! كان عليّ تربية ابنتي مثلما فعلت بلا شك. فنبوءة مولدها تقو ل إنها ستتزوج أول رجل تراه غيري».

اعتدل عبدالله رغم السلاسل، فقد راوده شعور بالأمل لأول مرة ذلك اليوم.

كان السلطان يحملق إلى الغرفة المبلطة والمزخرفة بأناقة متفكرًا. «لقد راقت لي النبوءة كثيرًا»، قال. «لقد رغبت كثيرًا في التحالف مع دول الشمال، لأن عندهم أسلحة أقوى مما نستطيع

صنعه هنا، وبعض هذه الأسلحة سحري حقًّا كما فهمت. لكن يصعب الحصول على موافقة أمراء أوشنستان. لذا كان كل ما عليَّ فعله -كما ظننت- أن أبعد عن ابنتي فرصة أن ترى رجلًا، وقد منحتها أفضل تعليم، لأتأكد من أنها تجيد الغناء والرقص وتكون بهجة للأمير. ثم عندما أصبحت ابنتي في سن الزواج، دعوت الأمير في زيارة للبلاد. وكان يزمع القدوم العام القادم، حين ينتهي من إخضاع بلاد غزاها بهذه الأسلحة الفتاكة. وعلمت أن ابنتي حين يقع نظرها عليه ستضمن لي النبوءة أنه سيكون صهري!» اتجهت عيناه إلى عبدالله منذرتين بالشؤم. «ثم فسدت خطتي على يد حشرة مثلك!».

«هذا صحيح لتعاسة الحظ، يا أحكم الحكام»، أقر عبدالله. «أخبرني، أيمكن أن يكون أمير أوشنستان مسن اوقبيحًا؟».

«أراه شريرًا بقدر هؤلاء المرتزقة الشماليين»، قال السلطان، فشعر عبدالله بأن الجنود الذين كانت وجوه أكثرهم منمشة ولهم شعر أحمر، قد تخشبوا قليلًا. «لماذا تسأل يا كلب؟».

«لأنه، إن غفرت لي مزيدًا من النقد لحكمتك العظيمة، يا مطعم شعبنا، فإن هذا يبدو ظلمًا بحق ابنتك»، قال عبدالله. وشعر بأنظار الجنود تلتفت إليه، متعجبين من جرأته، لكنه لم يكترث. بل شعر أنه ليس عنده ما يخسره.

«لا قيمة للنساء»، قال السلطان، «لذا يستحيل أن يكون المرء ظالمًا لهن».

«أخالفك الرأي»، قال عبدالله، فحملق إليه الجنود أكثر.

نظر إليه السلطان غاضبًا. وطوقت يداه القويتان القبعة الليلية كأنها تطوقان عنق عبدالله. «اصمت أيها الضفدع العليل!»، قال. «وإلا ستجعلني أنسى نفسي وآمر بإعدامك في الحال».

هدأ عبدالله قليلًا. «أيها السيف القاطع بين المواطنين. أتوسل إليك أن تقتلني الآن»، قال. «لقد اعتديت، لقد اقترفت خطأ واقتحمت حديقتك الليلية...».

«اصمت»، قال السلطان. «تعرف حق المعرفة أني لن أستطيع قتلك حتى أجد ابنتي وأتأكد أنها ستتزوجك».

هدأ عبدالله أكثر. «إن عبدك لا يفهم منطقك يا جوهر الحكمة»، قال معترضًا. «أطالب بموتي الآن».

فزمجر السلطان في وجهه فعليًا. «لقد تعلمت أمرًا واحدًا»، قال، «من هذا الحدث المؤسف، فهو أنني أنا سلطان زنزيب لا أستطيع خداع القدر. ستتحقق النبوءة من تلقاء نفسها بصورة ما. أعرف ذلك. لذا إذا أردت لابنتي أن تتزوج أمير أوشنستان، فلا بد أن أمتثل للنبوءة».

هدأ عبدالله تمامًا. كان عليه أن يدرك هذا منذ البداية، ولكنه كان شديد القلق فلم يدرك أن السلطان فكر فيه أيضًا، لكنه فعل. لا بد أن زهرة في الليل قد ورثت التفكير السليم من أبيها.

«أين ابنتي إذن؟»، سأل السلطان.

«لقد أخبرتك، أيها الشمس الساطعة على زنزيب»، قال عبدالله. «العفريت..».

«لست أصدق أمر العفريت ولو قليلًا»، قال السلطان. «فهذا أمر محال. لقد أخفيت الفتاة في مكان ما. خذوه»، قال للجنود، «واحبسوه في أكثر الزنازين مناعة واتركوه مقيدًا بالسلاسل. لا بد أنه تسلل إلى الحديقة بطريق السحر فبوسعه إذن أن يستخدمه ليهرب ما لم نتيقظ له».

لم يستطع عبدالله تجنب إجفاله من هذا، فرآه السلطان وابتسم ابتسامة لئيمة. «ثم»، قال، «أريدكم أن تفتشوا البيوت بيتًا بيتًا بحثًا عن ابنتي. يجب أن نأتي بها إلى الزنزانة لتتزوج حالما نجدها». واتجه بناظريه متفكرًا إلى عبدالله. «إلى حينها»، قال، «سأسلي نفسي بابتكار أساليب جديدة لقتلك. أما الآن، فإني أود أن أضعك على خازوق طوله أربعين قدمًا ثم نطلق النسور لتأكلك. قد أغير رأيي إن وجدت شيئًا أسوأ».

سحب الجنود عبدالله، فكاد يسقط في حمأة القنوط ثانية. ثم تذكر نبوءة مولده، الخازوق ذو الأربعين قدمًا سيرفعه فوق الآخرين في البلاد تمامًا.

الفصل السادس

وفيه عبدالله يستجير من الرمضاء بالنار

زجوا بعبدالله في زنزانة عميقة نتنة الرائحة حيث لا ضوء إلا ما يأتي عبر كوة مشبكة صغيرة في أعلى السقف، ولم يكن هذا ضوء النهار. لقد جاء على الأرجح من نافذة بعيدة في نهاية ممر في الطابق الأعلى، حيث كانت الكوة المشبكة جزءًا من الأرضية.

أدرك عبدالله أن هذا ما ينتظره، حاول والجنود يجرونه، أن يملأ عينيه وذهنه بصور للضياء. حين وقف الجنود لفتح أقفال الباب الخارجي إلى الزنزانة، نظر إلى الأعلى ومن حوله. كانوا في باحة صغيرة مظلمة جدرانها بيضاء من الحجر تنتصب كالجروف من حول المكان. ولو أمال عبدالله رأسه إلى الخلف، لرأى برجًا رفيعًا وسط المدى، يحفه الضوء الذهبي المشرق للصباح. ذهل لما عرف أنها ليست إلا ساعة بعد الفجر. فوق البرج، كانت السماء شديدة الزرقة ليس فيها إلا غيمة واحدة ثابتة بسلام فيها. كان الصباح يلون الغيمة بالأحمر والذهبي، مانحًا إياها هيئة قلعة عالية لها نوافذ ذهبية. أمسك الضوء الذهبي بجناحين أبيضين لطائر يطوف حول

البرج. كان عبدالله واثقًا بأن هذا آخر مشهد جميل يراه في حياته، والتفت إليه حين دفعه الجنود إلى الداخل.

حاول أن يثمن هذه الصورة لما أغلق عليه باب الزنزانة الباردة الرمادية، لكن هذا مستحيل. كانت الزنزانة عالمًا آخر. وانتابه الحزن الشديد وقتًا طويلًا فلم ينتبه إلى خدره تحت السلاسل. ولما انتبه، تنقل وقرقع على الأرض الباردة، لكن هذا لم يكن بذي فائدة.

«عليَّ أن أستعد لحياة من هذا»، قال لنفسه. «ما لم ينقذ أحد زهرة في الليل من غير شك». لم يبدُ ذلك واردًا، فقد رفض السلطان أن يصدق وجود العفريت.

حاول بعدئذ أن يبعد اليأس عن حلم يقظته. لكنه، بعد أن تخيل نفسه أميرًا اختطف لم يجده نفعًا. لقد عرف أن هذا ليس بصحيح، وظل يفكر لائمًا نفسه أن زهرة في الليل صدقته حين أخبرها بذلك. لا بد أنها عزمت على الزواج به لأنها حسبته أميرًا، فقد كانت هي أميرة كما عرف الآن. ولم يتخيل نفسه يتجرأ على إخبارها بالحقيقة. ولوهلة، شعر أنه يستحق أسوأ مصير يبتدعه له السلطان.

ثم أخذ يفكر في زهرة في الليل. أينما كانت، لا بد أنها خائفة وتعيسة مثله، وتاق عبدالله إلى طمأنتها، وأراد إنقاذها بشدة حد أنه أمضى بعض الوقت يتلوى في سلاسله عاجزًا.

«قطعًا لن يحاول أحد غيري»، قال هامسًا، «يجب أن أخرج من هنا!».

ثم، ورغم ثقته بأنها فكرة غبية بقدر غباء حلم يقظته، فقد حاول استدعاء البساط السحري. وتخيله جاثمًا على أرض خيمته فناداه بصوت عالٍ، مرة بعد أخرى. وقال كل كلمات الأمر السحرية التي تذكرها، آملًا أن تكون إحداها الكلمة المنشودة.

لم يحدث شيء، ويا له من سخيف إذ ظن أن شيئًا سيحدث! قال عبدالله لنفسه. ولو استطاع البساط سماعه من الزنزانة، إذا قال كلمة الأمر الصحيحة أخيرًا، فكيف لبساط وإن كان سحريًا أن يدخل إلى هنا عبر الكوة المشبكة؟ وكيف سيساعد عبدالله في الخروج؟

استسلم عبدالله واستند إلى الجدار، بين النعاس واليأس. لا بد أن الوقت الآن ذروة النهار إذ ينال جل أهل زنزيب قسطًا صغيرًا من الراحة. وعبدالله، إذا لم يكن ذاهبًا إلى أحد المتنزهات العامة، يجلس عادة على كومة من أقل بُسُطه جودة في الظل أمام خيمته، يشرب عصير الفاكهة، أو النبيذ إذا استطاع دفع ثمنه، ويتحدث إلى جمال بكسل. ليس بعد اليوم. وهذا ليس إلا يومه الأول! دار في ذهنه بائسًا! إني أعد الساعات، متى سأخطئ في حساب الأيام؟

أغمض عينيه. ثمة أمر واحد جيد، سيقلق تفتيش البيوت بيتًا بيتًا بحثًا عن ابنة السلطان فاطمة وحكيمًا وآصف، لأنهم معروفون بأنهم أهل عبدالله. وتمنى أن يقلب الجنود المتجر البنفسجي رأسًا على عقب، وتمنى أن يشقوا الجدران ويبسطوا كل البُسُط، وتمنى أن يلقوا القبض...

حط شيء على الأرض عند قدمي عبدالله.

لقد ألقوا إليّ ببعض الطعام، هذا ما ظنه عبدالله، وسأموت جوعًا. فتح عينيه بتثاقل، ثم انفتحتا متسعتين من تلقاء نفسيهما.

هناك، على أرض الزنزانة، كان البساط السحري. وعليه، يرقد بهدوء كلب جمال الشكس. نظر عبدالله إلى كليهما. وتصور أن الكلب في قيظ منتصف النهار، لجأ إلى ظل خيمة عبدالله، وأنه اضطجع على البساط لأنه مريح. ولكن كيف يمكن لكلب -لكلب!- أن يقول كلمة الأمر كان ذلك يفوق إدراك عبدالله تمامًا. لدى نظره، أخذ الكلب يحلم، فتحركت كفوفه، وتغضن خطمه، وتشمم كأنه تنشَّق أزكى العطور، وأطلق آهة خافتة، كأن ما شمه في حلمه يفر منه.

«أيمكن يا صديقي»، قال عبدالله له، «أنك كنت تحلم بي، وبالوقت الذي أقدم لك فيه الإفطار؟».

سمعه الكلب في نومه، فأطلق شخيرًا عاليًا واستيقظ. وكعادة الكلاب، لم يضّيع وقتًا في السؤال عن وجوده في هذه الزنزانة الغريبة. فتنشق وتشمم عبدالله، ثم قفز مطلقًا زعيقًا فرحًا، ودس كفوفه بين السلاسل على صدر عبدالله ولعق وجهه متحمسًا.

ضحك عبدالله وأدار رأسه ليبعد أنفه عن أنفاس الكلب التي تفوح منها رائحة الحبار. كان فرحًا بقدر الكلب. «كنت تحلم بي إذن!»، قال. «سأتدبر لك قصعة من الحبار كل يوم يا صديقي. لقد أنقذت حياتي، وربما حياة زهرة في الليل أيضًا!».

وحالما سكن الفرح عن الكلب قليلًا، أخذ عبدالله يتدحرج ويتقلب على الأرض في سلاسله، حتى استلقى متكئًا على مرفقه، على البساط. زفر زفرة كبيرة، لقد بات بأمان الآن. «هيا بنا»، قال للكلب، «تعال إلى البساط أنت أيضًا».

غير أن الكلب شم رائحة جرذ من غير شك في زاوية الزنزانة، وأخذ يلاحق الرائحة بنخير حماس. ومع كل نخرة أحس عبدالله بالبساط يرتعش تحته، فمنحه ذلك الجواب الذي أراد.

«هيا بنا»، قال للكلب. «إن تركتك هنا، فسيجدونك حينما يأتون لاستجوابي، وسيظنون أني حولت نفسي كلبًا، فيكون مصيري مصيرك. لقد جئتني بالبساط وكشفت لي سره ولا أستطيع رؤيتك معلقًا على خازوق طوله أربعون قدمًا».

حشر الكلب أنفه في الزاوية ولم يكن مصغيًا. وسمع عبدالله خبط الأقدام وصلصلة المفاتيح التي لا تخطئها أذن عبر الجدران السميكة للزنزانة. كان أحدهم قادمًا، فتخلى عن إقناع الكلب، وتمدد على البساط.

«هيا يا ولد!»، قال. «تعال والعق لي وجهي!».

فهم الكلب قوله، وترك الزاوية وقفز على صدر عبدالله وأراد أن يفعل ما أمره.

«يا بساط»، همس عبدالله من تحت اللسان المشغول. «إلى البازار، ولكن لا تهبط، بل حلق قرب كشك جمال».

ارتفع البساط واندفع جانبيًّا، وحدث ذلك في الوقت المناسب، إذ فتحت المفاتيح باب الزنزانة. لم يعرف عبدالله قط كيف خرج البساط من الزنزانة لأن الكلب ما زال يلعق وجهه فاضطر إلى إغماض عينيه. أحس بظل رطب يمر قربه -ربما حدث ذلك لأنهم ذابوا أثناء اختراقهم الجدار- ثم بضوء النهار الساطع. رفع الكلب رأسه إلى ضوء النهار حائرًا. وخزر عبدالله عينيه على الجانبين من خلال السلاسل ورأى جدارًا عاليًا يرتفع أمامهم ثم يهبط عندما ارتفع البساط فوقه بيسر. ثم تعاقبت الأبراج والسطوح التي يألفها عبدالله رغم أنه لم يرها من قبل إلا ليلًا، ثم مضى البساط ميممًا شطر الطرف الخارجي للبازار. إذ كان قصر السلطان على مبعدة خمس دقائق من خيمة عبدالله مشيًا.

لاح في الأفق كشك جمال وبجانبه خيمة عبدالله الخربة، والبُسُط مرمية في الشارع. لا بد أن الجنود فتشوها بحثًا عن زهرة في الليل. كان جمال غافيًا، ورأسه على ذراعيه بين قدر كبيرة يتصاعد منها البخار من الحبار ومشواة على الفحم عليها أسياخ اللحم المدخنة. رفع رأسه وبعينه الواحدة نظر إلى البساط وهو معلق في الهواء أمامه.

«انزل يا ولد!»، قال عبدالله. «نادِ كلبك يا جمال».

كان جمال شديد الخوف. فليس بالأمر المسلي حراسة متجر مجاور يود السلطان أن يعلق صاحبه على الخازوق. كأنما فقد القدرة على الكلام، ولما لم يلقِ الكلب بالًا لأيٍّ منهما، حاول عبدالله جاهدًا

أن يتخذ وضعية الجالس، وهو يقرقع ويجلجل ويتعرق، فأبعد هذا الكلب عنه. وقفز خدرًا إلى منضدة الكشك، فأمسك به جمال بين ذراعيه شاردًا.

«ماذا تريدني أن أفعل؟»، سأل ناظرًا إلى السلاسل. «هل آتيك بالحداد؟».

اهتز عبدالله فرحًا لهذا الإثبات على صداقة جمال، غير أن جلوسه في الأعلى منحه إطلالة على الشارع بين الأكشاك. رأى أخمص الأقدام الراكضة هناك والثياب الطائرة. وبدا أن أحد أصحاب الأكشاك كان في طريقه لاستدعاء العسس، رغم أن في هذا الراكض ما ذكر عبدالله بآصف بقوة. «كلا»، قال. «لا وقت لدي». ولف رجله اليسرى مقعقعًا من فوق حافة البساط. «بل افعل لي ما أقول لك. ضع يدك على الزخرفة فوق حذائي الأيسر».

فمد جمال طائعًا ذراعًا قوية، ولمس الزخرفة بوجل شديد. «أهي رقية؟»، سأل قلقًا.

«كلا»، قال عبدالله. «بل محفظة مخبأة. مد يديك وأخرج المال منها».

انتابت الحيرة جمالًا، لكن أصابعه اندست ووجدت طريقها إلى المحفظة وأخرجت ملء قبضة من الذهب. «عندك ثروة هنا»، قال. «أسيشتري لك هذا حريتك؟».

«لا»، قال عبدالله. «بل حريتك. سيلاحقونك أنت وكلبك لأنكما

ساعدتماني. خذ الذهب والكلب واخرج، غادر زنزيب. اذهب شمالًا إلى مدن البرابرة وتخفَّ».

«شمالًا؟»، قال جمال. «ولكن ما الذي سأفعله في الشمال؟».

«اشترِ كل ما تشتهيه وافتح مطعم راشپتي»، قال عبدالله. «لديك ما يكفي من الذهب لتفعل ذلك وأنت طاهٍ ماهر. يمكنك أن تجني ثروة هناك».

«حقًّا؟»، قال جمال، منقلًا نظره بين عبدالله وقبضته الملأى بالذهب. «أتظنني أستطيع حقًّا؟».

كان عبدالله يراقب الطريق، فرأى الفضاء يمتلئ، ليس بالعسس بل بمرتزقة الشمال، وكانوا يركضون. «إن ذهبت الآن»، قال.

سمع جمال قرقعة الجنود الراكضين، فأطل ليرى ويتأكد. ثم صفر لكلبه ورحل في سرعة وهدوء أثارا إعجاب عبدالله. بل سنح الوقت لجمال ليرفع اللحم عن المشواة لئلا يحترق. سيعرف الجنود أن هنا كان مرجل من الحبار نصف المسلوق.

همس عبدالله للبساط. «إلى الصحراء، بسرعة!».

انطلق البساط على الفور باندفاعه الجانبي المعتاد. وظن عبدالله أنه واقع منه لا محالة لولا وزن سلاسله الذي جعل البساط يتقبب إلى الأسفل في وسطه، مثل أرجوحة النوم. وكانت السرعة لازمة. صرخ به الجنود، وسمع دويًّا عاليًا، وفي بضع دقائق نقشت السماء الزرقاء قرب البساط رصاصتان وسهم نشابة، ثم ارتدّت كلها.

تابع البساط اندفاعه فوق السطوح والجدران وقرب الأبراج، مارًّا بأشجار النخيل وحدائق السوق. أخيرًا اندفع إلى فراغ حار رمادي، يتلألأ باللونين الأبيض والأصفر تحت رقعة كبيرة من السماء الزرقاء، حيث أخذت سلاسل عبدالله تسخن سخونة مزعجة.

توقف تدفق الهواء، ورفع عبدالله رأسه وفوجئ لرؤية زنزيب صغيرة بحجم مجموعة من الأبراج في الأفق. طار البساط بطيئًا مارًّا برجل يركب جملًا أدار وجهه الملثم ليرى. فأخذ يغوص ناحية الرمل، وعندئذ أدار الرجل جمله وحثه ليجري خلف البساط. رآه عبدالله يفكر سعيدًا في أنه وجد فرصة ليستولي على بساط سحري فعال أصلي، وصاحبه مكبل بالسلاسل ولا طاقة له بمقاومته.

«أعلى، أعلى»، زعق بالبساط. «طر إلى الشمال!».

طار البساط مقرقعًا مرة أخرى. كان كل خيط فيه يزفر ضيقًا ولامبالاة، وانعطف في قوس

ثقيل وتوجه شمالًا بسرعة المشي على الأقدام. تقاطع راكب الجمل والقوس وأخذ يعدو. ولما كان البساط لا يزيد ارتفاعه في الهواء سوى تسعة أقدام، فقد كان هدفًا مناسبًا لأحد يركب جملًا يعدو.

رأى عبدالله أن الوقت حان لشيء من الحديث. «احترس!»، صاح براكب الجمل. «لقد ألقت بي زنزيب خارجًا مكبلًا بالسلاسل خشية أن أنشر الوباء الذي أصابني!» لم يخدع راكب الجمل، بل

أمسك زمام جمله وتبعه بسرعة أكثر حذرًا، وهو يصارع عمود خيمة يبرز من متاعه. لا شك أنه عزم على إسقاط عبدالله عن البساط به. فأدار عبدالله انتباهه إلى البساط «يا أفخر البُسُط»، قال، «يا من ألوانك أزهى الألوان ونسيجك أنعم النسج، يا من صارت خيوطك فاخرة بالسحر، أخشى أني لم أمنحك احترامًا كافيًا حتى الآن. بل ألقيت إليك بأوامري وصرخت بك، لكني أرى الآن أن طباعك الرقيقة لا تريد إلا الطلب الهادئ. فسامحني، سامحني!».

أعجب هذا البساط، فامتد في الهواء أقوى وزاد السرعة قليلًا.

«ويا لي من كلب»، تابع عبدالله، «إذ جعلتك تعمل في حرارة الصحراء، وأرهقتك كثيرًا بثقل السلاسل. يا أجمل البُسُط وأكثرها أناقة، لا أفكر الآن إلا فيك وكيف أخلصك من هذا الوزن الكبير. لو استطعت أن تطير بسرعة أكبر -ولنقل أكبر قليلًا من عدو الجمل- إلى أقرب بقعة في صحراء الشمال حيث أجد أحدًا يخلصني من هذه السلاسل، أيوافق هذا طبعك الدمث الفخم؟».

كأنما أصاب القول، فقد انبعثت من البساط رائحة غرور أنيق. فعلا قدمًا أو نحوه، وغير اتجاهه قليلًا، وتقدم بسرعة سبعين ميلًا في الساعة. تشبث عبدالله بطرفه وأطل بنظره إلى الخلف على راكب الجمل الحانق، الذي سرعان ما تحول إلى نقطة في الصحراء خلفه.

«يا أبدع التحف، إنك سلطان البسط وأنا خادمك التعيس!»، قال بلا حياء.

أحب البساط هذا كثيرًا فأسرع أكثر.

بعد عشر دقائق، هبط على كثيب رمل وتوقف سريعًا أسفل القمة على الجانب الآخر. مائلًا. تدحرج عبدالله عاجزًا في غيمة من غبار. وواصل دحرجته وقعقعته وجلجلته وخبطه مثيرًا مزيدًا من الرمل، ثم -بعد محاولات يائسة- منزلقًا إلى أخدود رملي، عند حافة بركة صغيرة وحِلة في واحة. عدد من الناس المشعثين، الذين كانوا مقعين فوق شيء عند حافة تلك البركة، هبوا واقفين وتفرقوا لما اخترق جمعهم عبدالله. وضربت رجل عبدالله الشيء الذي تجمعوا حوله وأعادته إلى البركة. فصرخ رجل غاضبًا ومضى يرشرش الماء ليخرجه. أما الباقون فاستلوا خناجرهم وسيوفهم -واستل أحدهم مسدسًا طويلًا- وأحاطوا بعبدالله متوعدين.

«حزوا رقبته»، قال أحدهم.

طرف عبدالله الرمل من عينيه ودار في ذهنه أنه لم يرَ أكثر شرًّا من هؤلاء الرجال. كانت لهم كلهم وجوه مندبة، وأعين مراوغة، وأسنان سيئة ونظرات مخيفة، وكان صاحب المسدس أكثر العصبة شرًّا. كان يضع ما يشبه القرط في أحد جانبي أنفه المعقوف الكبير، وله شارب كث، وعصبة رأسه مثبتة في جنبها بمشبك ذهبي له حجر أحمر قانٍ.

«من أين ظهرت؟»، قال الرجل. ركل عبدالله، «عرِّف بنفسك».

كلهم، ومعهم الرجل الذي كان يخوّض خارجًا من البركة

حاملًا زجاجة، نظروا إلى عبدالله نظرات تشي بأن تعريفه بنفسه لا بد أن ينال إعجابهم.

وإلا.

الفصل السابع

وفيه يظهر الجني

طرف عبدالله مزيدًا من الرمل من عينيه ونظر جديًّا إلى صاحب المسدس. كان الرجل حقًّا صورة طبق الأصل من قاطع الطريق الشرير في حلم يقظته، لا بد أنها إحدى هذه المصادفات.

«أستميحكم عذرًا مئة مرة يا أسياد الصحراء»، قال بتهذيب شديد، «لتطفلي عليكم هكذا، لكني أأنا أتحدث إلى أنبل اللصوص وأشهرهم، كابول عقبة منقطع النظير؟».

ارتسمت الدهشة على الرجال الأشرار الآخرين حوله. وسمع عبدالله أحدهم يقول في الحال «كيف عرف ذلك؟» لكن صاحب المسدس اكتفى بالنخير.

كان أمرًا اعتاد وجهه على فعله تحديدًا. «أنا هو صدقًا»، قال. «أأنا مشهور؟».

قال عبدالله في نفسه إنها إحدى المصادفات. لقد عرف على الأقل أين كان. «خسارة، يا جوَّالي الفيافي»، قال، «إنني مثل حضراتكم،

منبوذ مظلوم. لقد أقسمت لأنتقمن من كل راشپت. لقد جئت هنا قصدًا لأنضم إليكم وأضم قوة حيلتي وحيلي إلى قوتكم».

«حقًّا؟»، قال كابول عقبة. «وكيف وصلت إلى هنا؟ سقطت من السماء أنت وسلاسلك؟».

«بالسحر»، قال عبدالله متواضعًا. فقد ظن أنه الشيء الذي سيثير إعجاب هؤلاء الناس. «لقد سقطت من السماء حقًّا يا أنبل الرُّحَّل».

للأسف لم تبدُ عليهم الدهشة، بل ضحك أكثرهم. وأرسل كابول عقبة، بإيماءة من رأسه، اثنين منهم إلى كثيب الرمل ليعاين موضع وصول عبدالله. «أنت تجيد السحر إذن؟»، قال. «ألهذه السلاسل التي تضعها علاقة بالسحر؟».

«من غير شك»، قال عبدالله. «إنني ساحر عليم حتى أن السلطان أثقلني بهذه السلاسل خشية مما قد أفعل. فكوا هذه السلاسل وحلو وثاقي وسترون أشياء عظيمة». بطرف عينه رأى الرجلين يعودان حاملين البساط بينهما. وتمنى أن يكون هذا خيرًا. «الحديد يمنع الساحر من ممارسة سحره كما تعلمون»، قال جادًّا. «لا ترددوا في فكه عني وانظروا إلى الحياة الجديدة التي ستنفتح أمامكم».

نظر إليه بقية اللصوص مرتابين. «ليس عندنا إزميل ولا مطرقة»، قال أحدهم.

استدار كابول عقبة إلى اللذين يحملان البساط. «لم نجد إلا هذا»، أبلغاه. «لا أثر لشيء يُمتطى، ولا آثار أقدام».

عندئذ فتل زعيم اللصوص شاربه، وتساءل عبدالله إن كان قد اشتبك بزمام أنفه يومًا. «همم»، قال. «أنا واثق أنه بساط سحري. ائتوني به». واستدار ناخرًا إلى عبدالله. «يؤسفني أن أخيب أملك أيها الساحر»، قال، «ولكن ما دمت جئت بسلاسلك طوعًا، سأتركك هكذا وأتولى أمر بساطك، لأمنع الحوادث. إن أردت الانضمام إلينا حقًّا فكن مفيدًا أولًا».

فوجئ عبدالله إذ وجد أنه يشعر بالغضب لا الخوف. لعله استنزف كل خوفه ذلك الصباح أمام السلطان، أو لعل ذلك عائد إلى أن كل ما فيه يؤلمه. فقد سُحج وجرح من انزلاقه على كثيب الرمل، ولفافة أحد كاحليه تحكه حكة شديدة. «لكني أخبرتك»، قال متغطرسًا، «إنني لن أنفعك حتى تفك السلاسل عني».

«لا نريد منك سحرًا، بل معرفة»، قال كابول عقبة. واستدعى الرجل الذي ذهب يخوّض في البركة. «أخبرنا أي شيء هو هذا»، قال، «وقد نكافئك بحل وثاق ساقيك».

أقعى الرجل الذي كان في البركة وأخرج زجاجة مدخنة زرقاء جزؤها السفلي منتفخ. استند عبدالله على مرفقيه ونظر إليها مستاء، إذ بدت جديدة. كانت السدادة جديدة نظيفة تظهر من الزجاج المدخن لعنق الزجاجة، التي أغلقت بختم من الرصاص مطبوع، جديد المظهر أيضًا. بدت كأنها زجاجة عطر زالت عنها علامتها. «إنها خفيفة جدًّا»، قال الرجل المقعي، وهو يرج الزجاجة، «ولا تخشخش ولا تقرقع».

أراد عبدالله أنه قد يستغل هذا ليفك وثاقه. «إنه قمقم جني»، قال. «اعلموا يا أهل الصحراء أنه قد يكون شديد الخطورة. فكوا عني هذه السلاسل وسأسيطر على الجني في الداخل وأحرص على أن يطيع كل أوامركم. وإلا فإني أرى ألا يجدر برجل أن يمسه».

الرجل الذي يحمل القمقم أوقعه خائفًا، لكن كابول عقبة ضحك وحملها. «بل تبدو شبيهة أكثر بشيء يشرب»، قال. وألقى القمقم إلى رجل آخر. «افتحه». أنزل الرجل سيفه وأخرج سكينًا كبيرة، حزز بها ختم الرصاص.

رأى عبدالله فرصته في فك الوثاق تضيع، والأسوأ أنه أمره سيفتضح بأنه مخادع. «إنها شديدة الخطر، يا درة اللصوص»، قال معترضًا. «إن كسرت الختم، فلا تفتح السدادة مهما حدث».

نزع الرجل الختم ورماه على الرمل. وأخذ ينزع السدادة، وآخر يمسك القمقم له. «إن كان عليك نزع السدادة»، ثرثر عبدالله، «فانقر على القمقم العدد الصحيح الرمزي من النقرات لتجعل الجني في الداخل يقسم...».

انتزعت السدادة. پوپ. تصاعد من عنق القمقم خيط رفيع من الدخان مائل إلى البنفسجي. تمنى عبدالله أن تكون مليئة بالسم، غير أن الدخان تكثف متحولًا إلى غيمة اندفعت من القمقم مثلما يتصاعد بخار بنفسجي مزرق من إبريق يغلي. اتخذ الدخان شكل وجه -كبير وغاضب وأزرق- وذراعين، واتصلت بالقمقم خصلة من جسد، وواصلت انبعاثها حتى بلغ طولها عشرة أقدام.

«لقد أقسمت!»، زعق الوجه بهدير كبير عاصف، «الويل لمن يخرجني. أنتم!»، أشارت الذراعان المغبشتان.

فاختفى من الوجود الرجلان حامل القمقم وحامل السدادة. وسقط القمقم والسدادة على الأرض، مجبرتين الجني على التموج على جانبيه خارج عنق القمقم. من وسط دخانه الأزرق، خرج ضفدعان يزحفان، ينظران حولهما في حيرة. فانتصب الجني بطيئًا دخانيًّا، مدومًا فوق القمقم مقاطعًا ذراعيه وعلى وجهه الضبابي نظرة كراهية مطلقة.

عندئذ هرب الجميع إلا عبدالله وكابول عقبة، عبدالله لأنه لم يستطع الحراك تحت وطأة سلاسله وكابول عقبة لأن شجاعته واضحة، فنظر الجني شزرًا إلى كليهما.

«أنا خادم القمقم»، قال. «وبقدر ما أكره وأبغض الأمر كله، فإن عليَّ إخباركما بأن من يملكني يمكنه أن يتمنى أمنية واحدة كل يوم ولا بد لي من تحقيقها». ثم أردف متوعدًا «ما أمنيتك؟».

«أتمنى...»، بدأ عبدالله بالقول، لكن كابول عقبة وضع يده على فم عبدالله بسرعة. «أنا من يتمنى»، قال. «افهم ذلك جيدًا أيها الجني!».

«سمعتك»، قال الجني، «ما أمنيتك؟».

«لحظة»، قال كابول عقبة. وقرب وجهه من أذن عبدالله، وكانت أنفاسه أسوأ من يده، رغم أن كليهما، لا بد لعبدالله من الإقرار، لا

يقارنان بكلب جمال. «حسن أيها الساحر»، همس اللص، «لقد تبين أنك تعرف ما تتحدث عنه. أشر عليّ بما أتمنى وسأحررك وأجعلك عضوًا محترمًا في عصابتي. ولكن إن حاولت أن تتمنى شيئًا لنفسك فسأقتلك، أتفهمني؟»، ووضع فوهة مسدسه على رأس عبدالله وأبعد يده عن فمه. «ماذا أتمنى؟».

«حسن»، قال عبدالله، «إن أفضل ما تتمناه وأكرمه أن تتمنى أن يعود ضفدعاك رجلين».

نظر كابول عقبة نظرة دهشة إلى الضفدعين، كانا يزحفان بغير هدى على امتداد الحافة الوحلة للبركة، ولا شك أنهما يتساءلان إن كانا يستطيعان السباحة أم لا. «ستضيع الأمنية هباء»، قال. «فكر مرة أخرى».

أجهد عبدالله تفكيره ليجد أكثر ما يسر زعيم اللصوص. «لك أن تتمنى مالًا بلا حد طبعًا»، قال، «لكنك عندئذ ستضطر إلى حمل نقودك، فلربما يجدر بك أن تطلب أولًا قافلة من الجِمال القوية. كما سيتعين عليك حماية هذا الكنز، فلعلك تطلب أولًا مجموعة من الأسلحة المعروفة في الشمال، أو...».

«ولكن أيها أطلب؟»، سأل كابول عقبة. «أسرع، فالجني نفد صبره».

كان هذا صحيحًا، لم يكن الجني ينقر بقدمه حقًّا، إذ لا قدم له لينقر بها، غير أن شيئًا في وجهه الأزرق المكفهر المتوعد شيئًا أوحى

بأن ضفدعين آخرين سيزحفان قرب البركة إن كان عليه الانتظار أكثر.

كان قليل جدًّا من التفكير كافيًا لإقناع عبدالله أن وضعه، رغم السلاسل، سيكون أسوأ بكثير إن تحول إلى ضفدع. «لماذا لا تطلب مأدبة؟»، قال وجلًا.

«هذا أفضل!»، قال كابول عقبة. وصفع كتف عبدالله وقفز فرحًا. «أطلب أبذخ المآدب»، قال.

انحنى الجني مثل لهب شمعة ينحني في تيار هواء. «تم»، قال حانقًا. «ولن تجديك نفعًا». وصب نفسه حذرًا عائدًا إلى قمقمه.

كانت مأدبة فاخرة، وصلت كلها مرة واحدة، مصدرة ضجيجًا ثقيلًا عاليًا، على طاولة طويلة فوقها ظلة مخططة، وجاء معها عبيد يلبسون بزات للخدمة. تغلب باقي أعضاء العصابة على خوفهم بسرعة وجاؤوا راكضين ليسترخوا على الوسائد ويأكلوا طعامًا شهيًّا من صحون ذهبية ويصرخوا بالعبيد طالبين المزيد والمزيد والمزيد! كان الخدم، كما عرف عبدالله حين سنحت له الفرصة للحديث إلى بعضهم، خدم سلطان زنزيب بذاته، ولا بد أن تكون المأدبة مأدبته أيضًا.

أسعد هذا الخبر عبدالله قليلًا. وأمضى الوليمة لم يزل في سلاسله متكئًا على نخلة. ورغم أنه لم ينتظر شيئًا أفضل من كابول عقبة، فقد كان ذلك صعبًا. تذكره كابول عقبة بين الحين والحين

بتلويحة متعالية من يده، مرسلًا إليه عبدًا يحمل صحنًا ذهبيًا أو إبريق نبيذ.

إذ كان طعامًا كثيرًا. بين الحين والحين، تقع خبطة مكتومة أخرى وتصل أطباق جديدة، يحملها عبيد حائرون، أو قد يظهر ما يبدو صفوة قبو نبيذ السلطان محمولًا على عربة مزينة، أو مجموعة عازفين مدهوشين. وكلما أرسل كابول عقبة عبدًا جديدًا إلى عبدالله، وجد عبدالله ذلك العبد راغبًا جدًّا في الإجابة على الأسئلة.

«الحق أيها الأسير النبيل لملك الصحراء»، قال له أحدهم، «كان السلطان شديد الغضب حين اختفى الطبقان الأول والثاني اختفاء غامضًا. وعند الطبق الثالث الذي كان الطاووس المشوي الذي أحمله وضع حارسًا من المرتزقة ليصحبنا من المطبخ، لكننا انتزعنا من جانبه، عند باب قاعة الولائم، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في هذه الواحة».

وخطر لعبدالله أن الجوع يقرص السلطان أكثر فأكثر.

ظهر فيما بعد جمع من الراقصات، مختطفات بالصورة نفسها، ولا بد أن هذا زاد من غضب السلطان. أثارت الراقصات حزن عبدالله، فقد تذكر زهرة في الليل، واغرورقت عيناه بالدمع. ولما زاد الصخب حول المائدة، جلس الضفدعان في مخاضة البركة ينعقان حزينين. فقد شعرا بالضيق مثلما شعر عبدالله.

حل الظلام فاختفى كل من العبيد والعازفين والراقصات،

وبقي الطعام والشراب. وأشبع اللصوص جوعهم ورووا عطشهم، وغط معظمهم في النوم في مكانهم. ولكن لخوف عبدالله، نهض كابول عقبة -يترنح قليلًا- وتناول قمقم الجني من تحت الطاولة، وتأكد أنه مسدود. ثم تهادى نحو البساط السحري واضطجع عليه حاملًا القمقم في يده، وغط في النوم.

جلس عبدالله مستندًا إلى النخلة في قلق متزايد. إذا أعاد الجني العبيد المسروقين إلى القصر في زنزيب -وقد فعل غالبًا- فلا بد أن أحدًا سيسألهم أسئلة غاضبة، وسيقصون عليه كلهم القصة نفسها حول اضطرارهم إلى خدمة عصابة من اللصوص، بينما جلس شاب حسن المندام مسلسلًا يراقب عند النخلة. سيدرك السلطان الأمر، فهو ليس بأحمق. وربما كان الآن جيش من الجنود قد انطلق على جِمال راكضة سريعة للبحث في الصحراء عن واحة صغيرة.

لكن هذا ليس بأكبر مخاوف عبدالله. نظر إلى كابول عقبة النائم بخوف أكبر، إذ أوشك على خسارة البساط السحري إلى جانب الجني عظيم الفائدة.

من غير شك، انقلب كابول عقبة بعد نصف ساعة من نومه على ظهره فاغرًا فاه، مثلما فعل كلب جمال -ومثلما فعل عبدالله أيضًا من قبل، ولكنه لم يشخر شخيرًا عاليًا كهذا قطعًا- شخر كابول عقبة شخيرًا هائلًا مزعجًا، فارتعد البساط. رأى عبدالله البساط بأم عينه في ضوء القمر الطالع يعلو قدمًا أو نحوه عن الأرض، حيث تعلق وانتظر. وخمن عبدالله أنه مشغول بتأويل ما يحلم به كابول

عقبة عندئذ. ولم يكن عنده أي فكرة عما يحلم به زعيم لصوص، لكن البساط عرف، فقد حلق في الهواء وطار.

نظر عبدالله عاليًا وهو ينزلق فوق أكاليل النخل فوقه وحاول مرة أخيرة في استمالته. «يا أتعس البُسُط!»، ناداه بهدوء. «كنت سأعاملك معاملة أحسن منه!».

ربما سمعه البساط، وربما حدث ذلك صدفة. لكن شيئًا مدورًا يلمع قليلًا تدحرج عن البساط وسقط بخبطة خفيفة على الرمل على مبعدة أقدام قليلة من عبدالله. كان قمقم الجني. فتقدم عبدالله، دون أن يقرقع أو يجلجل بسلاسله قدر استطاعته، وسحب القمقم وخبأه بين ظهره والنخلة، ثم جلس وانتظر الصباح، يداعبه الأمل حتمًا.

الفصل الثامن
وفيه تواصل أحلام عبدالله تحققها

لحظة أن ألهبت الشمس الكثبان بضوئها الأبيض المحمر، انتزع عبدالله السدادة عن قمقم الجني.

انبعث الدخان خارجًا، وأصبح كالأنبوب، واندفع إلى الأعلى متخذًا الشكل البنفسجي المزرق الجني الذي بدا، إن أمكن القول، أكثر غضبًا من ذي قبل. «قلت أمنية واحدة في اليوم!» قال الصوت الهادر.

«نعم، حسن، هذا يوم جديد، يا فخامة البنفسجي، وأنا سيدك الجديد»، قال عبدالله. «وهذه الأمنية سهلة، أتمنى أن تختفي سلاسلي».

«ليست بالأمر الذي يستحق تبديد أمنية عليه»، قال الجني مستخفًّا وتقلص سريعًا عائدًا إلى قمقمه. كاد عبدالله أن يعترض بقوله رغم تفاهة هذه الأمنية في عين الجني، فإن التخلص من السلاسل مهم في نظره، حين وجد أنه يستطيع الحركة بحرية دون جلجلة، فنظر إلى الأسفل ووجد سلاسله اختفت.

أعاد السدادة إلى القمقم بحذر ووقف. كان متخشبًا جدًا. وقبل أن يتحرك، فكر في الجِمال الرشيقة التي تحمل الجنود وتغذ السير نحو هذه الواحة، وفي ما سيحدث إذا استيقظ رجال العصابة النائمين ليجدوه واقفًا هناك من غير سلاسل. فانطلق، وعرج مثل شيخ كبير نحو مائدة الوليمة. هنالك، حريصًا على ألا يقلق اللصوص الكثيرين الذين ينامون ووجوههم مقلوبة على المفرش، جمع الطعام ولفه بمنديل. وأخذ زق خمر وربطه وقمقم الجني إلى نطاقه بمنديلين آخرين. ثم أخذ منديلًا أخيرًا غطى به رأسه لئلا تصيبه ضربة شمس -أخبره المسافرون بأنها خطر حقيقي في الصحراء- ثم انطلق، بأسرع ما أمكنه العرج، خارجًا من الواحة متجهًا صوب الشمال.

زال عنه تخشبه أثناء مشيه، وغدا المشي لطيفًا عندئذ وفي النصف الأول من الصباح، مشى عبدالله بعزم، مفكرًا في زهرة في الليل وهو يأكل الفطائر الطرية راشفًا من زق النبيذ وهو يمشي. غير أن النصف الثاني من النهار لم يكن جيدًا. فقد مالت الشمس في الأعلى، وغدت السماء بيضاء ساطعة ولمع كل شيء. وتمنى عبدالله لو أنه تخلص من النبيذ وملأ الزق من البركة الموحلة. فلم يروِ النبيذ ظمأه بل زاده سوءًا. بلل المنديل بالنبيذ ووضعه على مؤخرة عنقه، إذ ظل يجف بسرعة كبيرة. وعندما انتصف النهار ظن أنه يحتضر، فقد امتدت الصحراء أمام عينيه وأتعبه الوهج، وشعر أنه جمرة بشرية.

«يبدو أن القدر قد قضى بأن أعيش حلم يقظتي بكامله حقًا!»، زعق.

حتى تلك اللحظة ظن أنه تخيل هروبه من كابول عقبة الشرير بأدق تفاصيله، لكنه أيقن الآن أنه لم يتصور قط المشي في هذا الحر الوهاج، والعرق يسيل إلى عينيه. لم يتصور أن الرمل سيدخل كل شيء، حتى فمه، ولا أوحى له حلم يقظته بصعوبة الاهتداء بالشمس حين تكون الشمس فوق رأسه. ولم تهدِه بقعة الظل الضئيلة حول قدميه إلى أي اتجاه. وظل يعاود النظر إلى الوراء ليتحقق من استقامة خط آثار قدميه، وأقلقه هذا لأنه أضاع وقته.

في النهاية، سواء أكان سيضيع الوقت أم لا، فقد اضطر إلى التوقف للراحة، مقرفصًا في منحدر من الرمال حيث وجد رقعة صغيرة من الظل. ما زال يشعر أنه قطعة من اللحم موضوعة على مشواة الفحم العائدة لجمال. نقع المنديل بالنبيذ وبسطه على رأسه، وشاهده يقطر قطرات حمرات على أزهى ثيابه. لم يقنعه شيء بأنه لن يموت إلا النبوءة عند مولد زهرة في الليل. إذا قضى القدر بأن تتزوجه، فعليه إذن أن يعيش لأنه لم يتزوجها بعد. ثم فكر في نبوءة مولده التي كتبها والده. قد يكون لها أكثر من معنى. بل لعلها تحققت سلفًا، ألم يعلُ فوق الجميع في هذه البلاد وهو طائر على البساط السحري؟ أو لعلها تشير إلى الخازوق ذي الأربعة والأربعين قدمًا.

أجبرت هذه الفكرة عبدالله على النهوض واستئناف المسير.

كان وقت العصر أسوأ. كان عبدالله شابًا ولائق البدن، لكن حياة تاجر البُسُط لا تقتضي سيرًا طويلًا. فتوجع من رأسه إلى كعبيه،

ولم ينسَ أصابع قدميه التي تورمت. واحتكت إحدى فردتي حذائه بالموضع الذي كان فيه كيس النقود. وتعبت ساقاه كثيرًا وما كان بوسعه تحريكهما، لكنه عرف أن عليه أن يجعل الأفق يحول بينه وبين الواحة قبل أن يبدأ اللصوص في البحث عنه أو أن يصل جيش الجِمال الرشيقة. ولمَّا لم يكن يعرف كم يبعد الأفق، فقد غذَّ السير.

بحلول المساء، لم يحثه على الاستمرار إلا معرفته أنه سيرى زهرة في الليل غدًا. كانت هذه أمنيته التالية من الجني. عدا ذلك، فقد أقسم أن يُقلع عن شرب النبيذ وحلف إنه لن ينظر إلى حبة رمل.

عندما خيم الليل وقع في كثيب رملي ونام.

كانت أسنانه تصطك عند الفجر وأخذ يتساءل قلقًا عن قضمة الصقيع. كانت الصحراء باردة في الليل بقدر حرارتها في النهار. غير أن عبدالله أدرك أن متاعبه كادت تنتهي. فجلس على الجانب الدافئ من الكثيب الرملي، ناظرًا جهة الشرق في ضوء الفجر الذهبي المحمر، وأنعش نفسه بآخر ما بقي من الطعام وآخر رشفة من النبيذ الكريه. توقفت أسنانه عن الاصطكاك، رغم أنه أحس أن فمه هو فم كلب جمال.

نزع عبدالله، وهو يبتسم ترقبًا، السدادة عن قمقم الجني.

فانبعث خارجًا الدخان البنفسجي والتف نحو الأعلى متخذًا شكل الجني الفظ. «فيمَ تبسمك؟»، سأل الصوت الهادر.

«أمنيتي، يا جهشت الجن، يا ذا اللون الأبهى من لون زهرة

الثالوث»، أجاب عبدالله. «تعطرت أنفاسك بالبنفسج. أتمنى أن تأخذني إلى حيث عروسي زهرة في الليل».

«أوه، حقًّا؟» طوى الجني ذراعيه الدخانيتين والتف لينظر في كل اتجاه. ففتن عبدالله إذ رأى جزأه الملتصق بالقمقم يتخذ شكلًا لولبيًا أنيقًا. «وأين هذه الشابة؟» سأل الجني حانقًا حين واجه عبدالله ثانية. «لا أستطيع معرفة مكانها».

«حملها عفريت من الجن من حديقتها الليلية في قصر السلطان في زنزيب»، أوضح عبدالله.

«هذا يفسر الأمر»، قال الجني. «لا أستطيع تحقيق أمنيتك. فهي ليست في مكان على الأرض».

«لا بد أنها في مملكة الجن إذن»، قال عبدالله قلقًا. «لا بد أنك، أيها الأمير البنفسجي بين الجن تعرف تلك المملكة كما تعرف راحة يدك».

«هذا يبين جهلك»، قال الجني. «فالجني المحبوس في قمقم يحرم عليه دخول أي مملكة للجن. وإن كانت فتاتك هناك، فلن أستطيع أخذك. أنصحك أن تعيد السدادة إلى قمقي وتمضي في طريقك. ففي الطريق جيش كبير من الجمال قادم من الجنوب».

قفز عبدالله إلى قمة الكثيب. وطبعًا، كان خط من الجمال السريعة المخيفة يسرع نحوه بخطوات رشيقة واثقة. رغم أنها لاحت من بعيد في هيئة ظلال بلون النيلة، لكنه عرف من أشكال راكبيها أنهم مدججون بالسلاح.

«أرأيت؟» قال الجني منتفخًا ليكون بطول عبدالله. «قد لا يعثرون عليك، لكني لست أكيدًا»، لا شك أن هذا أسعده.

«يجب أن تحقق لي أمنية ثانية، بسرعة»، قال عبدالله.

«أوه، كلا»، قال الجني. «أمنية واحدة في اليوم، وقد تمنيتها قبلًا».

«صحيح أني فعلت، يا أروع دخان ليلكي»، وافقه عبدالله بسرعة اليأس. «لكنك لم تتمكن من تحقيقها. والشرط مثلما سمعتك بوضوح لمّا قلتها أول مرة، أنك مجبر على تحقيق أمنية لسيدك في اليوم. وأنت لم تفعل هذا بعد».

«لتحفظني السماء!»، قال الجني بامتعاض. «هذا الشاب محامي قهاوٍ».

«إنني كذلك بطبعي»، قال عبدالله بحماس. «أنا مواطن في زنزيب، حيث يتعلم الطفل أن يحمي حقوقه، فما من أحد آخر سيحميها من غير ريب. وأعلم أنك لم تحقق أمنيتي اليوم».

«اعتراض»، قال الجني هو يتمايل بأناقة مقابله مصالبًا ذراعيه. «لقد طلبت أمنية».

«لكنها لم تتحقق»، قال عبدالله.

«ليس ذنبي أنك اخترت أن تطلب أشياء مستحيلة»، قال الجني. «يمكنني أخذك إلى ملايين الفتيات الجميلات. بل يمكنك أن تحصل على حورية إن كنت تهوى الشعر الأخضر. أو لعلك لا تجيد السباحة؟».

اقترب خط الجمال المسرعة أكثر، فاستعجله عبدالله «فكر يا لؤلؤة السحر القرمزية، ورقق قلبك. سيأخذ الجنود الذين يقتربون منا قمقمك لدى وصولهم. وإن أعادوك إلى السلطان، فسيجبرك على فعل أشياء هائلة كل يوم، فتجلب له الجيوش والعتاد وتهزم له أعداءه، وهذا منهك جدًّا. وإن احتفظوا بك لأنفسهم –وقد يفعلون فليس كل الجنود نزيهين– ستتناقلك الأيدي وتُجبَر على تحقيق أماني كل يوم، أمنية لكل واحد من الكتيبة. في كلتا الحالتين ستعمل بجد أكبر من عملك معي أنا، وأنا أريد شيئًا صغيرًا».

«يا لك من بليغ!»، قال الجني. «رغم أنك محق. ولكن أفكرت، بالمقابل، بالفرص التي سيمنحها لي السلطان أو جنوده لأعيث في الأرض فسادًا؟».

«فسادًا؟»، سأل عبدالله وعيناه تنظران قلقتين إلى الجمال المسرعة.

«لم أقل يومًا إن أمنياتي يفترض بها أن تنفع أحدًا»، قال الجني. «بل أقسم إنها ستسبب الأذى دومًا قدر المستطاع. هؤلاء اللصوص مثلًا كلهم في طريقهم إلى السجن أو أسوأ لسرقتهم مأدبة السلطان. لقد عثر عليهم الجنود في وقت متأخر ليلة البارحة».

«إنك ستؤذيني أكثر لأنك لم تحقق لي أمنية!»، قال عبدالله. «وبعكس اللصوص، فلست أستحق ذلك».

«اعتبر نفسك تعس الحظ»، قال الجني. «هذا سيجعلنا اثنين. لا أستحق أن أحبس في هذا القمقم أيضًا».

كان الركبان قريبين بما يكفي لرؤية عبدالله. وسمع صراخًا من بعيد ورأى سلاحًا يشهر. «حقق لي أمنية غد إذن»، قال ملحًّا.

«قد يكون هذا هو الحل»، وافق الجني مثيرًا دهشة عبدالله. «ما أمنيتك؟».

«خذني إلى أقرب شخص يساعدني للعثور على زهرة في الليل»، قال عبدالله وقفز من الكثيب وحمل القمقم. «بسرعة»، أردف قائلًا للجني الذي يتموج فوقه.

انتابت الحيرة الجني قليلًا. «هذا غريب»، قال. «قواي في الكهانة فائقة عادة، لكني لا أستطيع معرفة الرأس من الذيل في هذا».

خفرت رصاصة ثلمًا في الرمل ليس ببعيد. وركض عبدالله حاملًا الجني مثل لهب شمعة عريض بنفسجي يتصاعد منه الدخان. «خذني إلى ذلك الشخص فقط!»، صاح به.

«أحسب أنه يجدر بي ذلك»، قال الجني. «لعلك تستطيع فهم الأمر».

دارت الأرض تحت قدمي عبدالله. وفي وقت قصير، بدا كأنه يخطو خطوات قافزة واسعة حول الأراضي التي تلتف إلى الأمام تلقائه. ورغم أن اجتماع سرعة قدميه والعالم الملتف قد جعل كل شيء غبشًا، عدا الجني الذي يتصاعد دخانًا هادئًا من القمقم في يد عبدالله، فإنه عرف أن الجمال المسرعة غدت بعيدة في لحظات. ابتسم

وقفز، هادئًا بقدر هدوء الجني، مبتهجًا في الريح الباردة. وبدا كأنه قفز وقتًا طويلًا، ثم توقف كل شيء.

وقف عبدالله وسط طريق ريفي يلتقط أنفاسه. واستغرق هذا المكان منه وقتًا طويلًا حتى يعتاده فقد كان باردًا، دافئًا بقدر زنزيب وقت الربيع، والضوء مختلف. ورغم سطوع الشمس القوي في السماء الزرقاء، فقد أرسلت ضوءًا أكثر انخفاضًا وزرقة مما اعتاده عبدالله. وربما كان ذلك بسبب الأشجار الكثيرة التي تحف الطريق وتلقي بظلال خضراء متغيرة على كل شيء. أو لعل ذلك عائد إلى الخضرة، خضرة العشب النامي على الأطراف. ترك عبدالله عينيه تتكيفان ثم نقل نظره من حوله بحثًا عن الشخص الذي يفترض أنه سيساعده في العثور على زهرة في الليل.

وكل ما رآه مكان يشبه النزل في انعطافة الطريق، بعيدًا بين الأشجار. فوجئ عبدالله لأنه مكان خرب، مبني من خشب وجص مطلي بالأبيض، يشبه أفقر المساكن الفقيرة في زنزيب، كأن أصحابه ليس لهم من المال إلا ما يكفي سقفًا من العشب المرصوص بإحكام. حاول أحدهم أن يزين المكان بزراعة زهور حمراء وصفراء قرب الطريق. أما لافتة النزل التي تتأرجح على عمود نصب بين الزهور، فقد كان محاولة رديئة من فنان لرسم أسد.

نظر عبدالله إلى قمقم الجني، عازمًا على إعادة السدادة إليه بعد أن وصل. واستاء لأنه أوقع السدادة فيما يبدو، إما في الصحراء وإما أثناء رحلته. فقال في نفسه آه يا سلام. وقرب القمقم من

وجهه. «أين هو الشخص الذي سيساعدني في العثور على زهرة في الليل؟».

انبعثت من القمقم نفثة دخان أكثر زرقة من ضوء هذه البلاد الغريبة. «نائم على مقعد أمام الأسد الأحمر»، قالت النفثة حانقة، وقفلت عائدة إلى القمقم.

جاء صوت الجني الأجش من الداخل. «إنه يعجبني. ويشع منه الخداع».

الفصل التاسع
وفيه عبدالله يصادف جنديًا هرمًا

مشى عبدالله صوب النُّزل. عندما اقترب رأى حقًا رجلًا يغفو على واحد من المقاعد الخشبية الموضوعة خارج النزل. كما رأى طاولات أيضًا، وهذا يعني أن المكان يقدم الطعام أيضًا. جلس عبدالله على واحد من المقاعد خلف طاولة ونظر مرتابًا عبرها إلى الرجل النائم.

كان له هيئة الشرير بمعنى الكلمة. لم يرَ عبدالله في زنزيب، أو بين اللصوص، خطوطًا للاحتيال مثلما رأى على وجه هذا الرجل المسمرّ. وجعلت رزمة كبيرة موضوعة على الأرض قربه عبدالله يظنه في البدء صفاحًا، غير أنه حليق الذقن. لم يرَ عبدالله من الرجال من هو بلا لحية أو شارب إلا من كان من مرتزقة السلطان الشماليين. ولعل هذا الرجل مرتزق أيضًا، إذ بدت ثيابه بقايا بالية من زي ما، يسرح شعره في جديلة واحدة تتدلى على ظهره مثلما كان رجال السلطان. كان هذا طرازًا أثار قرف رجال زنزيب، إذ قيل إن هذه الجدائل لا تفك ولا تغسل أبدًا. صدق عبدالله ذلك وهو ينظر إلى

جديلة الرجل المتدلية من فوق ظهر المقعد حيث نام. لم تكن الجديلة، ولا أي شيء آخر في الرجل نظيف. غير أنه بدا قويًا ومعافى، رغم أنه ليس بالشاب. وكان شعره تحت قذارته رماديًا بلون الحديد.

تردد عبدالله في إيقاظ الرجل، إذ لم يره أهلًا للثقة. كما أن الجني قالها صراحة إنه يحقق أمنيات تسبب الأذى. فكر عبدالله؛ هذا الرجل قد يأخذني إلى زهرة في الليل، لكنه سيسلبني مالي في الطريق.

وفي تردده، جاءت امرأة تضع مئزرًا إلى باب النزل، ربما لترى إن كان في الخارج زبائن. منحتها ثيابها مظهر الساعة الرملية المكتنزة ووجده عبدالله أمرًا أجنبيًا وكريهًا. «أوه!»، قالت لدى رؤيتها عبدالله. «أتنتظر أن يقدم إليك الطعام يا سيدي؟ كان عليك أن تضرب على الطاولة. هذا ما يفعله الجميع هنا. ماذا ستأكل؟».

تكلمت باللهجة الهمجية التي يتكلم بها مرتزقة الشمال. فعرف عبدالله منها أنه في البلاد التي جاء منها هؤلاء الرجال أيًا كانت. فابتسم لها «وماذا تقدمون يا جوهرة استراحة الطريق؟»، سألها.

لا شك أن أحدًا لم يدعُ المرأة بالجوهرة من قبل، فتورد وجهها وتكلفت الابتسام ولفت مئزرها. «عندنا خبز وجبن الآن»، قالت. «لكننا نعد الغداء. إن شئت الانتظار نصف ساعة يا سيدي، فستأكل فطيرة لحم شهية بالخضار من المقطوفة من حديقة مطبخنا».

وجد عبدالله هذا رائعًا، أفضل بكثير مما توقعه من أي نزل له

سقف من العشب. «سأنتظر نصف الساعة بكل سرور إذن، يا زهرة بين المضيفات».

فتبسمت له ابتسامة أخرى «ولعلك تريد شرابًا أثناء انتظارك يا سيدي؟».

«من غير ريب»، قال عبدالله الذي ما زال عطشًا من الصحراء. «هل لي أن أتعبك بإحضار كأسًا من الشراب المثلج، أوعصير أية فاكهة؟».

بدا عليها القلق. «أوه يا سيدي، أنا.. نحن لا نقدم عصير الفاكهة ولم أسمع قط بالشراب الآخر. ما رأيك في كوب بارد من الجعة؟».

«وما الجعة؟»، سأل عبدالله بحذر. فحير هذا المرأة «أنا... حسن، إنها...».

اعتدل الرجل على المقعد الآخر وتثاءب. «الجعة هي الشراب الوحيد اللائق بالرجل»، قال. «شراب رائع».

التفت عبدالله لينظر إليه، فوجد أنه ينظر إلى عينين زرقاوين مدورتين صافيتين، واضحتين بقدر طول النهار، وما كان في الوجه الأسمر أثر للخداع وقد استيقظ.

«يُخمّر من الشعير وحشيشة الدينار»، أضاف الرجل. «ما دمتِ هنا أيتها المالكة، أئتيني بنصف لتر منها».

تغيرت سيماء المالكة تمامًا. «لقد أخبرتك قبلًا»، قالت، «أنني أود رؤية لون نقودك قبل أن أقدم إليك أي شيء».

لم يستأ الرجل، بل التقت عيناه الزرقاوان بعيني عبدالله حزينتين. ثم تنهد ورفع عن المقعد بجانبه غليونًا طويلًا من الصلصال الأبيض، وأخذ يملؤه ويشعله.

«أتشرب الجعة إذن يا سيدي؟»، قالت صاحبة النزل، عائدة إلى تبسمها لعبدالله.

«إن سمحتِ يا سيدة الضيافة الفاخرة»، قال. «اجلبي لي شيئًا منه، وهاتي لهذا الرجل المحترم بقدر مناسب».

«كما تشاء يا سيدي»، قالت ونظرت إلى الرجل ذي الجديلة بامتعاض شديد، وعادت إلى الداخل.

«أرى هذا كرمًا كبيرًا منك»، قال الرجل لعبدالله. «جئت من بعيد، أليس كذلك؟».

«طريق طويل من الجنوب، سائح متعبد»، أجاب عبدالله حذرًا. فلم ينسَ كم بدا الرجل في نومه مخادعًا.

«من بلاد بعيدة، إيه؟ عرفت ذلك، وقد حرقتك الشمس هكذا»، لاحظ الرجل.

كان عبدالله أكيدًا أن الرجل يتصيد المعلومات، ليرى إن كان يستحق السرقة. ففوجئ عندما كف الرجل عن طرح الأسئلة.

«لست من هذه البلاد أيضًا، كما ترى»، قال الرجل نافثًا غيومًا كبيرة من الدخان من غليونه البدائي. «أنا من سترانغيا. جندي عجوز، سُرحت من عملي ومنحت مكافأة بعدما هزمتنا

إنغري في الحرب. وكما ترى، فما زال هنا في إنغري بغض للزي الذي ألبسه».

قال هذا في وجه صاحبة النزل التي جاءت تحمل كأسين من سائل يميل إلى البني تعلوه رغوة. لم تكلمه، بل خبطت الكأس أمامه قبل أن تضع الأخرى بعناية وتهذيب أمام عبدالله. «الغداء بعد نصف ساعة يا سيدي»، قالت وانصرفت.

«نخبك»، قال الجندي رافعًا كأسه. وعبّ شرابه.

كان عبدالله ممتنًا لهذا الجندي الهرم، فبفضله عرف أنه الآن في بلاد تدعى إنغري، فقال «نخبك»، وهو يرفع كأسه بارتياب. بدا له أن الشراب فيها خرج من مثانة جمل، ولما تشممه لم تغير الرائحة رأيه. وما كان شيء ليجعله يجربه لولا ظمؤه الشديد، فشرب شربة حذرة. حسن، إنه رطب.

«رائعة، أليس كذلك؟»، قال الجندي الهرم.

«إنه مثير جدًا، يا نقيب المحاربين»، قال عبدالله محاولًا ألا يرتجف.

«غريب أن تسميني بالنقيب»، قال الرجل. «لم أكن قطعًا. لم أصبح يومًا أكثر من عريف. شهدت الكثير من المعارك، وكان أملي أن أنال ترقية، لكن العدو باغتنا قبل أن تسنح لي الفرصة. كانت معركة رهيبة. كنا لم نزل نسير، ولم يتوقع أحد وصول العدو بهذه السرعة. أعني أن الأمر انتهى، ولا جدوى من البكاء على الأطلال، لكني أقولها لك صراحة إن أهل إنغري لم يقاتلوا قتالًا عادلًا، كان

عندهم بعض السحرة الذين يضمنون لهم النصر. أعني ما يسع جندي عادي مثلي أن يفعل مقابل السحر؟ لا شيء، أتود مني أن أعرض عليك خطة سير المعركة؟».

أدرك عبدالله أين يكمن لؤم الجني. هذا الرجل الذي يفترض أن يساعده ممل كبير. «لا أعرف شيئًا عن الأمور العسكرية، يا أبسل المخططين»، قال بحزم.

«لا يهم»، قال الجندي مبتهجًا. «خذ الكلام مني، لقد دُحرنا تمامًا. فهربنا. لقد هزمنا أهلُ إنغري، اجتاحوا البلاد كلها. والأسرة الملكية، رعاها الله، كان عليها الهرب أيضًا، لذا سلموا الحكم لأخي ملك إنغري. دار بعض الحديث لجعل وجود هذا الأمير شرعيًّا بتزويجه أميرتنا بياتريس، لكنها هربت مع بقية أسرتها -طال عمرها!- ولم يعثر لها على أثر. لم يكن الأمير الجديد بالسيئ تمامًا، فقد منح كل أفراد الجيش السترانغي مكافأة قبل أن يسرحهم. أتود أن تعرف ما أفعله بمالي؟».

«إن أردت إخباري، يا أشجع المحاربين»، قال عبدالله يكتم تثاؤبه.

«أكتشف إنغري»، قال الجندي. «فكرت في التجول في البلاد التي هزمتنا، وأعرف طبيعتها قبل استقراري. إن مكافأتي مبلغ جيد، يمكنني أن أدفع مصاريف رحلتي ما دمت حريصًا».

«تهانيَّ»، قال عبدالله.

«دفعوا نصفه ذهبًا»، قال الجندي.

«حقًّا»، قال عبدالله.

شعر عبدالله بارتياح كبير حين رأى وصول زبائن قليلين من أهل البلد، كانوا على الأرجح فلاحين، يلبسون سراويل ركبية وسخة وجلابيب غريبة ذكَّرت عبدالله بمنامته، إضافة إلى أحذية ثقيلة ضخمة. كانوا مرحين جدًّا، يتحدثون بأصوات عالية عن محصول التبن -الذي قالوا إنه جيد- ويخبطون الطاولات طلبًا للجعة. انشغلت صاحبة النزل، وصاحب النزل الضئيل البراق أيضًا، بالدخول والخروج حاملين صينيات من الكؤوس، فمنذئذ استمر توافد الناس أكثر فأكثر.

ولم يدرِ عبدالله أيشعر بارتياح أكبر أم باستياء أم بمرح، إذ ظل الجندي يفقد اهتمامه بعبدالله وأخذ يتكلم بجد مع القادمين الجدد، ولا يبدو أنهم وجدوه مملًّا. ولا أقلقهم أنه جندي من العدو، بل جلب له واحد مزيدًا من الجعة. وكلما قدم أناس أكثر، ازدادت شعبيته. واصطفت كؤوس الجعة بجانبه، ثم طلب له الغداء، ومن الجمع الذي أحاط بالجندي، ظل عبدالله يسمع أشياء من قبيل «معركة رائعة... لقد انتصروا بفضل سحرتكم، اسمعوا... خيالتنا... سحقوا ميسرتنا... هزمونا على التلال... ومشاتنا اضطروا إلى الهرب ... ظلوا يركضون كالأرانب...ليس سيئًا... وجمعونا ودفعوا إلينا مكافآت...».

جاءت صاحبة النزل أثناء ذلك إلى عبدالله تحمل صينية يتصاعد

منها البخار ومزيدًا من الجعة لم يطلبها. كان لم يزل ظمآن جدًّا ففرح بالجعة. وأدهشه الغداء بأنه شهي بقدر مأدبة السلطان. لوهلة كان مشغولًا جدًّا بغدائه ولم يتابع حديث الجندي. ولمَّا رفع نظره وجد الجندي يميل إلى صحنه الفارغ، وعيناه الزرقاوان تلمعان بحماس جاد، وهو يحرك الكؤوس والصحون على الطاولة ليعرض على مستمعيه موقع كل شيء في معركة سترانغيا.

ولمَّا لم تكفِ الكؤوس استخدم الملاعق والشوك. وقد استخدم سلفًا الملَّاحة ورشاشة الفلفل لتكونا ملك إنغري وأخاه، أو لساحريها. لكن الجندي لم يسمح لها بإقلاقه، إذ فتح هميانه المربوط بحزامه وأخرج قطعتين ذهبيتين وعدة قطع فضية، رنت على الطاولة لتكون ملك إنغري، وساحريه وضباطه.

ما رأى عبدالله في هذا إلا سخافة بالغة منه. فقد أثار القطع الذهبية شيئًا من اللغط. إذ أدار أربعة من الشبان الغلاظ مقاعدهم ناحيته وبدا عليهم الاهتمام الشديد. لكن الجندي كان مستغرقًا في شرح المعركة غافلًا عن ذلك.

أخيرًا، نهض جل من كانوا حول الجندي ليعودوا إلى أعمالهم، فنهض الجندي معهم وألقى برزمته على كتفه، ووضع على رأسه قبعة جندي قذرة كانت محشورة في الجزء الأعلى من رزمته، وسأل عن الطريق المؤدي إلى أقرب بلدة. وحين أخذ الجميع يشرحون الاتجاهات للجندي بأصوات عالية، حاول عبدالله العثور على صاحبة النزل ليدفع فاتورته. كانت بطيئة قليلًا في القدوم. وحين

جاءت، كان الجندي قد اختفى عن الأنظار في منعطف الطريق. لم يأسف عبدالله، فأيًا كان شكل المساعدة التي ظن الجني أن هذا الجندي سيقدمها، شعر عبدالله أن بوسعه المضي دونها. كان سعيدًا أنه والقدر اتفقا مرة.

لم يكن عبدالله أحمق كالجندي، فسدد فاتورته بقطع فضية صغيرة. وبدا هذا مالًا كثيرًا في هذه الأنحاء. أخذتها صاحبة النزل داخلًا لتجلب الباقي، وأثناء انتظار عبدالله عودتها، تناهى إلى سمعه حديث الشبان الغلاظ الأربعة. كانوا في خضم نقاش سريع ومهم.

«إن أسرعنا بالذهاب إلى مجرى الخيل القديم»، قال أحدهم، «فسنلحق به في الغابة أعلى التلة».

«نختبئ بين الأشجار»، وافقه الثاني، «على جانبي الطريق، فنخرج عليه من الجانبين».

«نقسم المال بيننا أربع حصص»، أصر الثالث. «إن عنده ذهبًا أكثر مما أخرج، هذا أكيد».

«لا بد أن نحرص على أن يموت أولًا»، قال الرابع. «لا نريده أن يقص علينا حكايات».

و«تمام!»، و«تمام!»، و«تمام إذن»، وافق الثلاثة الآخرون، ونهضوا وغادروا حين جاءت صاحبة النزل مسرعة إلى عبدالله تحمل حفنتين من قطع النقود النحاسية.

«أرجو أن هذا هو الحساب الصحيح يا سيدي. نحن لا نرى

كثيرًا من فضة الجنوب هنا واضطررت إلى أن أسأل زوجي كم قيمتها. قال إنها تساوي مئة من قطعنا النحاسية، وأنت تدين لنا بخمس، فـ...».

«بوركت، يا صفوة الطاهيات وساقيات الجعة الفاخرة»، قال عبدالله على عجل، وأعاد إليها حفنة من القطع بدلًا من الحديث اللطيف الطويل الذي أرادت قطعًا أن تبدأه معه. تركها تحملق، وانطلق خلف الجندي بأقصى سرعته. قد يكون الرجل طفيليًّا فظيعًا ومضجرًا جدًّا، لكن هذا لا يعني أنه يستحق أن يُترصد له ويُقتل من أجل ذهبه.

الفصل العاشر

وفيه عنف وسفك دماء

رأى عبدالله أنه لن يكون سريعًا جدًّا، فقد خدر في الطقس الأبرد لإنغري خدرًا مقيتًا أثناء جلوسه ساكنًا وآلمته ساقاه من المشي طوال اليوم السابق. وقد تركت حافظة النقود في فردة حذائه اليسرى جسؤة مؤلمة على قدمه. وأخذ يعرج وهو لم يكد يمشي مئة ياردة، غير أنه خاف على الجندي فمشى بأسرع ما استطاع. وعرج مارًّا بعدد من الأكواخ ذات السطوح المصنوعة من العشب، ثم خارج القرية حيث كان الطريق أكثر اتساعًا. هنالك رأى الجندي يتقدمه من بعيد، يتهادى نحو نقطة يصعد فيها الطريق إلى تلة تكسوها الأشجار المورقة الكثيفة التي تنمو في هذه الأنحاء. وذلك هو المكان الذي نصب فيه الشبان الغلاظ كمينهم. حاول عبدالله أن يعرج أسرع.

تصاعدت ذؤابة زرقاء نزقة من القمقم المرتد على خصره. «أيجب أن ترجني هكذا؟»، قالت.

«أجل»، قال عبدالله لاهثًا. «فالرجل الذي اخترته لمساعدتي يحتاج من يساعده».

«هه!»، قال الجني. «أفهمك الآن. لا شيء سيجعلك تكف عن النظر إلى الحياة نظرة حالمة. ستكون بحاجة إلى درع لامعة في أمنيتك القادمة».

كان الجندي يتهادى ببطء شديد. تجاوز عبدالله المسافة بينهما ودخل الغابة غير بعيد عنه. لكن الدرب هنا انعطف وتلوى بين الأشجار ليكون الارتقاء سهلًا، فغاب الجندي عن نظر عبدالله منذئذ، حتى عرج منعطفًا زاوية أخيرة ورآه يتقدمه ببضع ياردات. اتضح أن هذه هي اللحظة التي اختار فيها الغلاظ شن هجومهم.

وثب اثنان منهم من أحد جانبي الطريق على ظهر الجندي، وقفز الآخران من الجانب الآخر ودفعاه من الأمام. مرت لحظة أو ما يقاربها من العراك والضرب المخيفين. وهبّ عبدالله للمساعدة، رغم أنه هب بشيء من التردد، لأنه لم يؤذِ أحدًا في حياته.

وأثناء اقترابه وقعت مجموعة من المعجزات. طار الشابان اللذان اعتليا ظهر الجندي في اتجاهين مختلفين، كل إلى جانب من جانبي الطريق، حيث صدم أحدهم رأسه بشجرة ولم يضايق أحدًا بعدها، أما الآخر فسقط متمددًا. أما الاثنان المقابلان للجندي، فقد تلقى أحدهما في الحال إصابة بليغة، فانثنى يتأملها. والآخر ارتفع في الهواء للحظة قصيرة والتف على غصن شجرة، وهذا ما أدهش عبدالله دهشة عظيمة.

عندئذ، اعتدل الرجل المنحني وتقدم نحو الجندي حاملًا سكينًا طويلة رفيعة. أمسك الجندي بمعصم اليد التي تحمل السكين،

ودام النخير في المأزق لحظة آمن عبدالله كل الإيمان بأنه سينتهي قريبًا لصالح الجندي. كان يفكر في أن قلقه على الجندي لم يكن له داعٍ ألبتة، حين نهض فجأة الرجل الممدد في الطريق خلف الجندي وانقض على ظهر الجندي حاملًا سكينًا رفيعة طويلة أخرى.

ففعل عبدالله بسرعة ما يلزم، إذ تقدم وضرب الشاب بقمقم الجني. «آوتش!»، صاح الجني، ووقع الشاب مثل شجرة صنوبر ساقطة.

لدى سماع الصوت ترك الجندي ربط عقدة حول الشاب الآخر. فتراجع عبدالله بسرعة، إذ لم تعجبه السرعة التي استدار بها الجندي، ولا الطريقة التي مد بها يديه، وأصابعه متشابكة بإحكام، مثل سلاحين ثلمين لكنهما قاتلان.

«سمعتهم يأتمرون لقتلك، أيها المحارب الأشوس»، قال موضحًا بسرعة، «وأسرعت لأحذرك أو أساعدك».

فوجد عيني الجندي ثابتتين على عينيه، شديدتي الزرقة لكنهما لم تعودا بريئتين. بل إنهما عينان داهيتان حتى في بازار زنزيب. ولحسن الحظ فإنهما بدتا مسرورتين بما رأتا. قال الجندي عندئذ «شكرًا لك»، واستدار ليركل رأس الشاب الذي كان يربطه. فكف عن الحركة، مكملًا المجموعة.

«ربما»، أشار عبدالله، «علينا إبلاغ العسس عن هذا».

«لأي شيء؟»، سأل الجندي. انحنى، ودهش عبدالله قليلًا،

وأخذ ينقب تنقيبًا سريعًا خبيرًا في جيوب الشاب الذي ركل رأسه فورًا. كانت ثمرة التنقيب حفنة كبيرة جدًّا من القطع النحاسية، دسها الجندي في هميانه باديًا عليه الرضا. «سكين عفنة»، قال، قاصمًا إياها إلى نصفين. «ما دمت هنا، ماذا لو فتشت جيوب الذي ضربته، وأفتش الباقين؟ يبدو من ضربته كمن يحمل قطعًا فضية أو ما شابه».

«أتعني»، قال عبدالله متشككًا، «أن العرف في هذه البلاد يتيح لنا سرقة اللصوص؟».

«ليس عرفًا سمعت به»، قال الجندي هادئًا، «لكنه ما أود فعله. لمَ تحسب أني حرصت على عرض قطعي الذهبية في النزل؟ يوجد دومًا رجل سيئ أو أكثر ممن يظنني جنديًّا غبيًّا يجب سلبه. كلهم يحملون النقود».

فقطع الطريق وأخذ يفتش جيوب الشاب الذي وقع عن الشجرة. بعد لحظة من التردد، انحنى عبدالله لأداء المهمة البغيضة في تنقيب جيوب الذي ضربه بالقمقم. ووجد نفسه يراجع رأيه في الجندي. بصرف النظر عن أي شيء آخر، فإن الرجل الذي يستطيع هزيمة أربعة مهاجمين بثقة دفعة واحدة رجل أن يكون صديقًا خير من أن يكون عدوًّا. وكان في جيوب الشاب المغشي عليه ثلاث قطع فضية، كما كان فيها سكين. وحاول عبدالله كسرها على الطريق مثلما فعل الجندي بالسكين الأخرى.

«آه، كلا»، قال الجندي. «هذه سكين جيدة. لا تكسرها».

«الحق أني ليس لي خبرة في هذا»، قال عبدالله مادًّا السكين إلى الجندي. «أنا رجل مسالم».

«لن تتمكن من العيش في إنغري»، قال الجندي. «احتفظ بها، واستخدمها لقطع اللحم إن كنت تفضل. عندي في رزمتي ست سكاكين خير من هذه، وكلها من لصوص مختلفين. احتفظ بالقطع الفضية أيضًا، رغم أني أرَ أنك لم تكترث حين أخبرتك بأمر الذهب، وإني لأظنك ميسور الحال، أليس كذلك؟».

إنه لرجل ألمعي ولماح حقًّا، قال عبدالله، وهو يدس القطع النقدية في جيبه. «لست ميسور الحال كثيرًا لئلا أقبل المزيد»، قال عبدالله بحصافة. ثم، وقد أحس أنه يتقمص الدور حقًّا، فك رباط حذاء الشاب واستخدمه ليربط قمقم الجني بإحكام إلى نطاقه، فتململ الشاب وتأوه عندئذ.

«إنه يستيقظ. يجدر بنا الانطلاق»، قال الجندي. «سيعكسون الآية عندما يستيقظون ويقولون إننا هاجمناهم عندما. وما دامت هذه قريتهم وكلانا غريب، فسيصدقونهم. سأمضي سائرًا عبر التلال. وإن أردت نصحي، فافعل مثلي».

«سأفعل أيها المحارب المحترم، وسيكون لي الشرف إن رافقتك»، قال عبدالله.

«لست أمانع»، قال الجندي. «سيكون هذا تغييرًا أن يكون معي رفيق لا أحتاج للكذب عليه». حمل رزمته وقبعته -اللتين كان

عنده وقت ليرتب كليهما خلف شجرة قبل بدء العراك- وتقدم عبر الغابات.

ارتقيا بلا توقف بين الأشجار لبعض الوقت. وشعر عبدالله بالأسى لانعدام لياقته أمام الجندي، الذي مشى خفيفًا رشيقًا كأنما يمشي على درب منبسط. وعرج عبدالله خلفه، وآلمته قدمه اليسرى.

توقف الجندي أخيرًا وانتظره على وهدة مرتفعة. «أيوجعك هذا الحذاء الأنيق؟»، سأل. «اجلس على تلك الصخرة واخلعه»، وأنزل رزمته وهو يتكلم. «لدي حقيبة إسعافات أولية غير عادية هنا»، قال. «وجدتها في أرض المعركة كما أذكر. وجدتها في مكان ما من سترانغيا على أية حال».

جلس عبدالله وخلع حذاءه بمشقة، وسرعان ما تبددت الراحة بخلعه لدى نظره إلى قدمه. كانت متسلخة. نخر الجندي ولفها بضماد أبيض، ولم يحتج إلى شيء يربط به. عوى عبدالله، ثم سرت في قدمه برودة مريحة من الضماد. «أهذا سحر؟»، سأل.

«ربما»، قال الجندي. «أظن أن ساحري إنغري أعطوا هذه العلب للجيش بكامله. البس حذاءك، سيمكنك المشي الآن. علينا الابتعاد قبل أن يبدأ هؤلاء الأولاد بالبحث عنا على ظهور الخيول».

مشى عبدالله حذرًا في حذائه. لا بد أن الضماد سحري، فقد كانت قدمه سليمة كالقدم الجديدة. وتمكن من مجاراة الجندي في مشيه، وكان ذلك جيدًا، إذ سار الجندي إلى الأمام وصعودًا حتى

شعر عبدالله أنهما ابتعدا بقدر ما مشى في الصحراء البارحة. بين الحين والآخر، لم يستطع عبدالله منع نفسه من النظر خلفه قلقًا خشية أن تكون الخيول في إثرهما. وقال لنفسه إن هذا تغيير عن الجمال، رغم أن الأفضل ألا يكون ملاحَقًا من أحد. ولدى تفكير عبدالله في الأمر، رأى أن أقارب زوجة أبيه الأولى يلاحقونه في البازار منذ موت أبيه، واستاء من نفسه لأنه لم يدرك ذلك قبلًا.

في تلك الأثناء، صعدا عاليًا وأخذت الأشجار تفسح الطريق للشجيرات رفيعة الأغصان بين الصخور. ولمَّا أخذ المساء يهبط، كانا يمشيان بارتياح بين الصخور، في مكان قريب من قمة سلسلة جبلية، حيث لا تنمو إلا أحراش صغيرة قوية الرائحة، تتشبث بالصدوع. كانت هذه صحراء من نوع آخر، خطر لعبدالله، والجندي يتقدمه على طول وادٍ طويل ضيق بين الصخور العالية. لم يكن مكانًا يمكن للمرء فيه أن يجد عشاء.

توقف الجندي في موضع من الوادي وأنزل رزمته. «اعتنِ بهذه للحظة»، قال. «أعلى الجرف من هذا الجانب كهف. سأصعد وأرى إن كان يصلح لقضاء الليلة».

كان في الصخور فتحة مظلمة فوق رأسيهما، حين رفع عبدالله نظره قلقًا. لم يتصور النوم فيها، فقد بدت له باردة وقاسية. غير أنها على الأغلب أفضل من الاستلقاء بين الصخور، خطر له، وهو يراقب بائسًا الجندي يتأرجح بغير جهد أعلى الجرف ويدخل الفتحة.

سمع صوتًا يشبه صوت العجلة الرافعة المعدنية المجنونة.

رأى عبدالله الجندي يتراجع من الكهف واضعًا إحدى يديه على وجهه وسقط إلى الخلف من فوق الجرف. لكنه أنقذ نفسه بصورة ما، وجاء يزحف لاعنًا الصخور في عاصفة من كسر الحجارة.

«في الداخل حيوان مفترس!»، قال لاهثًا. «لنمضِ في طريقنا». كان ينزف بشدة من ثمانية خموش طويلة، تبدأ أربعة منها من جبينه مرورًا برأسه ثم تنزل إلى خده وذقنه. أما الأربعة الأخرى فقد مزقت كمه وخدشت ذراعه من المعصم إلى المرفق. ويبدا كأنما وضع يده على وجهه في الوقت المناسب لئلا يفقد عينه. كان يرتجف بشدة فالتقط عبدالله قبعته ورزمته وأخذه لنزول الوادي، وفعل ذلك بشيء من العجلة. فأي حيوان غلب هذا الجندي كان حيوانًا لا يود عبدالله لقاءه.

انتهى الوادي بعد مئة ياردة، وأفضى إلى مكان رائع للتخييم. كانا الآن على الجانب الآخر من الجبال يطلان إطلالة واسعة على الأرض خلفها، ذهبية وخضراء وضبابية تحت الشمس الغاربة. انقطع الوادي في أرض واسعة من الصخور ترتفع برفق إلى ما كان شبيهًا بكهف آخر، حيث تدلت الصخور فوق الأرض المائلة. أما الأفضل، فقد كان الجدول المليء بالحصى الذي يخرخر أسفل الجبال في الوراء.

رغم أن هذا كان رائعًا، فلم يرغب عبدالله بأن يكون قريبًا من ذلك الحيوان الضاري في الكهف. لكن الجندي أصر، فقد كانت الخموش تؤلمه، وألقى بنفسه على الصخرة المائلة وأخرج من علبة

الإسعافات الأولية السحرية. «أشعل نارًا»، قال وهو يلطخ جراحه بالدلوك. «الحيوانات المفترسة تخاف النار».

أذعن عبدالله وراح يقطع من الأحراج ذات الرائحة القوية ليحرقها. كان عقاب أو ما شابه قد بنى عشه في الصخور منذ زمن بعيد. وفَّر العش القديم لعبدالله ملء ذراع من الأفنان والأغصان اليابسة، وسرعان ما كان كومة من الحطب. بعدما أنهى الجندي تلطيخ نفسه بالمرهم، أخرج علبة القدح وأشعل نارًا صغيرة في منتصف الطريق النازل من الصخرة المائلة، فطقطقت وعلا لهيبها. والدخان الذي بدت رائحته شبيهة برائحة البخور الذي اعتاد أن يشعله في خيمته، تسلل خارجًا من طرف الوادي وانتشر أمام بدايات المغيب البديع. إن كان هذا يخيف الحيوان الضاري في الكهف حقًّا، فقد رأى عبدالله أن المكان رائع هنا. غير أنه ليس رائعًا تمامًا، إذ لم يكن عندهما ما يؤكل لأميال، فتنهد عبدالله.

أخرج الجندي علبة معدنية من رزمته. «أتود ملء هذه بالماء؟ إلا أن»، قال، ناظرًا إلى قمقم الجني المربوط إلى نطاق عبدالله. «كان عندك شيء أقوى في قنينتك».

«كلا للأسف»، قال عبدالله. «إنه ليس إلا إرثًا -زجاج مضبب نادر من سنغسِيات- أحمله لأسباب عاطفية». لم يكن يرغب في إخبار أحد مخادع كالجندي عن الجني.

«خسارة»، قال الجندي. «اجلب لنا الماء إذن، وأنا سأبدأ بإعداد عشاء لنا».

هذا جعل المكان رائعًا. ذهب عبدالله يقفز نازلًا إلى الجدول بعزم. وحين عاد وجد الجندي قد أخرج مقلاة وأفرغ رزمًا من اللحم المجفف والبازلاء اليابسة فيها. وأضاف الماء ومكعبين غامضين ووضعه على النار ليغلي. وفي وقت قصير جدًّا، تحول إلى يخنة ثخينة، رائحتها شهية.

«مزيد من أشياء الساحر؟»، سأل عبدالله لمَّا قاسمه الجندي نصف اليخنة في صحن من الصفيح ومرره إليه.

«أظن ذلك»، قال الجندي. «لقد التقطتها من أرض المعركة».

وأخذ المقلاة ليأكل منها، ووجد ملعقتين. وجلسا يأكلان بألفة والنار تطقطق بينهما، وقد غدت السماء شيئًا فشيئًا وردية وقرمزية وذهبية، وأصبحت الأرض تحتها زرقاء. «لم تعتد خشونة العيش، ها؟» علق الجندي. «تلبس ثيابًا غالية وحذاء أنيقًا، لكنها تعرضت للتمزيق والاهتراء في الآونة الأخيرة. وكلامك وسمرتك، لا بد أنك قادم من جنوب إنغري، أليس صحيحًا؟».

«كل هذا صحيح، أيها المحارب شديد اليقظة»، قال عبدالله بدهاء. «وكل ما أعرفه عنك أنك جئت من سترانغيا وغريب جدًّا أن تقطع هذه البلاد، محرضًا الناس على سرقتك بعرضك نقود مكافأتك...».

«اللعنة على المكافأة!»، قاطعه الجندي غاضبًا. «لم أحصل على بنس واحد لا من سترانغيا ولا من إنغري! أفنيت عمري في هذه

الحروب -كلنا فعلنا- وفي نهايتها يقولون «حسن يا شباب، لقد انتهى الأمر، هذا وقت السلم!» وقد تركونا لنموت جوعًا. لذا قلت لنفسي حقًّا؟! يدين لي أحدهم بأجر كل جهد بذلته وأحسب أنهم أهل إنغري! فقد كانوا هم من جلب الساحرين وانتصروا في الحرب بالخديعة! لذا شرعت أجني مكافأتي منهم، كما رأيتني أفعل اليوم. سمِّ ذلك احتيالًا إن شئت، ولكنك رأيتني؛ كن أنت الحكم. لقد أخذت أموال الذين حاولوا سرقتي!».

«الحق أن كلمة احتيال لن تخرج من فمي أيها المحارب الفاضل»، قال عبدالله بصدق. «لكني أسمي ذلك عبقرية، وخطة لا ينجح فيها إلا قليل».

بدا الارتياح على الجندي لدى سماعه هذا، وحملق متفكرًا في الفضاء الأزرق في الأسفل. «كل ما في الأسفل»، قال، «هذه سهول كنغزبري. يجب أن يكسبني هذا قدرًا كبيرًا من الذهب. أتعلم أني لَمَّا خرجت من سترانغيا، كان كل ما معي ثلاث بنسات فضية وزر نحاسي اعتدت الادعاء أنه قطعة نقدية؟».

«لقد جنيت ربحًا عظيمًا إذن»، قال عبدالله.

«وسيكون أعظم»، وعد الجندي. نحَّى المقلاة جانبًا وأخرج من رزمته تفاحتين، أعطى واحدة لعبدالله وأكل الأخرى، وهو ممدد على ظهره ينظر إلى الأرض التي تظلم شيئًا فشيئًا.

ظن عبدالله أنه يحسب الذهب الذي سيجنيه منها، لكنه فوجئ

بقول الجندي «كنت دومًا أحب المخيم في المساء. انظر إلى الغروب الآن. بديع!».

كان بديعًا حقًّا. فقد جاءت السحب من الجنوب وانتشرت في السماء مثل أرض بلون الياقوت. ورأى عبدالله سلاسل من الجبال البنفسجية التي تلونت بأحمر النبيذ في جزء منها، وغورًا برتقاليًّا مدخنًا كقلب البركان، وبحيرة وردية هادئة. وخلفها مقابل البحر - السماء باللونين اللامتناهيين من الأزرق والذهبي كانت جزر وشعاب مرجانية وخلجان ورؤوس. كأنما كانا ينظران إلى شاطئ بحر الجنة، أو الأرض التي تطل غربًا نحو الجنة.

«وتلك الغيمة هناك»، قال الجندي مشيرًا. «ألا تبدو مثل قلعة؟».

كانت حقًّا كالقلعة. انتصبت على بحيرة سمائية، أعجوبة من الأبراج الذهبية والنيلية والحمراء بلون الياقوت. وكانت لمحة من السماء الذهبية عبر أعلى الأبراج مثل نافذة. ذكرت عبدالله بحرقة بالغيمة التي رآها فوق قصر السلطان حين أُخذ إلى السجن. رغم أنها لا تشبهها في شيء، فهيجت أحزانه بشدة، فصاح قائلًا.

«أين أنت يا زهرة في الليل؟».

الفصل الحادي عشر
وفيه يضيع عبدالله أمنية بسبب الحيوان البري

اتكأ الجندي على مرفقه ونظر إلى عبدالله.

«وما معنى هذا؟».

«لا شيء»، قال عبدالله، «سوى أن حياتي كانت مترعة بالخيبات».

«احكِ»، قال الجندي. «فضفض. لقد أخبرتك عن نفسي على أية حال».

«لن تصدقني أبدًا»، قال عبدالله. «أحزاني تفوق أحزانك، أيها الفارس السفاح».

«جربني»، قال الجندي.

لم تكن حكاية الأمر بالصعبة، مع الغروب والحزن الذي أثاره الغروب في نفس عبدالله. وإذ انتشرت القلعة شيئًا فشيئًا وتحولت في بحيرة السماء إلى حواجز رملية والغروب كله خفت برفق إلى البنفسجي، وإلى البني ثم أخيرًا إلى ثلاثة خطوط حمراء غامقة كأنها آثار المخالب التي شفيت على وجه الجندي، قص عبدالله حكايته.

أو بأي حال من الأحوال قص نتفًا منها. فلم يحكِ قطعًا أي شيء شخصي كأحلام يقظته، أو الطريقة المزعجة التي تحققت بها في الآونة الأخيرة، وكان حريصًا ألا يذكر شيئًا عن الجني. إذ لم يثق بأن الجندي لن يأخذ القمقم ويختفي أثناء الليل، وقد عزز هذه الأفكار شك قوي في أن الجندي لم يحكِ قصته كاملة. كان سرد نهاية القصة صعبًا جدًا دون الإتيان على ذكر الجني، لكن عبدالله ظن أنه نجح في الأمر. وأوحى أنه تخلص من سلاسله ومن عصابة قطاع الطرق بقوة الإرادة وحدها، وأنه قطع الطريق شمالًا إلى إنغري مشيًا على الأقدام.

«أمم»، قال الجندي بعدما انتهى عبدالله. وأضاف متفكرًا مزيدًا من الحطب المعطر الذي غدا الضوء الوحيد في المكان. «يا لها من حياة. لكني أقول إن فيها اختلاقًا كثيرًا، أن يكون قدرك الزواج بأميرة. هذا أمر تصورت دومًا أن أفعله بنفسي؛ أتزوج أميرة جميلة هادئة عندها مملكة صغيرة وذات طباع دمثة. هذا جزء من أحلام يقظتي، حقًا».

رأى عبدالله أن عنده فكرة رائعة. «يمكن ذلك تمامًا»، قال عبدالله هادئًا. «يوم التقيتك رأيت منامًا -رؤيا- جاء إليّ فيها ملاك من دخان بلون الخزامى ودلني عليك، يا أدهى المحاربين، وأنت تنام على المقعد خارج النزل. قال إن بوسعك مساعدتي كثيرًا في العثور على زهرة في الليل. وإن فعلت، قال الملاك، فإن جزاءك الزواج بأميرة أخرى». كان هذا -أو سيكون- حقيقيًا تمامًا، قال عبدالله لنفسه. كان عليه أن يتمنى الأمنية الصحيحة أمام الجني

غدًا. بل بعد غد، قال لنفسه مذكرًا، فقد أجبره الجندي على تحقيق أمنية غدِ اليوم. «أتساعدني؟»، سأل مراقبًا وجه الجندي بشيء من القلق. «مقابل هذه المكافأة المجزية».

لم يبدُ الحماس ولا الحيرة على وجه الجندي. فكر «لست أعرف تمامًا ماذا أفعل لأساعدك»، قال أخيرًا. «فأنا لست خبيرًا بالجن. عليك أن تسأل أحد السحرة اللعينين في إنغري عما يفعله الجن بالأميرات اللاتي يخطفونهن. سيعرف السحرة، ويمكنني أن أزودك بمعلومات عنهم، إن شئت. سيكون هذا من دواعي سروري. أما الأميرات؛ فلا ينبتن على الشجر- كما تعلم. وأقرب أميرة لا بد أنها ابنة ملك إنغري، بعيدة في كنغزبري. إن كانت هي ما تصوره صديقك الملاك الدخاني، فأحسب أنه يجدر بك وبي أن نمشي ذلك الطريق ونرى. إن سحرة الملك الهادئين يعيشون هناك أيضًا، هذا ما قالوه لي، ويبدو لي مناسبًا. أتناسبك الفكرة؟».

«رائعة جدا، أيها العسكري الصديق لقلبي»، قال عبدالله.

«لقد سوينا الأمر إذن، ولكن تذكر أني لا أعدك بشيء»، قال الجندي. وأخرج من رزمته غطاءين وأشار أن عليهما إذكاء النار والإخلاد إلى النوم.

حلّ عبدالله قمقم الجني من نطاقه ووضعه بحذر على الصخرة الملساء قربه على الجانب الآخر من الجندي. ثم لف نفسه بالغطاء وقرّ لما تبين أنها ليلة قلقة. كانت الصخرة قاسية، ورغم أنه لم يشعر بالبرد بقدر ما شعر به ليلة البارحة في الصحراء، فإن الهواء

الرطب لإنغري جعله يرتعش بالمثل. إلى جانب أنه لحظة أغمض عينيه وجد أنه مشغول الفكر بالحيوان الضاري في الكهف أعلى الوادي. وظل يتخيل أنه يسمعه يجوس حول المخيم. فتح عينيه مرة أو اثنتين وخيل إليه أنه رأى شيئًا يتحرك وراء الضوء المنبعث من النار. فاعتدل في كل مرة وألقى بمزيد من الحطب إلى النار، فتوهج اللهب وأظهر له أنه لا شيء هناك. مر وقت طويل قبل أن يغط في نوم عميق، ولما فعل رأى حلمًا فظيعًا.

فقد رأى في منامه أنه، قبيل الفجر، جاء جني وجثم على صدره. فتح عينيه ليقول له أن يبتعد، فوجد أنه ليس بالجني، بل الحيوان الضاري من الكهف. فقد وقف غارسًا كفيه الضخمتين في صدره، ينظر إليه بعينين كالمصباحين الأزرقين في السواد المخملي لجلده. ووفقًا لرأي عبدالله فقد كان شيطانًا في هيئة نمر ضخم.

فاعتدل صارخًا.

لم يكن هناك شيء بالطبع، وكان الفجر يبزغ. وكانت النار لطخة مبهجة في الرمادية التي تكسو كل شيء، وكان الجندي حدبة رمادية داكنة أكثر، يشخر شخيرًا هادئًا على الجانب الآخر من النار. وراءه كانت الأراضي المنخفضة بيضاء من الضباب. ألقى عبدالله إلى النار بشجيرة أخرى تعبًا وغط في النوم ثانية.

وأيقظته زمجرة مدوية من الجني.

«كف عن ذلك! إليك عني!».

فزَّ عبدالله، وفزَّ الجندي. كان النهار طالعًا، ولم يخطئ كلاهما في ما شاهداه، إذ كانت قطة سوداء صغيرة تجثم قرب قمقم الجني بجانب المكان الذي وضع فيه عبدالله رأسه. إما أن القطة كانت شديدة الفضول أو أنها متأكدة من وجود طعام في القمقم، إذ دست أنفها برفق وحزم في عنق القمقم. وحول رأسها الجميل الأسود، كان الجني يلتف خارجًا في عشر أو اثنتي عشرة ذؤابة زرقاء متلوية واستمرت الذؤابات في التحول إلى أيدٍ ووجوه ثم عادت إلى الدخان ثانية.

«ساعدني!»، صرخ مكررًا. «إنها تحاول أكلي!».

تجاهلت القطة الجني تمامًا، واستمرت على المنوال نفسه كأن في القمقم رائحة تثيرها.

في زنزيب، يكره الجميع القطط، والناس يرونها أفضل بقليل من الجرذان والفئران التي تأكلها. إن اقتربت منك قطة، فعليك ركلها، وبوسعك إغراق ما شئت من الهريرات. لذلك، ركض عبدالله إلى القطة، مسددًا إليها ركلة طائرة وهو يركض. «شو!»، صاح بها. «انقلعي!».

قفزت القطة، وتمكنت من تفادي قدم عبدالله الضاربة وفرت إلى قمة الصخرة المعلقة، حيث بصقت عليه ونظرت إليه شزرًا. لم تكن صماء إذن، خطر لعبدالله، ناظرًا إليها في عينيها. كانتا زرقاوين. لقد كان هذا إذن ما جثم عليه في الليل! رفع حجرًا وأرجع ذراعه إلى الوراء ليرميها بها.

«لا تفعل ذلك!»، قال الجندي. «يا لها من حيوان مسكين صغير!».

لم تنتظر القطة عبدالله ليرميها بالحجر، فقد توارت عن الأنظار. «هذا الوحش ليس بمسكين»، قال. «عليك أن تدرك أيها المحارب الطيب أن الحيوان كاد يقلع عينيك البارحة».

«أعرف»، قال الجندي بهدوء. «لقد كانت تدافع عن نفسها المسكينة. أفي زجاجتك جني؟ صديقك المدخن الأزرق؟».

أخبر مسافر يحمل بساطًا للبيع عبدالله مرة أن أكثر الناس في الشمال كانوا عاطفيين جدًّا فيما يخص الحيوانات. رفع عبدالله كتفيه واستدار بحدة إلى قمقم الجني، إذ اختفى الجني دون كلمة شكر. كان لا بد من حدوث هذا! والآن عليه أن يحرس القمقم بعيني صقر. «أجل»، قال.

«حسبته كذلك»، قال الجندي. «لقد سمعت حكايات عن الجن. تعالَ وانظر إلى هذا، أتفعل؟» توقف وحمل قبعته، بحذر شديد، مبتسمًا ابتسامة غريبة لطيفة.

لا بد أن في الجندي خطبًا ما هذا الصباح، كأنه فقد صوابه في الليل. تساءل عبدالله إن كان هذا بسبب الخدوش، رغم أنها كادت تختفي. تقدم نحوه عبدالله قلقًا.

سريعًا، كانت القطة تقف على الصخرة المعلقة، مصدرة صوت الرافعة المعدنية، والغضب والقلق في كل خط من جسمها الأسود

الصغير. تجاهلها عبدالله ونظر إلى داخل قبعة الجندي. حملقت إليه عينان مدورتان زرقاوان من الداخل المجعد. وهسهس فم أحمر صغير متحديًا، حين تسلقت الهرة السوداء الصغيرة لتخرج من القبعة، مؤرجحة ذيلها الصغير الشبيه بفرشاة القناني لتتوازن.

«أليس حلوًا؟»، قال الجندي مسلوب العقل.

نظر عبدالله إلى القطة التي تموء عاليًا على الصخرة. فشلّ، ونظر ثانية بحذر. كان الشيء ضخمًا. وقف هنالك نمر أسود قوي، مبرزًا أنيابه البيض الكبيرة أمامه.

«لا بد أن هذه الحيوانات تملكها ساحرة، أيها الرفيق الشجاع»، قال مرتجفًا.

«إن كانا كذلك، فلا بد أن الساحرة ميتة أو ما شابه»، قال الجندي. «لقد رأيتها... كانا يعيشان وحدهما في الكهف. لقد حملت القطة الأم هريرتها طوال الطريق في الليل. عجيب أليس كذلك؟ ربما عرفت أننا سنساعدها!» ونظر إلى الحيوان المكشر على الصخرة دون أن ينتبه إلى حجمه. «انزلي يا حلوتي!» قال متملقًا. «تعرفين أننا لن نؤذي هريرتك».

انطلقت القطة الأم من الصخرة، فصرخ عبدالله صرخة مكتومة، وتنحى جانبًا وجلس متثاقلًا. فقد انطلق الجسم الأسود الكبير متجاوزًا إياه، ودهش لما رأى الجندي بدأ يضحك. نظر عبدالله بإزدراء ليجد أن الوحش قد تحول إلى قطة صغيرة سوداء

مرة أخرى، كانت تمشي بمودة على كتف الجندي العريضة وتدعك نفسها بوجهه.

«أوه، إنك أعجوبة يا بُهرة الليل الصغيرة!»، ضحك الجندي. «تعرفين أني سأعتني بابنك صغيرون من أجلك، صحيح؟ هذا صحيح، خرخري!».

نهض عبدالله مشمئزًا وأدار ظهره لمشهد الحب هذا. لقد نظفت المقلاة جيدًا أثناء الليل، وصحن الصفيح كان لامعًا. فذهب وغسلهما، بإمعان، في الجدول، آملًا أن ينسى الجندي هذين الحيوانين الخطرين السحريين ويبدأ التفكير في الإفطار.

ولكن حين أنزل الجندي أخيرًا قبعته ونزع برفق القطة عن كتفه، فكر في إفطار القطتين. «ستحتاجان الحليب»، قال، «وصحنًا جميلًا من السمك الطازج. اجعل جنيك يجلب لهما شيئًا منه».

فانبعثت من عنق القمقم نفثة زرقاء بنفسجية وتحولت إلى رسم لوجه الجندي الحانق. «أوه لا»، قال الجني. «أمنية في اليوم هي كل ما أمنح، وقد حصل على أمنية اليوم البارحة. اذهبا واصطادا السمك في الجدول». تقدم الجندي من الجني غاضبًا. «لن يكون في أعالي الجبال أي سمكة»، قال. «وبُهرة الليل الصغيرة تتضور جوعًا، ولا بد أن تطعم هريرتها».

«يا حرام!»، قال الجني. «ولا تحاول تهديدي أيها الجندي. لقد حولت رجلين إلى ضفدعين لأمر أقل».

كان الجندي رجلًا شجاعًا من غير شك -أو شديد الحمق- خطر لعبدالله. «افعل ذلك بي وسأكسر قمقمك، أيًا كانت هيئتي!»، صاح. «أنا لا أطلب أمنية لنفسي!».

«أحب أن يكون الناس أنانيين»، رد عليه الجني. «أتريد أن تكون ضفدعًا إذن؟».

انبعث من القمقم مزيد من الدخان الأزرق واتخذ شكل ذراعين تشيران فخشي عبدالله أنه كان جادًا. «لا، لا، توقف، أتوسل إليك، يا ياقوت الجن!»، قال على عجل. «دع الجندي وشأنه واسمح، وسيكون ذلك معروفًا كبيرًا، أن تحقق لي أمنية يوم آخر مقدمًا، لنطعم هذين الحيوانين».

«أتود أن تكون ضفدعًا أيضًا؟»، سأل الجني.

«إذا كتب في النبوءة أن زهرة في الليل ستتزوج ضفدعًا، فحولني ضفدعًا»، قال عبدالله بورع. «ولكن اجلب الحليب والسمك أولًا أيها الجني العظيم». التف الجني شكس المزاج. «اللعنة على النبوءة! لا أستطيع مخالفتها. حسن، سأحقق لك أمنيتك، لكنك ستدعني وشأني اليومين القادمين».

تنهد عبدالله، فقد كان هذا هدرًا بغيضًا لأمنية. «اتفقنا».

وُضع على الصخرة قرب قدمه إبريق من الحليب وصحن بيضوي فيه سمك السلمون. نظر الجني إلى عبدالله نظرة مقت كبيرة وأعاد نفسه إلى القمقم.

«أحسنت صنعًا!»، قال الجندي، وشرع محدثًا ضجة كبيرة وهو يسلق السلمون بالحليب ويتأكد من عدم وجود حسك لئلا تختنق القطة به.

رأى عبدالله أن القطة كانت طوال هذا الوقت تلعق هريرتها في القبعة بهدوء. ولا يبدو أنها عرفت بوجود الجني، لكنها علمت بوجود السلمون. حين أخذ يغلي تركت هريرتها ولفت نفسها حول الجندي، نحيلة ملحَّة وهي تموء. «قليلًا، قليلًا يا عزيزتي السوداء!»، قال الجندي.

افترض عبدالله أن سحر القطة وسحر الجني مختلفان جدًّا فلا يستطيعان رؤية أحدهما الآخر. أما الأمر الحسن الذي رآه في هذا الأمر فهو أن الحليب والسلمون كانا كثيرين ويكفيان البشريين أيضًا. حينما كرعت القطة برفق ولحس الهر وعطس وهو يبذل قصارى جهده ليشرب الحليب المنكه بالسلمون، تناول عبدالله والجندي عصيدة صنعت من الحليب وشرائح السلمون المحمر.

بعد إفطار كهذا، أحس عبدالله بعطف أكبر تجاه العالم كله، وقال لنفسه إن الجني ما كان ليختار له رفيقًا أحسن من هذا الجندي. وإن الجني لم يكن شريرًا جدًّا، وإنه سيرى زهرة في الليل قريبًا من غير شك. كان يفكر في أن السلطان وكابول عقبة ليسا بالشريرين أيضًا، عندما اكتشف غاضبًا أن الجندي عزم على أخذ القطة والهر معه إلى كنغزبري.

«ولكن أيها المدفعي المحسن والفارس المدرّع المنصف»، قال

معترضًا، «ماذا سيحدث لخطتك في جَني الغنائم؟ لا يمكنك سرقة اللصوص وأنت تحمل هرًّا في قبعتك!».

«أحسب أني لست بحاجة إلى فعل شيء من هذا وقد وعدتني بأميرة»، أجابه الجندي هادئًا. «ولا يسع أحدًا أن يترك بُهرة الليل وصغيرون ليتضور جوعًا في هذا الجبل. هذه قسوة!»

أدرك عبدالله أنه خسر الجدال، فربط مستاء قمقمَ الجني في نطاقه وأقسم ألا يعد الجندي بشيء أبدًا. حزم الجندي متاعه، وأخمد النار وحمل قبعته برفق والهر داخلها. وانطلق نازلًا التل جانب الجدول، يصفر لبُهرة الليل كأنها كلب.

كان لبُهرة الليل رأي آخر. فقد اعترضت طريق عبدالله حين مشى خلف الجندي، تنظر إليه نظرة ذات مغزى. لم يأبه لها عبدالله وحاول أن يتجاوزها، غير أنها غدت ضخمة في الحال. نمر أسود، إن كان هذا ممكنًا، أكبر من ذي قبل، يسد الطريق ويكشر عن أنيابه. فتوقف وقد بدا عليه الخوف واضحًا. فقفز عليه الضاري، وخشي أن يصرخ، فأغمض عينيه وانتظر أن تمزق عنقه. لا فائدة للنبوءات والقدر!

لمست عنقه النعومة، وضربت كتفه أقدام صغيرة قوية ووخزت صدره مجموعة أخرى من الأقدام. فتح عبدالله عينيه ليجد بُهرة الليل قد عادت إلى حجم القطة متشبثة بمقدمة سترته. وقالت العينان الخضراوان المزرقتان الناظرتان إلى عينيه «احملني وإلا».

«حسن أيها السنورة الموقرة»، قال عبدالله. «ولكن احرصي على ألا تتلفي شيئًا من تطريز هذه السترة. لقد كانت هذه أجمل ثيابي ذات يوم. وتذكري من فضلك أنني أحملك رغم اعتراضي الشديد، فأنا لا أحب القطط».

تسلقت بُهرة الليل هادئة إلى كتف عبدالله، حيث جلست متزنة بعجرفة، أما عبدالله فتثاقل وانزلق يشق طريقه نزولًا من الجبل لما بقي من النهار.

الفصل الثاني عشر

وفيه يلاحق القانونُ عبدالله والجندي

بحلول المساء، كان عبدالله قد اعتاد بُهرة الليل. وخلافًا لكلب جمال، فقد كانت رائحتها شديدة النظافة، كما تبين أنها أم رائعة. إذ لم تنزل من كتف عبدالله إلا لإطعام هرها. ولولا عادتها المخيفة في التحول إلى حيوان ضخم أمامه حين يزعجها، لشعر عبدالله أنه يتقبلها بمرور الوقت. لكنه أقر أن الهر كان آسرًا، فقد لعب بطرف جديلة الجندي وحاول ملاحقة الفراشات بجنون- عندما توقفوا لتناول الغداء. وأمضى ما بقي من النهار في مقدمة سترة الجندي ينظر متحمسًا إلى العشب والأشجار، وإلى الشلالات المحاطة بالأشنات التي مروا بها في طريقهم إلى السهول.

لكن عبدالله امتعض من الجندي لما أثاره من لغط حول قطتيه عندما توقفوا لقضاء الليل. فقد قررا أن يقيما في النزل الذي وجداه في الوادي الأول، وهنا قضى الجندي بأن تحصل قطتاه على الأفضل في كل شيء.

شاطر صاحبُ النزل وزوجته عبدالله الرأي. كانا أبلهين تعكر مزاجهما بعد السرقة الغامضة لإبريق من الحليب وسمكة سلمون كاملة ذلك الصباح. وتنقلا في المكان باستنكار عنيف، محضرين سلة شكلها مناسب فيها وسادة ناعمة. وأسرعا متجهمين يجلبان القشدة وكبدة الدجاج والسمك. وأخرجا كارهين أعشابًا قال الجندي إنها تمنع تقرح الأذن. وأرسلا غاضبين في طلب أعشاب يفترض بها شفاء القطط من الديدان. لكنهما كانا مرتابين بمعنى الكلمة حين طلب منهما تسخين الماء للاستحمام لأن الجندي يشك أن صغيرون يشكو البراغيث.

وجد عبدالله نفسه مضطرًا إلى المساومة. «يا أمير أصحاب النزل وأميرتهم»، قال. «صبرًا على غرابة أطوار صديقي الرائع. عندما يقول اغتسالًا، فإنه يعني نفسه ويعنيني. فكلانا قد اغبر من السفر ونرغب في ماء نظيف ساخن، وسندفع مقابله أي مال إضافي».

«ماذا؟ أنا؟ اغتسال؟»، قال الجندي، عندما ذهب صاحب النزل وزوجته متثاقلين لغلي أباريق كبيرة.

«أجل، أنت»، قال عبدالله. «وإلا افترقت عنك وعن قطتيك هذا المساء. كلب صديقي جمال في زنزيب كان أقل نتنًا على الأنف منك، أيها المحارب الذي لا يغتسل، وصغيرون ببراغيثه أو من غيرها، أنظف منك بكثير».

«ولكن ماذا عن أميرتي وابنة سلطانك إن رحلت؟»، سأل الجندي.

«سأفكر في أمر ما»، قال عبدالله. «لكني أفضل أن تستحم، وإن شئت فخذ صغيرون معك. هذا كان مبتغاي حين طلبت الماء».

«إنه يضعفك، أعني الاستحمام»، قال الجندي متشككًا. «لكني أحسب أن بوسعي غسل بُهرة الليل أيضًا ما دمت ذاهبًا».

«استخدم القطتين إسفنجتين إن كان هذا يرضيك، يا جندي المشاة المفتون»، وقال عبدالله وذهب ليستحم.

في زنزيب، يستحم الناس كثيرًا، لأن الطقس حار جدًّا. اعتاد عبدالله التردد على الحمامات العامة مرة كل يومين وافتقد ذلك. وكان جمال يذهب إلى الحمامات مرة في الأسبوع، وقيل إنه يدخل كلبه في الماء معه.

فكر عبدالله أن الجندي، بعد أن يهدأ من الماء الساخن، لن يكون مجنونًا بقطتيه أكثر مما كان جمال مفتونًا بكلبه. وتمنى أن يكون جمال وكلبه قد تمكنا من الهرب وإن فعلا، فهما لا يكابدان مشقة قطع الصحراء في هذه اللحظة.

لم يضعف الجندي بعد استحمامه رغم أن بشرته قد تحولت إلى سمرة فاتحة. وتبين أن بُهرة الليل قد هربت لدى رؤيتها الماء، أما صغيرون، كما قال الجندي، فقد أحب كل لحظة. «لعب بفقاعات الصابون!»، قال مغرمًا.

«أرجو أن تظني أنك جديرة بكل هذا العناء»، قال عبدالله لبُهرة الليل، حين جلست على فراشه بنعومة تنظف نفسها بعد تناول

القشدة والدجاج. استدارت بُهرة الليل ونظرت إليه نظرة موبخة من عينين مدورتين -إنها جديرة بذلك من غير شك!- قبل عودتها إلى عملها الجاد في تنظيف أذنيها.

كانت الفاتورة طائلة الصباح التالي. ومعظم النقود الإضافية كانت مقابل الماء الساخن، أما الوسائد والسلال والأعشاب فقد كانت أسعارها باهظة أيضًا. دفع عبدالله مرتجفًا، وسأل قلقًا كم تبعد إنغري.

ستة أيام، قيل له، إن سافر المرء إليها ماشيًا.

ستة أيام! تأوه عبدالله عاليًا. ستة أيام من إنفاق المال هكذا ولن يتمكن من إعالة زهرة في الليل إلا بفقر مدقع حين يجدها. وعليه أن يحتمل ستة أيام من جنون الجندي بالقطتين، قبل أن يمسكا بساحر أو يبدأا البحث عنها. كلا، قال عبدالله لنفسه. ستكون أمنيته التالية من الجني أن ينقلهم كلهم إلى كنغزبري. وكان هذا يعني أن عليه الصبر يومين آخرين.

مشى عبدالله، وقد اطمأن إلى هذه الفكرة، نازلًا الدرب وبُهرة الليل تركب كتفيه بهدوء وقمقم الجني يرتج على جانبه. سطعت الشمس، وكانت خضرة الريف بهجة له بعد الصحراء.

بدأ عبدالله يعجب بالبيوت ذات الأسطح العشبية، فلها حدائق متعرشة بهيجة وفي كثير منها ورد وزهور أخرى تحفّ أبوابها. أخبره الجندي بأن الأسطح العشبية سائدة هنا، وتدعى قش التسقيف

وأكد له أنها لا تسمح بنفاذ مياه المطر، رغم أن عبدالله صعب عليه تصديق هذا.

وفي وقت قصير استغرق عبدالله في حلم يقظة آخر، عنه وعن زهرة في الليل يسكنان كوخًا له سطح عشبي وورد حول الباب. سيزرع لها حديقة تثير حسد الجميع على امتداد أميال، وأخذ يصمم هذه الحديقة.

لسوء الحظ قبيل انقضاء الصباح قوطع حلم يقظته بقطرات مطر تتزايد. كرهت بُهرة الليل ذلك، فتذمرت بصوت عالٍ في أذن عبدالله.

«ضعها في سترتك»، قال الجندي.

«لن أفعل، يا عاشق الحيوانات»، قال عبدالله. «فهي لا تحبني أكثر مما أحبها، ولا ريب أنها ستنتهز الفرصة فتصنع ثلمًا في صدري».

ناول الجندي قبعته عبدالله وفيها صغيرون، وقد غطي بعناية بمنديل قذر، ودس بُهرة الليل في سترته. واصلا سيرهما لنصف ميل، وأخذ المطر ينهمر بغزارة.

نفث الجني نفثة زرقاء مرهقة من جانب قمقمه. «ألا يسعك فعل شيء بكل هذا الماء الذي ينسكب عليّ؟».

كان صغيرون يقول الأمر نفسه بأعلى صوته الزاعق الصغير. فأبعد عبدالله الشعر الرطب عن عينيه وأحس بالضيق.

«علينا أن نعثر على مكان نحتمي به»، قال للجندي.

لحسن الحظ وجدا نزلًا عند المنعطف بعد التالي. فاندلقا شاكرين إلى حانته، حيث سر عبدالله لاكتشاف أن السطح العشبي يحمي جيدًا من تسرب المطر.

هنا طلب الجندي، بأسلوب أخذ عبدالله يعتاده، حجرة خاصة فيها نار، كي ترتاح القطتان، وغداءً لأربعتهم. وتساءل عبدالله، بأسلوبه الذي أخذ يعتاده أيضًا، عن قيمة الفاتورة هذه المرة، رغم اعترافه بأن النار كانت مستحبة. وقف أمامها يقطر منه الماء، وفي يده كأس من الجعة -في هذه الحانة ذاتها كان طعم الجعة كأنها مأخوذة من جمل متوعك- وهم ينتظرون الغداء. جففت بُهرة الليل هرها ثم جففت نفسها. ومد الجندي حذاءه أمام النار وتركه يتصاعد منه البخار، وأما قمقم الجني فوضع قرب المصطلى وتصاعد منه قليل من البخار. حتى الجني لم يتذمر.

سمعا صوت خيول في الخارج، لم يكن هذا بالغريب. فجل الناس في إنغري يتنقلون على ظهور الخيول إن استطاعوا. ولا كان بالغريب أن راكبيها وقفوا بالنزل، فلا بد أنهم ابتلوا أيضًا. ودار في خلد عبدالله أنه كان عليه أن يطلب من الجني أن يمنحهما حصانين بدلًا من الحليب والسلمون البارحة، عندما سمع الفرسان يصرخون بصاحب النزل خارج نافذة الحجرة.

«رجلان - جندي سترانغي وفتى أسمر يلبس بزة فاخرة - مطلوبان بتهمة الاعتداء والسرقة- أرأيتهما؟».

وقبل أن ينهي الفرسان صراخهم تقدم الجندي إلى النافذة

مسندًا ظهره إلى الجدار ليتمكن من النظر إلى الجانبين عبر النافذة دون أن يُرى، وبصورة ما حمل رزمته في يد وقبعته في الأخرى.

«أربعة منهم»، قال. «إنهم عسس، كما يبدو من زيهم».

وكل ما استطاع عبدالله التفكير فيه كان الوقوف فاغرًا فاه في ذعر، ظانًّا أن هذا عاقبة الجعجعة طلبًا لسلة القطة وماء الاستحمام ومعطيًا صاحب النزل سببًا لتذكره. وطلب حجرة خاصة، خطر له، حين سمع صوت صاحب النزل من بعيد يقول متملقًا إن كلا الرجلين هنا، في الردهة الصغيرة.

مد الجندي قبعته إلى عبدالله. «ضع صغيرون هنا، ثم احمل بُهرة الليل واستعد للخروج من النافذة ما إن يدخلوا النزل».

اختار صغيرون هذه اللحظة ليذهب للاستكشاف تحت مقعد من خشب السنديان، فغاص عبدالله بحثًا عنه. وحين خرج على ركبتيه والهر يتلوى في يده، سمع أصوات الأحذية البعيدة تخبط في الحانة. كان الجندي يفتح مزلاج النافذة، فوضع عبدالله صغيرون في قبعته الممدودة واستدار بحثًا عن بُهرة الليل، ورأى قمقم الجني يستدفئ عند المصطلى. كانت بُهرة الليل على رف في الطرف المقابل من الغرفة، وكان هذا بلا جدوى. فالأحذية تقترب أكثر، تدق باب الردهة، وكان الجندي يخبط النافذة العالقة.

انتزع عبدالله قمقم الجني. «تعالي هنا يا بُهرة الليل!»، قال وركض نحو النافذة، إذ انضم إلى الجندي في عمله.

«أفسح المكان»، قال الجندي. «إنها عالقة ولا بد من ركلها».

تنحى عبدالله جانبًا، وفتح باب الردهة واندفع إلى الغرفة ثلاثة رجال ضخام. في اللحظة نفسها، خبط حذاء الجندي إطار النافذة مدويًا، فانفتحت النافذة وتسلق الجندي أسكفتها. صرخ الرجال الثلاثة، وتقدم اثنان منهما نحو النافذة وتوجه ثالثهما إلى عبدالله. قلب عبدالله كرسي السنديان أمام الجميع ثم هرع نحو النافذة، إذ صعد الأسكفة خارجًا إلى المطر المنهمر دون تردد.

ثم تذكر بُهرة الليل، فقفل عائدًا.

كانت ضخمة مرة أخرى، أكبر مما رآها قبلًا، تتجول مثل ظل أسود في المكان أسفل النافذة، مكشرة عن أنيابها البيضاء القوية للرجال الثلاثة. تساقطوا فوق بعضهم بعضًا ليفروا هاربين من الباب. واستدار عبدالله وركض خلف الجندي شاكرًا، واندفع نحو الزاوية البعيدة من النزل. فرجل العسس الرابع -الذي كان في الخارج يحرس الخيول- أخذ يركض خلفهما، ثم أدرك غباء فعله وقفل عائدًا إلى الخيول، التي تفرقت مبتعدة عنه وهو يركض نحوها. ولما ركض عبدالله خلف الجندي عبر حديقة مطبخ مشبعة بالماء، سمع صياح الأربعة وهم يحاولون الإمساك بخيولهم.

كان الجندي خبيرًا بالفرار، وقد وجد طريقًا من حديقة الخضار إلى بستان ومن هناك بوابة تنفتح على حقل واسع، دون أن يضيع دقيقة. كانت مقابل الحقل غابة بعيدة مثل وعد بالأمان، يجللها المطر.

«هل أحضرت بُهرة الليل؟»، قال الجندي لاهثًا وهما يسيران عبر عشب الحقل المبلول.

«كلا»، قال عبدالله منقطع الأنفاس فلم يتمكن من الشرح.

«ماذا؟»، قال الجندي، وتوقف واستدار.

في تلك اللحظة، جاءت الخيول الأربعة، وكل منها يحمل على سرجه واحدًا من رجال العسس، تقفز سياج البستان إلى الحقل. فشتم الجندي شتائم بذيئة، واندفع هو وعبدالله إلى الغابة. وحالما وصلا تخومها المشجرة، كان الرجال في منتصف طريقهم في الحقل. انطلق عبدالله والجندي عبر الأحراج وقفزا إلى فرجة حيث دهش عبدالله إذ وجدا الأرض مكسوة بآلاف وآلاف من الزهور الزرقاء المشرقة، كأنها سجادة في مدى بعيد أزرق.

«ما... هذه الزهور؟»، قال لاهثًا.

«الجريس»، قال الجندي. «إن أضعت بُهرة الليل قتلتك».

«لم أفعل. ستجدنا. لقد كبرت، أخبرتك أنه السحر»، قال عبدالله لاهثًا.

لم يرَ الجندي خدعة بُهرة الليل هذه، ولم يصدق عبدالله. «اركض أسرع»، قال. «علينا الدوران والعودة لأخذها».

انطلقا إلى الأمام يسحقان الجريس، تغمرهما الرائحة الغريبة القوية من حولهما. لولا المطر الرمادي المنهمر وصراخ رجال العسس لصدق عبدالله أنه يركض على أرض الجنة. لقد عاد سريعًا

إلى حلم يقظته. وحين يعد حديقته للكوخ التي ستشاركه فيها زهرة في الليل، سيضيف الجريس بالآلاف مثل هذه. لكنه هذا لم يعمِه عن تركهما خط وطئهما على السيقان البيضاء المسحوقة والزهور المقتلعة وهما يجريان. ولا أصمه تكسر الأغصان ورجال العسس قد اخترقوا الغابة بخيولهم خلفه.

«لا فائدة من هذا»، قال الجندي. «أخرج جنيك ليجعل العسس يفقدون أثرنا».

«لاحظ -يا جوهر المحاربين- لا أمنيات إلى ما بعد غد»، قال عبدالله لاهثًا.

«يمكنه أن يحقق لك واحدة مقدمًا»، قال الجندي.

تصاعد دخان أزرق غاضبًا من القمقم في يد عبدالله. «لقد حققت لك أمنيتك الأخيرة شرط أن تتركني وشأني»، قال الجني. «كل ما أطلبه أن أترك لحزني وحدي في القمقم. وهل تتركني؟ كلا. لدى أول علامة للخطر تبدأ البكاء طلبًا لأمنيات إضافية. ألا يفكر في أحد هنا؟».

«حالة طارئة -يا ياقوتة زرقاء- يا جريسة بين الجن في القماقم»، نفخ عبدالله. «انقلنا- بعيدًا».

«أوه لا لن تفعل!»، قال الجندي. «لا تتمنى أن نبتعد من غير بُهرة الليل. قل له أن يجعلنا خفيين حتى نجدها».

«أيها الزبرجد الأزرق بين الجن...»، قال عبدالله لاهثًا.

«إن كنت أكره شيئًا»، قاطعه الجني وقد انتفخ انتفاخًا شديدًا متحولًا إلى غيمة خزامية، «أكثر من هذا المطر ومضايقتي للحصول على الأمنيات مقدمًا كل الوقت، هو تملقك إليّ لتحقيق الأمنيات بلغة مزخرفة. إن أردت أمنية، اطلبها مباشرة».

«خذنا إلى كنغزبري»، نفخ عبدالله.

«اجعل الرجال الذين يلاحقوننا»، قال الجندي في اللحظة نفسها.

فتبادلا نظرات غاضبة وهما يركضان.

«أعمِلا رأيكما»، قال الجني. وطوى ذراعيه ومشى خلفهما بازدراء. «الأمر سيانٍ عندي أيًا كان ما تهدران عليه أمنية أخرى، ولكني أذكركما أنها ستكون الأخيرة ليومين».

«لن أترك بُهرة الليل»، قال الجندي.

«إن كنا - سنضيع أمنية»، قال عبدالله لاهثًا، «فعلينا - أن ننتفع بها - أيها الباحث الأحمق عن الثروة - ونوجه - طلبنا - نحو كنغزبري».

«اذهب من غيري إذن»، قال الجندي.

«لا يبعد الفرسان إلا خمسين قدمًا»، عقب الجني.

فنظرا وراءهما ووجدا أنه محق تمامًا. استسلم عبدالله مسرعًا. «اجعلهم غير قادرين على رؤيتنا»، قال لاهثًا.

«بل اجعلنا خفيين حتى تجدنا بُهرة الليل»، أضاف الجندي. «أعرف أنها ستفعل فهي ذكية جدًّا».

لمح عبدالله ابتسامة شريرة تتمدد على وجه الجني الدخاني وذراعيه الدخانتين تومئان.

ثم أعقب ذلك غرابة لزجة ورطبة. تشوه العالم فجأة من حول عبدالله وبات واسعًا وأزرق وأخضر وخارج المركز. فزحف ببطء وبشيء من المشقة، بينما بدا له جريس عملاق، واضعًا كل يد ضخمة ذات ثآليل بحذر شديد، لأنه لسبب ما لم يستطع النظر إلى الأسفل، بل الأعلى والأمام. كان عملًا شاقًّا فأراد أن يتوقف ويقعي حيث كان، لكن الأرض ارتجت من تحته ارتجاجًا قويًّا. وأحس بمخلوقات عملاقة تركض نحوه، فواصل زحفه بجنون. غير أنه لم يتمكن من الابتعاد عن طريقها في الوقت المناسب.

حافر ضخم، كبير بحجم برج مدور أسفله معدن، جاء يركض بجانبه وهو يزحف. خاف عبدالله منه كثيرًا فجمد في مكانه ولم يأتِ بحركة. وعرف أن المخلوقات الضخمة قد توقفت أيضًا على مقربة كبيرة منه، وعلت أصوات عالية غاضبة لم يسمعها جيدًا. واستمرت لبعض الوقت، ثم بدأ ضرب الحوافر ثانية، واستمر لبعض الوقت أيضًا، وهي تطأ هذا الدرب وذاك، قريبة دومًا حتى، بعدما انقضى جل النهار، تخلت المخلوقات عن البحث عنه وابتعدت وهي تسحق وتخوض في الطين.

الفصل الثالث عشر

وفيه عبدالله يتحدى القدر

أقعى عبدالله لبرهة أطول، ولمَّا لم تعد المخلوقات واصل زحفه زحفًا أحمق أبله، راجيًا أن يعرف ما حدث له. لقد عرف أن شيئًا حدث، لكنه لم يكن صافي الذهن ليفكر.

توقف المطر أثناء زحفه، فحزن لذلك فقد كان منعشًا جدًّا على جلده. من جهة أخرى، طافت ذبابة في شعاع من ضوء الشمس وجاءت لترتاح على ورقة جريس قريبة. فأخرج عبدالله من فوره لسانًا طويلًا، ولف به تلك الذبابة وابتلعها. لذيذة جدًّا! قال لنفسه. ثم قال لكن الذباب قذر! زحف حائرًا أكثر من ذي قبل حول مجموعة أخرى من الجريس.

وهنالك وجد آخر مثله.

كان بنيًّا مقعيًا ذا ثآليل، وكانت عيناه الصفراوان في قمة رأسه. حالما رآه، فتح فمه الواسع عديم الشفتين في نقيق خوف وأخذ ينتفخ. لم ينتظر عبدالله لرؤية المزيد، إذ استدار وزحف بأسرع ما

وسعته سيقانه المعوجة. لقد عرف ما كان، إنه ضفدع. لقد رتب الجني اللئيم الأمور ليكون ضفدعًا حتى تعثر عليه بُهرة الليل. وحين تفعل، كان واثقًا كل الثقة بأنها ستأكله.

زحف تحت أقرب أوراق جريس مقوسة واختبأ...

بعد ساعة، تفرقت أوراق الجريس ودخل كف أسود مخيف، بدا مهتمًا بعبدالله، فقد أبقى براثنه في غمدها وربت عليه. وخاف عبدالله خوفًا شديدًا وحاول القفز إلى الوراء مبتعدًا.

عندئذ وجد نفسه مستلقيًا على ظهره بين الجريس.

طرف بعينه لرؤية الأشجار العالية أولًا، وحاول أن يتكيف مع الصورة التي امتلأ بها رأسه بالأفكار ثانية على حين غرة. كانت بعضها أفكارًا كريهة، عن لصّين يزحفان قرب بركة في واحة على هيئة ضفدعين، وعن أكله ذبابة والحصان الذي كاد يطؤه. ثم نظر حوله ووجد الجندي جاثمًا قربه، بادية عليه الحيرة مثل عبدالله. كانت رزمته قربه، ووراءها كان صغيرون يبذل جهدًا جهيدًا للخروج من قبعة الجندي. ووقف قمقم الجني معتدًا بنفسه بجانب القبعة.

كان الجني خارج القمقم في نفثة صغيرة مثل لهب مصباح كحولي، وذراعاه الدخانيتان تستندان إلى عنق القمقم. «أتقضيان وقتًا ممتعًا؟»، سأل هازئًا. «لقد حققت لكما ما أردتما، أليس كذلك؟ سيلقنكما هذا درسًا لئلا تضايقاني بأمنيات إضافية!».

خافت بُهرة الليل من تحولها المفاجئ خوفًا شديدًا، وكانت قوسًا صغيرًا غاضبًا تبصق على كليهما.

مد الجندي يده إليها وأصدر أصواتًا مهدئة. «إن أخفت بُهرة الليل ثانية»، قال للجني، «فسأكسر قمقمك!».

«لقد قلت هذا من قبل»، رد عليه الجني، «ولم تستطع، حظ سيئ. إن القمقم مسحور».

«سأحرص إذن على أن تكون أمنيته القادمة أن تتحول إلى ضفدع»، قال الجندي، مشيرًا بإبهامه نحو عبدالله.

نظر الجني نظرة حذرة إلى عبدالله الذي لم يقل شيئًا، لكنه وجدها فكرة رائعة وقد تجعل الجني يحسن التصرف. ثم تنهد، فبصورة أو بأخرى ما كان في وسعه أن يتفادى هدر الأمنيات.

ثم أعدّا نفسيهما ومتاعهما واستأنفا رحلتهما. ظلا يسيران في أصغر الدروب والحارات التي وجداها تلك الليلة، وبدلًا من الذهاب إلى نزل خيَّما في حظيرة قديمة فارغة. هنالك أظهرت بُهرة الليل الحذر والتيقظ فجأة ثم تسللت إلى الزوايا المظلمة. وبعد مدة خرجت عائدة أدراجها تحمل فأرًا ميتًا، وضعته بعناية في قبعة الجندي من أجل صغيرون. لم يعرف صغيرون ما يفعل بالفأر، ثم خلص في نهاية المطاف أنه لعبة قفز عليها بقوة وقتلها. ثم تسللت بُهرة الليل مرة أخرى خِفية، وسمع عبدالله أصواتًا صغيرة تشي بقضائها الليلة في الصيد.

ورغم هذا، أقلق الجنديَّ إطعامُ القطتين، وأراد من عبدالله أن يذهب الصباح التالي إلى أقرب مزرعة لشراء الحليب.

«اذهب أنت إن أردت»، قال عبدالله باقتضاب.

ووجد نفسه، بصورة ما، في طريقه إلى المزرعة حاملًا علبة من رزمة الجندي على أحد جانبي نطاقه وقمقم الجني يرتج على الجانب الآخر.

حدث الأمر نفسه في الصباحين التاليين أيضًا، بفارق صغير أنهما ناما خلال هاتين الليلتين تحت أكوام التبن واشترى عبدالله رغيفًا طازجًا لذيذًا في أحد الصباحين وبيضًا في الآخر. وفي طريق عودته إلى كومة التبن الصباح الثالث، حاول أن يعرف سبب نكده وشعوره بالغبن أكثر فأكثر.

لقد كان متخشبًا متعبًا واهنًا طوال الوقت، ولم يكن سبب ذلك قضاؤه جل الوقت في الركض لقضاء حاجات قطتي الجندي، رغم أن الأمر لا يخلو من هذا. كان شيء منه خطأ بُهرة الليل، إذ عرف عبدالله أن عليه أن يكون شاكرًا لها لدفاعها عنهما مع العسس. كان شاكرًا، لكنه لم يزل لم يعتد بُهرة الليل. فهي تركب كتفيه بازدراء كل يوم وتدبرت أمرها لتبين أن عبدالله، في رأيها، لم يكن إلا حصانًا، وشقّ عليه تقبّل ذلك من حيوان.

فكر عبدالله في هذا الأمر وغيره طوال ذلك اليوم، أثناء قطعه دروب الريف وبُهرة الليل ملتفة بأناقة حول عنقه والجندي يتقدمهما

سعيدًا. ليس السبب أنه لا يحب القطط، فقد اعتادها الآن. بل إنه أحيانًا وجد صغيرون لطيفًا بقدر ما أحبه الجندي. كلا، إن مزاجه السيئ سببه الأسلوب الذي ظل به الجندي والجني بينهما يؤجلان بحثه عن زهرة في الليل. ولولا حذر عبدالله، لوجد نفسه يقطع حارات الريف ما بقي من حياته من دون الوصول إلى كنغزبري أبدًا. وحين يصل إلى هناك، ما زال عليه العثور على ساحر. كلا، هذا لا يجدي نفعًا.

في تلك الليلة، وجدا أطلال برج حجري يخيمان فيه، وكان هذا أفضل بكثير من أكوام التبن. فقد أشعلا النار وأكلا طعامًا ساخنًا من علب الجندي، وشعر عبدالله بالدفء والجفاف أخيرًا، فابتهج.

كان الجندي حذرًا أيضًا، فقد جلس مستندًا إلى الجدار وصغيرون نائم في قبعته قربه ونظر إلى الغروب. «كنت أفكر»، قال. «ستحصل على أمنية من صديقك السديمي الأزرق غدًا، صحيح؟ أتعرف أكثر أمنية عملية تطلبها؟ عليك أن تتمنى عودة البساط السحري. ثم نستطيع المتابعة حقًا».

«وسيماثلها سهولة أن نتمنى أن ينقلنا مباشرة إلى كنغزبري، يا جندي المشاة الذكي»، قال عبدالله بشيء من العبوس إن أردنا قول الحق.

«آه نعم، لكني بت أفهم ذلك الجني وأعلم أنه سيعبث بتلك الأمنية إن استطاع»، قال الجندي. «ما أريد قوله إنك تعرف كيف

تشغّل ذلك البساط، وتستطيع أخذنا إلى هناك بأقل المتاعب وتحتفظ بأمنية للحالات الطارئة».

بدا هذا معقولًا، غير أن عبدالله اكتفى بالنخير، لأن الأسلوب الذي نصح به الجندي عبدالله جعله يرى الأمور بصورة جديدة تمامًا. صحيح أن الجندي فهم الجني، فقد كانت هذه طباعه إذ هو خبير في جعل الآخرين يفعلون ما يريد. والكائن الوحيد الذي استطاع أن يجعل الجندي يفعل ما يريد كانت بُهرة الليل، وبُهرة الليل فعلت أشياء لا تريدها لأن صغيرون أراد شيئًا. وهذا يجعل الهر في قمة التسلسل الهرمي. هر! خطر لعبدالله. وما دام الجندي قد فهم الجني، والجني يعلو عبدالله رتبة من غير ريب، فهذا يجعل عبدالله في القاع. لا عجب أنه يشعر بالغبن! لم يخفف عنه أن يدرك أن الأمور كانت هكذا تمامًا مع أقارب زوجة أبيه الأولى.

لذا اكتفى عبدالله بالنخير، الذي يعد في زنزيب وقاحة صادمة، والجندي غافل عن هذا. فأشار إلى السماء «غروب ثانٍ جميل. انظر، تلك قلعة أخرى».

كان الجندي محقًا، فقد كان في السماء ألق من بحيرات صُفر، وجزر وجروف، ولسان نيلي من الغيوم له غيمة مربعة كالحة كالحصن فيها. «هذه ليست كالقلعة الأخرى»، قال عبدالله، إذ شعر أن الوقت حان لفرض رأيه.

«قطعًا. فأنت لا ترى الغيمة نفسها مرتين»، قال الجندي.

تدبر عبدالله أمره ليكون أول من يستيقظ الصباح التالي. كان الفجر ما يزال يتألق في السماء عندما نهض، وأمسك بقمقم الجني وأخذه بعيدًا عن الأطلال التي كان فيها مخيمهما. «أيها الجني»، قال. «اظهر».

ظهرت خفقة من الدخان عند فم القمقم كالطيف متذمرة. «ما الأمر»، قال، «أين كل الحديث عن الجواهر والزهور وما إلى ذلك؟».

«لقد أخبرتني أنك لا تحبه، فأعرضت عنه»، قال عبدالله. «لقد بت واقعيًا الآن. إن الأمنية التي أود قولها تتوافق مع نظرتي الجديدة».

«آه»، قالت نفثة الجني. «ستطلب استعادة البساط السحري».

«كلا»، قال عبدالله. أثار هذا عجب الجني فخرج من القمقم ونظر إلى عبدالله بعينين متسعتين، بدتا في نور الفجر قاسيتين لامعتين كعيني ابن آدم. «سأشرح لك»، قال عبدالله. «هكذا. إن عزم القدر واضح في أن يؤخر بحثي عن زهرة في الليل، وهذا رغم حقيقة أن القدر قضى بزواجي منها. وأي محاولة لمعارضة القدر تجعلك تتأكد أن أمنيتي لا تجدي نفعًا لأي أحد، وتضمن عادة أن يلاحقني راكبو جِمال أو خيول، أو يجعلني الجندي أضيع أمنية. وما دمت قد سئمت من لؤمك وحصول الجندي على مبتغاه باستمرار، فلقد عزمت على تحدي القدر. أود هدر أمنية كل يوم عامدًا من اليوم فصاعدًا،

فسيضطر القدر عندئذ إلى التدخل، وإلا لن تتحقق النبوءة المتعلقة بزهرة في الليل أبدًا».

«إنك تتصرف كالأطفال»، قال الجني، «أو كالأبطال، أو لعلك مجنون».

«كلا، واقعي»، قال عبدالله. «ثم إني سأتحداك بهدر الأمنيات بصورة قد تفيد أحدًا ما».

بدا الجني هازئًا جدًّا بهذا. «وما أمنيتك اليوم؟ بيوت للأيتام؟ بصر للعميان؟ أو لعلك تريد سلب كل المال في العالم من الأثرياء وتقديمه إلى الفقراء؟».

«كنت أفكر»، قال عبدالله، «إنني أود أن أتمنى أن تعيد اللصين اللذين حولتهما ضفدعين إلى طبيعتهما».

وارتسمت على وجه الجني فرحة خبيثة. «يمكنك أن تطلب أسوأ. سأحقق لك هذه الأمنية بكل سرور».

«وما عيب هذه الأمنية؟»، سأل عبدالله.

«ليس كبيرًا»، قال الجني. «إن جنود السلطان يخيمون في تلك الواحة هذه اللحظة، فالسلطان واثق بأنك لم تزل في الصحراء في مكان ما، ورجاله يفتشون المنطقة كاملة بحثًا عنك، لكني واثق بأنهم سيجدون اللصين في لحظة، كي يثبتوا للسلطان إخلاصهم».

فكر عبدالله في هذا. «ومن في الصحراء أيضًا سيكون في خطر من بحث السلطان؟».

نظر الجني إليه جانبيًا. «أتتحرق شوقًا إلى إهدار أمنية؟ لا أحد سوى بضعة نساجين للبُسُط وناسك... وجمال وكلبه قطعًا».

«آه»، قال عبدالله. «سأهدر هذه الأمنية على جمال وكلبه إذن. أتمنى أن ينقل جمال وكلبه في الحال إلى حياة رغد ورخاء مثل -دعني أفكر- أجل، مثل طاهٍ في قصر وكلب حراسة في أقرب قصر ملكي عدا زنزيب».

«لقد صعّبت الأمر كثيرًا»، قال الجندي مشفقًا، «لينجم الشر عن تلك الأمنية».

«وهذا مرادي»، قال عبدالله. «لو استطعت معرفة كيف أجعل ولا أمنية من أمانيَّ ينجم عنها شر لكان في هذا راحة عظيمة».

«ثمة أمنية واحدة يمكنك طلبها لتحقق ذلك»، قال الجني.

وبدا عليه الحزن، وأدرك عبدالله من ذلك ما قصده. أراد الجني أن يتحرر من السحر الذي ألزمه البقاء في القمقم. سيكون هدر أمنية على طلب كهذا أمرًا سهلًا، كما خطر لعبدالله، ولكن شرط أن يكون الجني شاكرًا فيساعده في العثور على زهرة في الليل بعدها. ولم يكن هذا بالأمر الوارد مع هذا الجني. ثم إنه إن حرر الجني سيتعين عليه أن يتخلى عن تحديه للقدر الذي عزم عليه. «سأفكر في هذه الأمنية لاحقًا»، قال. «أما أمنيتي اليوم فهي لجمال وكلبه، هل هما في مأمن الآن؟».

«أجل»، قال الجني عابسًا. ومن النظرة على وجهه الدخاني

إذ هو يعود إلى قمقمه، راود عبدالله إحساس مقلق بأنه يدبر أمرًا لينجم الشر عن هذه الأمنية أيضًا، ولكنه لم يستطع التأكد من ذلك.

استدار عبدالله ليجد الجندي يراقبه. لم يعرف ما تناهى إلى سمع الجندي، لكنه استعد للشجار. ولكن لم يقل الجندي سوى «لا تتبع عقلك في كل هذا»، قبل أن يقترح أن يواصلا سيرهما ليجدا مزرعة يشتريان منها فطورهما.

وضع عبدالله بُهرة الليل على كتفيه وانطلقا في سيرهما. وسارا طوال النهار في الحارات العميقة، ورغم عدم وجود أثر للعسس، فلم يبدُ أنهما يقتربان من كنغزبري. بل إن الجندي حين سأل رجلًا يحفر خندقًا كم تبعد كنغزبري، قيل له إنها مسير أربعة أيام.

القدر! خطر لعبدالله.

الصباح التالي ذهب إلى الجانب الآخر من كومة التبن حيث ناما وتمنى أن يعود الضفدعان في الواحة رجالًا.

استاء الجني كثيرًا. «لقد سمعتني أقول إن أول من يفتح قمقمي سيتحول ضفدعًا. أتريد مني أن أبطل عملي الجميل؟».

«أجل»، قال عبدالله.

«دون اعتبار لوجود رجال السلطان هناك وسيشنقونهما من غير شك؟»، سأل الجني.

«أظن»، قال عبدالله متذكرًا تجربته حين كان ضفدعًا، «أنهما يفضلان أن يكونا رجلين رغم ذلك».

«أوه جميل جدًّا إذن!»، قال الجني نادبًا. «أتدرك أنك أفسدت عليَّ انتقامي؟ وما همّك؟ إنني لست في نظرك إلا أمنية يومية في قمقم!».

الفصل الرابع عشر

وفيه نعرف كيف يظهر البساط السحري من جديد

مرة أخرى، استدار عبدالله ليجد الجندي يراقبه، لكن الجندي لم يقل شيئًا هذه المرة. كان عبدالله واثقًا كل الثقة بأنه يتحين فرصته.

ذلك اليوم، وهما يواصلان سيرهما، نجدت الأرض. وأفسحت الدروبُ الخضراء الغنَّاء المكانَ للطرق الرملية التي تحفها شجيرات يابسة ذات أشواك. وعلق الجندي مبتهجًا أنهما وصلا مكانًا مختلفًا أخيرًا، فاكتفى عبدالله بالنخير. كان عازمًا على ألا يمنح الجندي فرصة. بحلول الليل، كانا على براح واسع يطل على رقعة جديدة من السهول. وفي الأفق لاحت حُبيبة صغيرة قال الجندي، وهو لم يزل مبتهجًا، إنها كنغزبري.

ويعدما قررا التخييم دعا عبدالله، بابتهاج أكبر، ليرى صغيرون الأخاذ وهو يلعب بإبزيم حقيبته.

«من غير شك»، قال عبدالله. «فهو لا يفتنني أكثر من تلك الحُبيبة في أفق السماء التي قد تكون كنغزبري».

كان الغروب هائلًا أحمر ثانية. أثناء تناولهما العشاء، أشار الجندي إلى عبدالله ولفت انتباهه إلى غيمة كبيرة حمراء لها شكل القلعة. «أليست جميلة؟»، قال.

«إنها غيمة ليس إلا»، قال عبدالله، «وليس فيها أي ميزة جمالية».

«يا صديقي»، قال الجندي، «أحسبك تسمح لذاك الجني بالتأثير فيك».

«وكيف ذلك؟»، سأل عبدالله.

أشار الجندي بملعقته إلى الربوة السوداء البعيدة أمام الغروب. «أترى هناك؟»، قال. «كنغزبري. نفسي تحدثني الآن، وأظنك مثلي، أن الأمور ستبدأ بالتحرك حينما نصل، ولكننا لا نصل. ألا تظنني أفهم رأيك -أنت شاب خائب في الحب، عديم الصبر- ولا بد أن تفكر في أن القدر ضدك. اسمع مني، إن القدر لا يكترث جل الوقت، والجني ليس في جانب أحد شأنه شأن القدر».

«وكيف تعرف ذلك؟»، سأل عبدالله.

«لأنه يكره الجميع»، قال الجندي. «ربما كان هذا طبعه، رغم أني أقول إن الحبس في قمقم لا يفيد. ولكن لا تنسَ، أيًا كانت مشاعره، أن عليه أن يحقق لك أمنية دومًا. فلماذا تصعِّب الأمر على نفسك لتغيظ الجني؟ لماذا لا تتمنى أنفع المنيات، وتنال ما تريد وتتجاهل ما يفعله لينجم عنها شر؟ لقد كنت أقلب هذا الأمر ووجدت أن أيًا كان ما يفعله ذلك الجني لينجم الشر عن أمنيتك،

فإن أفضل ما تتمناه هو أن يعيد البساط السحري إليك». أثناء حديث الجندي، فوجئ عبدالله لما رأى بُهرة الليل ترتقي ركبتيه وتلتصق بوجهه وتخرخر، واعترف عبدالله أن ذلك سَرَّه كثيرًا. لقد كان يسمح لبُهرة الليل بالسيطرة عليه شأنها شأن الجني والجندي، ناهيك بالقدر. «إن تمنيت عودة البساط»، قال عبدالله، «فأنا مستعد للرهان على أن الشر الذي سيرسله الجني معه يفوق نفعه كثيرًا».

«أتراهن؟»، قال الجندي. «أنا لا أقاوم الرهان. أراهنك بقطعة ذهبية على أن خير البساط سيكون أكبر من شره».

«اتفقنا»، قال عبدالله. «وها قد عادت الأمور إلى ما تريد ثانية. يحيرني يا صديقي أنك لم تكن قائدًا لجيشك».

«وأنا أيضًا»، قال الجندي. «لكنت جنرالًا بارعًا».

سارا الصباح التالي في ضباب كثيف. كان كل مكان أبيض ورطبًا ومحال أن يرى المرء ما يقع خلف أقرب الشجيرات. التفّت بُهرة الليل على عبدالله مرتجفة، وكان لقمقم الجني هيئة واضحة العبوس حين وضعه عبدالله أمامهما.

«اخرج»، قال عبدالله. «أحتاج أن أقول أمنية».

«أستطيع تحقيقها من الداخل»، رد الجني بصوت مكتوم. «لا تعجبني هذه الرطوبة».

«حسن جدًّا»، قال عبدالله. «أتمنى أن يعود إليَّ بساطي السحري».

«حصل»، قال الجني. «وليلقنك هذا درسًا بألا تراهن رهانات سخيفة!».

نظر عبدالله إلى الأعلى ومن حوله لوهلة مترقبًا ولكن لم يحدث شيء، ثم هبت بُهرة الليل واقفة. وبرز وجه صغيرون من حقيبة الجندي، وقد نصَّب أذنيه جهة الجنوب. وحين نظر عبدالله إلى ذلك الاتجاه، ظن أنه يسمع همسًا خفيفًا، قد يكون صوت الريح أو شيئًا يتحرك في الضباب. وبعد قليل التف الضباب في دوامات والتف أكثر. فلاح في الأفق المستطيل الرمادي للبساط في الأعلى وتموَّج نازلًا إلى الأرض قرب عبدالله.

كان عليه مسافر، رجل شرير له شارب كبير ملتف على البساط نائم بهدوء. كان أنفه الشبيه بالمنقار مضغوطًا على البساط، لكن عبدالله رأى الحلقة الذهبية، يخفي نصفها الشارب وثنية قذرة لعصبة الرأس. تشبثت إحدى يدي الرجل بمسدس مطلي بالفضة، وما من شك بأن هذا كان كابول عقبة مرة أخرى.

«أظنني فزت بالرهان»، غمغم عبدالله.

تلك الهمهمة -أو لعلها برودة الضباب- قد جعلت اللص يتململ ويهمهم قلقًا. وضع الجندي إصبعه على شفتيه وهز رأسه. وأومأ عبدالله. لو كان وحده، لتساءل ماذا يفعل بحق السماء، ولكن بوجود الجندي شعر أنه كفؤ لكابول عقبة. وبقدر ما استطاع من هدوء شخر شخيرًا لطيفًا وهمس للبساط «تعالَ من تحت ذلك الرجل وحلِّق أمامي».

سرت المويجات في البساط حتى حافته، ورأى عبدالله أنه يحاول طاعة أمره. واهتز هزة قوية ولكن جليٌّ أن وزن كابول عقبة ثقيل جدًّا فلا يتيح له الانزلاق من تحته. فجرب طريقة أخرى. علا في الهواء إنشًا وقبل أن يفهم عبدالله ما أراد فعله، اندفع من تحت اللص النائم.

«لا!» قال عبدالله، لكنه قالها متأخرًا جدًّا. ووقع كابول عقبة على الأرض بخبطة واستيقظ. واعتدل ملوحًا بمسدسه، ومزمجرًا بلغة غريبة.

بحذر وبروية أمسك الجندي البساط المدوَّم ولفه حول رأس كابول عقبة. «خذ المسدس»، قال، ممسكًا اللص المتلوي بذراعيه المفتولتين.

نزل عبدالله على ركبة واحدة وأمسك اليد القوية الملوحة بالمسدس، كانت يدًا شديدة القوة. لم يستطع عبدالله أخذ المسدس، بل تعلق باليد مرتطمًا، جيئة وذهابًا واليد تحاول إبعاده عنها. بجانبه كان الجندي يرتطم جيئة وذهابًا أيضًا، لقد كان كابول عقبة قويًّا قوة مذهلة. حاول عبدالله، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، أن يمسك بإحدى أصابع اللص ويفكها عن المسدس. لكن كابول عقبة زأر عندئذ ونهض فسقط عبدالله إلى الخلف والبساط ملفوف حوله بدلًا من أن يكون ملفوفًا حول كابول عقبة. تمسك الجندي وتمسك رغم أن كابول عقبة ظل ينهض، مرعدًا مثل سقوط السماء، وانتقل الجندي من الإمساك به بالذراعين إلى الإمساك بخصره ثم

أعلى ساقيه. صرخ كابول عقبة كأن صوته الرعد ونهض، حتى باتت كلتا ساقيه كبيرتين جدًّا فلا يمكن الإمساك بهما معًا، وانزلق الجندي إلى الأسفل حتى بات متمسكًا بإحداهما بخوف، تحت الركبة الهائلة. حاولت تلك الساق ركل الجندي وفشلت. عندئذ بسط كابول عقبة جناحين كبيرين جلديين وحاول الطيران. لكن الجندي ظل متشبثًا، رغم انزلاقه إلى الأسفل ثانية.

رأى عبدالله هذا وهو يحاول الخروج من تحت البساط، كما لمح بُهرة الليل تقف حامية لصغيرون، أكبر مما كانت عليه لدى مواجهة رجال العسس. لكنها لم تكن كبيرة كفاية، فالواقف هناك كان أعتى جبابرة الجن، اختفى نصفه في الأعلى في الضباب، الذي يحوله إلى دوامات من الدخان بجناحيه، عاجزًا عن الطيران لأن الجندي يثبت إحدى قدميه الضخمتين ذواتي المخالب.

«عرّف بنفسك يا أعتى الجبابرة!»، صاح عبدالله في الضباب. «بحق الأختام السبعة العظيمة، أستحلفك أن تكف عن المحاولة والتعريف بنفسك!». كف الجن عن الهدير وأوقف الرفرفة العنيفة لجناحيه. «أتستحلفني أيها الفاني؟»، جاء الصوت الغاضب من علٍ.

«إني لأستحلفك»، قال عبدالله. «قل ماذا كنت تفعل ببساطي وفي شكل أرذل الرحّل. لقد أخطأت في حقي مرتين!».

«حسن جدًّا»، قال العفريت. وأخذ يربض متثاقلًا.

«يمكنك تركه الآن»، قال عبدالله للجندي الذي لم يزل متعلقًا

بالقدم الكبيرة، جاهلًا بالقوانين التي تحكم العفاريت. «عليه أن يبقى ويجيبني الآن».

أفلت الجندي القدم وجلًا ومسح العرق عن وجهه. لم يبدُ مطمئنًا لرؤية العفريت يطوي جناحيه ويربض. لم يكن هذا بالعجيب، فقد كان العفريت طويلًا بارتفاع بيت حتى بعد أن ربض وكان الوجه الذي لاح للعين في الضباب ماكرًا. نظر عبدالله نظرة أخرى إلى بُهرة الليل، وقد عادت إلى حجمها، تركض نحو الشجيرات وصغيرون يتدلى من فمها. لكن وجه العفريت استرعى جل انتباهه، فلقد رأى هذه النظرة البنية الفارغة والحلقة الذهبية في ذلك الأنف المعقوف -وإن لوقت قصير- من قبل، عندما حُملت زهرة في الليل من الحديقة.

«تصحيح»، قال عبدالله. «لقد أخطأت في حقي ثلاث مرات».

«أوه، بل أكثر من ذلك»، تمتم العفريت برفق. «مرات عديدة حتى إني نسيت عددها».

وجد عبدالله نفسه عندئذ يطوي ذراعيه غاضبًا. «أفصح».

«بكل سرور»، قال العفريت. «لقد كنت أرجو حقًّا أن يسألني أحد، رغم أني افترضت أن الأسئلة سيطرحها عليَّ دوق فرقطان أو أمراء ثاياك الثلاثة الأنداد، عوضًا عنك. ولكن لا أحد من هؤلاء أظهر من العزم ما يكفي، وهذا يثير عجبي، لأنك لم تكن قط شاغلي الأهم، ولا واحد منكم. اعلم إذن أني أحد أعظم جماعة الجن الأخيار واسمي هاسرُل».

«لم أعلم بوجود جن أخيار»، قال الجندي.

«أوه بلى، أيها الشمالي الغر»، قال عبدالله. «سمعت هذا الاسم يوضع في مقام عالٍ كمقام الملائكة».

عبس العفريت، ويا له من منظر مخيف. «معلوماتك خاطئة أيها التاجر»، دمدم. «إنني أعلى مقامًا من الملائكة. اعلم أني يأتمر بأمري مئتان من الملائكة الأقل كبرياء. ويعملون حراسًا لمداخل قلعتي».

أبقى عبدالله ذراعيه مطويتين ونقر بقدمه. «وما دامت هذه هي الحال»، قال، «فأفصح لماذا وجدت سلوكك نحوي البعيد كل البعد عن الملائكي لائقًا».

«لست الملام أيها الفاني»، قال العفريت. «لقد دعتني الحاجة. افهم الأمر كله واصفح. اعلم أن أمي، العفريتة العظيمة دزرا، في لحظة غفلة سمحت أن يفتنها عفريت من جماعة الجن الأشرار قبل عشرين عامًا. ثم ولدت أخي دَلزل الذي كان أبيض ضعيفًا خفيف الوزن، لأن الشر والخير لا يجتمعان. لم تطق أمي دَلزل وأعطته لي لأربيه، فأغدقت عليه رعايتي حتى كبر. فلك أن تتخيل خوفي وحزني حين أدركت أنه ورث طباع الأب الشرير. وكان أول ما فعله، لما بلغ رشده أن سرق حياتي وخبأها، فجعلني بذلك عبدًا له».

«قل ثانية؟»، قال الجندي. «أتعني أنك ميت؟».

«أبدًا»، قال هاسرُل. «نحن معشر الجن مثلكم أيها الفانون، أيها الجاهل. نموت إذا عطبت قطعة صغيرة منا. ولهذا، أزال الجن بحكمتهم تلك القطعة الصغيرة من أجسامهم وخبؤوها، وهذا ما فعلت. ولكني حين علمت دلزل كيف يخبئ حياته، أخبرته بحب وطيش أين خبأت حياتي، فأخذ حياتي من فوره، مجبرًا إياي على إطاعة أوامره وإلا كان الموت نصيبي».

«ها قد وصلنا إلى الأمر»، قال عبدالله. «وكانت أوامره أن تخطف زهرة في الليل».

«تصحيح»، قال هاسرُل. «ورث أخي عقلًا عظيمًا من أمه، درزا العظيمة. لقد أمرني أن أخطف كل أميرة في العالم. ولو فكرت في الأمر لحظة لأدركت مغزاه. إن أخي في عمر الزواج، لكنه من أصل مختلط لن تقبل به أنثى من الجن. ولذا فهو مضطر إلى اللجوء إلى النساء الفانيات. ولكن لأنه من الجن، فلن تليق به قطعًا إلا نساء من أكرم الأصول».

«قلبي ينزف حزنًا على أخيك»، عقَّب عبدالله. «ألم يرضَ إلا بأن يخطف الكل؟».

«ولماذا لا يفعل؟»، سأل هاسرل. «إنه يأمر بقوتي الآن، وقد فكر في الأمر مليًا. ثم، لمَّا رأى أن أميراته لن يستطعن السير في الهواء كما نفعل نحن العفاريت، فقد أمرني أن أسرق له قلعة متحركة تعود لساحر في بلاد إنغري هذه يسكِن فيها عرائسه، ثم أمرني أن أبدأ باختطاف الأميرات. وهذا ما أنا منشغل بفعله، لكني من غير شك

أضع بعض الخطط لأجل نفسي. فكل أميرة أخطفها، أنوي أن أترك عاشقًا مجروحًا أو أميرًا محبطًا قد يقتنع بمحاولة إنقاذها. وكي يفعل العاشق ذلك، عليه أن يتحدى أخي وينتزع منه المخبأ السري لحياتي».

«وهنا يأتي دوري، أليس كذلك أيها الدساس الجبار؟»، سأله عبدالله ببرود. «أنا جزء من خطتك لتستعيد حياتك، صحيح؟».

«تقريبًا»، أجابه العفريت. «لقد بنيت آمالًا على وريث ألبريا أو أمير بيشستان، ولكن كلا الشابين انصرف إلى الصيد. بل إن جميعهم أظهروا همًا ضعيفة ومنهم ملك نورلان العالية، الذي لا يفعل شيئًا سوى محاولة تصنيف كتبه بنفسه، من غير مساعدة ابنته، وكانت فرصته أكبر من فرصتك. كانت نبوءة مولدك شديدة الإبهام في النهاية. وأعترف أني بعتك البساط بدافع من السخرية الخالصة...».

«لقد فعلت!»، قال عبدالله.

«نعم، سخرية من عدد أحلام اليقظة وطبيعتها التي تخرج من خيمتك»، قال هاسرل.

شعر عبدالله بوجهه يتقد غضبًا، رغم برودة الضباب.

«ثم»، أردف هاسرل، «عندما فاجأتني بهروبك من سلطان زنزيب، أعجبتني فكرة تقمص شخصية كابول عقبة لأجبرك على أن تعيش شيئًا من أحلام يقظتك حقيقة. أحاول عادة أن أختار مغامرات مناسبة لكل خاطب».

رغم حرج عبدالله، فلقد كاد يقسم أن عيني العفريت الكبيرتين البنيتين المذهبتين مالتا نحو الجندي. «وكم أميرًا تعسًا حركت حتى الآن، يا أيها العفريت الحاذق الظريف؟»، سأل.

«قرابة الثلاثين»، قال هاسرل، «ولكن أكثرهم لم يفعل شيئًا كما أخبرتك. وإني لأعجب من هذا، فأصولهم وصفاتهم أحسن بكثير من أصلك وصفاتك. غير أني أعزّي نفسي أنه ما زال عليَّ اختطاف مئة واثنتين وثلاثين أميرة».

«أحسب أن عليك أن ترضى بي»، قال عبدالله. «رغم أصلي الوضيع، فإن القدر يريده كذلك. أنا في موضع يخولني أن أؤكد لك هذا، إذ إني تحديت القدر أخيرًا في هذا الأمر».

ابتسم العفريت، وهو مظهر كريه بقدر مظهر عبوسه – وهز رأسه موافقة. «أعرف هذا»، قال. «ولهذا انحنيت لأمثل أمامك. عاد إليَّ اثنان من خدمي الملائكة البارحة، وقد شُنقا على هيئة رجلين. لم يكن أي منهما سعيدًا بهذا وكلاهما قال إن هذا صنيعك».

انحنى عبدالله. «ما من شك أنهما لو فكرا في الأمر، لوجداه أفضل من أن يكونا ضفدعين خالدين»، قال. «أخبرني الآن بأمر أخير، يا خاطف الأميرات الذكي. أخبرني أين أجد زهرة في الليل، ناهيك بأخيك دلزل».

اتسعت ابتسامة العفريت، وهذا ما زاد مظهره كراهية، إذ كشف عن عدد من الأنياب الشديدة الطول. وأشار إلى الأعلى

بإبهام شائك. «عجبًا أيها المغامر المتواضع، إنهما في القلعة التي رأيتها في الغروب هذه الأيام الأخيرة»، قال. «لقد كانت، كما أشرت، لساحر من هذه البلاد ولن يكون وصولك هناك بالأمر الهين، وإن وصلت، فلا بد أن تتذكر أنني عبد أخي ومجبر على نزالك».

«مفهوم»، قال عبدالله.

غرس العفريت يديه الضخمتين ذواتي المخالب في الأرض وبدأ يرفع نفسه. «كما عليَّ القول»، قال، «إن البساط مأمور بألا يتبعني. أتسمح لي بالرحيل الآن؟».

«لا، انتظر!»، صاح الجندي. وتذكر عبدالله في اللحظة نفسها أمرًا نسيه وسأل «وماذا عن الجني؟»، لكن صوت الجندي كان أعلى وغطى على صوت عبدالله. «انتظر أيها الوحش! هل تلك القلعة معلقة في الهواء هنا لسبب ما، أيها الوحش؟».

ابتسم هاسرل ثانية وتوقف، وتوازن على ركبة واحدة ضخمة. «يا لذكائك أيها الجندي. نعم، هذا صحيح. القلعة هنا لأني أعد العدة لاختطاف ابنة ملك إنغري، الأميرة ڤالريا».

«أميرتي!»، قال الجندي.

تحولت ابتسامة هاسرل إلى ضحكة، وأرجع رأسه إلى الوراء وجأر في الضباب. «أشك في ذلك أيها الجندي! أوه، أشك في ذلك! عمر هذه الأميرة أربع سنوات فقط. ولكن رغم أنها لن تكون بذات فائدة كبيرة لك، فإنك ستكون ذا فائدة عظيمة لي.

أرى أنك وصديقك من زنزيب بيدقين موضعهما حسن في رقعة شطرنجي».

«وماذا تعني؟»، سأل الجندي باستخفاف.

«لأن كليكما سيساعدني في اختطافها!»، قال العفريت، وقفز إلى الأعلى في الضباب في دوامة جناحيه، ضاحكًا بشدة.

الفصل الخامس عشر

وفيه يصل المسافران إلى كنغزبري

«إن سألتني»، قال الجندي، ملقيًا رزمته على البساط نزقًا، «ذلك المخلوق شرير مثل أخيه، إن كان له أخ أصلًا».

«أوه، له أخ، فالجن لا يكذبون»، قال عبدالله. «لكنهم يميلون إلى رؤية أنفسهم أعلى من الفانين، حتى الأخيار منهم. واسم هاسرل في قائمة الأخيار».

«كدت تخدعني!»، قال الجندي. «أين ذهبت بُهرة الليل؟ لا بد أنها خائفة حد الموت».

وأصدر ضجيجًا وهو يبحث عن بُهرة الليل خلف الأحراش فلم يحاول عبدالله أن يشرح أكثر عن تقاليد الجن. ثم إنه خشي أن يكون الجندي محقًّا. قد يكون هاسرل قطع الأيمان السبعة التي جعلته أحد خزنة الأخيار، لكن أخاه منحه العذر المناسب ليحنث بسبعتها. وسواء أكان هاسرل خيِّرًا أم غير ذلك، فقد كان واضحًا أنه يسلي نفسه كثيرًا.

حمل عبدالله قمقم الجني ووضعه على البساط. فسقط في الحال على جنبه وتدحرج. «لا، لا!» قال الجني من الداخل. «لن أركب هذا! ولماذا تظنني وقعت عنه قبلًا؟ أكره المرتفعات!».

«لا تبدأ!» قال الجندي. كانت بُهرة الليل ملفوفة حول ذراعه، تركل وتخمش وتعض، وتظهر بكل ما وسعها أن القطط والبسط الطائرة لا تجتمعان. وكان هذا في حد ذاته كافيًا ليثير استياء أي أحد، لكن عبدالله ظن أن كثيرًا من نكد الجندي عائد إلى أن الأميرة ڤاليريا لم تتجاوز الرابعة من عمرها. فقد كان الجندي يتخيل نفسه خاطبًا للأميرة ڤاليريا، ولكنه الآن يشعر بالحمق، ولا عجب.

أمسك عبدالله قمقم الجني بقوة شديدة وجلس على البساط. رغم أن الواضح كل الوضوح أنه قد فاز بلا جهد. صحيح أنهما استعادا البساط، ولكن ما دام اتباع العفريت ممنوعًا فلم يكن بذي جدوى في إنقاذ زهرة في الليل.

وبعد محاولات طويلة، استقر الجندي وقبعته وبُهرة الليل وصغيرون بأمان بصورة أو بأخرى على البساط أيضًا. «أعطه الأمر»، قال وقد احمر وجهه الأسمر.

نخر عبدالله. فارتفع البساط قدر قدم في الهواء، فعوت بُهرة الليل وتلوت واهتز قمقم الجني في يده. «أيها النجاد الأنيق المسحور»، قال عبدالله، «أيها البساط المجمّع من أصعب الرقى، أتوسل إليك أن تتحرك في سرعة هادئة نحو كنغزبري، ولكن استخدم الحكمة العظيمة المغزولة في نسيجك لتتأكد أن لن يرانا أحد في الطريق».

ارتقى البساط في الضباب مطيعًا، نحو الأعلى والجنوب. ضم الجندي بُهرة الليل في ذراعيه، وقال بصوت أجش راجف من القمقم «أيتعين عليك تزلفه هذا التزلف المقرف؟».

«هذا البساط»، قال عبدالله، «بخلافك، من سحر نقي فاخر يستمع إلى الكلام المنمق فحسب. إنه في جوهره شاعر بين البُسُط».

فسرت في أرجاء البساط عجرفة. إذ أبقى أطرافه مستقيمة بزهو ومضى بأناقة نحو الأمام في ضوء الشمس الذهبي فوق الضباب. فخرجت من القمقم نفثة زرقاء صغيرة واختفت بصرخة ذعر. «حسن، ما كنت لأفعلها!» قال الجني.

كان سهلًا على البساط أن يتخفى في البداية، فقد طار فوق الضباب، الذي كان تحتهم أبيض وصافيًا كالحليب. لكن الشمس ارتقت، وأخذت الحقول الخضراء المذهبة تظهر متلألئة عبره، ثم الشوارع البيضاء والخيول العابرة، كان صغيرون مأخوذًا، فوقف على الحافة ينظر إلى الأسفل وكاد ينقلب عن البساط منكسًا رأسه فأبقى الجندي يدًا على ذيله الصغير الكثيف. كان هذا جيدًا. انعطف البساط نحو خط من الأشجار ظهرت بعد نهر. وأنشبت بُهرة الليل مخالبها متشبثة وأفلح عبدالله في إنقاذ رزمة الجندي.

بدا الجندي مصابًا بدوار البحر. «أعليك أن تحرص كل هذا الحرص لئلا تُرى؟»، سأل وهم ينزلقون قريبًا من الأشجار مثل متشرد يتوارى في وشيع.

«أظن هذا»، قال عبدالله. «من واقع خبرتي، أن ترى هذا العقاب بين البُسُط يعني أن تتمنى سرقته»، وقص على الجندي حكاية راكب الجمل.

رأى الجندي أن عبدالله محق. «ولكنه سيؤخرنا»، قال. «أشعر أن علينا الوصول إلى كنغزبري وإنذار الملك بأن عفريت الجن يسعى خلف ابنته. يهب الملوك أعطيات كبيرة مقابل معلومات كهذه». لا شك أن الجندي، وقد اضطر إلى التخلي عن فكرة الزواج بالأميرة ڤالريا، بات يفكر في سبل أخرى لجمع ثروته.

«سنفعل ذلك، فلا تخف»، قال عبدالله ولم يأتِ على ذكر رهانهما هذه المرة أيضًا.

استغرق الوصول إلى كنغزبري جل النهار. فقد اتبع البساط الأنهار وانزلق من غابة إلى أجمة، ولم يسرع إلا لو كانت الأرض تحته خلاء. وفي وقت متأخر من بعد الظهيرة، وصلوا المدينة التي كانت مجموعة هائلة من الأبراج تحيطها الأسوار العالية وتكبر زنزيب بثلاث مرات، إن لم يكن أكثر. وأمر عبدالله البساط ليعثر لهم على نزل جيد قرب قصر الملك وأن ينزلهم في مكان ما لا يعرف فيه أحد وسيلة سفرهم.

أطاع البساط وانزلق فوق الأسوار مثل الأفعى. وظل بعد ذلك قريبًا إلى السطوح، متتبعًا شكل كل سطح، كما يتبع السمك المفلطح أعماق البحر. نظر عبدالله والجندي والقطتان أيضًا إلى الأسفل في عجب. فقد غصَّت الشوارع، واسعة كانت أو ضيقة،

بالناس الذين يلبسون الحلل الفاخرة والعربات الفخمة. وبدا كل بيت قصرًا في عين عبدالله، إذ رأى الأبراج والقباب والمحفورات الأنيقة، والقبيبات الذهبية والأفنية الرخامية التي كان سلطان زنزيب سيسر بالاستيلاء عليها. أما البيوت الفقيرة -إن جاز لك أن تسمي هذا الجمال فقرًا- فكانت مزينة بالنقوش الملونة الفائقة الجودة. وأما الأسواق، فقد جعلت فخامة بضائعها ووفرتها عبدالله يدرك أن بازار زنزيب كان رثًّا رديئًا. لا عجب أن السلطان تلهف إلى التحالف مع أمير إنغري!

كان النزل الذي وجده لهم البساط، قرب المباني الرخامية الرائعة وسط كنغزبري، قد كساه فنان بارع بالجص بأشكال فاكهة ناتئة، ثم لوَّنها بأروع الألوان البراقة وبطلاء الذهب. هبط البساط برفق على سطح مائل لإسطبل النزل، مخفيًا إياهم بمهارة بجانب البرج الذهبي ذي دوارة الرياح الذهبية في أعلاه. فجلسوا ونظروا من حولهم إلى كل البهاء وهم ينتظرون فراغ الفناء في الأسفل. كان في الأسفل خادمان ينظفان عربة ذهبية ويثرثران وهما يعملان.

كان جل ما قالاه عن صاحب هذا النزل، وهو رجل يحب المال من غير شك. ولكن بعد فراغهما من الشكوى من أجريهما القليلين قال أحدهما: «أمن أخبار عن الجندي السترانغي الذي نهب كل أولئك الناس من الشمال؟ قال لي أحدهم إنه قادم إلى هنا».

فرد عليه الآخر «إنه حريص على القدوم إلى كنغزبري، كلهم

يفعلون هذا. لكنهم ينتظرونه عند بوابات المدينة، لن يتمكن من الابتعاد».



التقت عينا الجندي بعيني عبدالله.

همس عبدالله «أعندك ثياب أخرى؟».

هز الجندي رأسه إيجابًا ونبش رزمته. فأخرج سريعًا قميصين كثياب الفلاحين مطرزين تطريزًا مقصبًا على الصدر والظهر، فتساءل عبدالله كيف حصل على هذين.

«من حبل غسيل»، همس الجندي مخرجًا فرشاة ثياب وموسى حلاقة. هناك على السطح، غيّر ثيابه ولبس أحد القميصين وبذل جهدًا في تنظيف بنطاله دون إحداث صوت. كان أكثر الأجزاء ضجيجًا لَمّا حاول أن يحلق دون شيء إلا الموسى. وظل الخادمان ينظران ناحية الكشط الجاف القادم من السطح.

«لا بد أنه طائر»، قال أحدهما.

لبس عبدالله القميص الثاني فوق سترته، التي تشبه الآن أي شيء سوى أبهى حلله. لقد شعر بالحر هكذا، لكنه لم يستطع أن يخرج النقود المخبأة في سترته من دون أن يعرف الجندي كم يملك. وسرح شعره بفرشاة الثياب، ورتب شاربه -كأنما نبتت فيه اثنتا عشرة شعرة الآن- ثم نظف بنطاله بفرشاة الثياب أيضًا. وبعدما انتهى، ناول الجنديُّ الموسى عبدالله ومد جديلته بصمت.

«تضحية عظيمة، لكنها ذكية كما أحسب يا صديقي»، همس

عبدالله. لقد قطع الجديلة وخبأها في دوارة الرياح الذهبية. لقد كان هذا تغييرًا كبيرًا، فقد بدا الجندي مزارعًا غنيًا كث الشعر، ورجا عبدالله أن يبدو أخا المزارع الصغير.

أثناء ذلك، أنهى الخادمان تنظيف العربة وأخذا يدفعانها إلى مرآب العربات. وأثناء مرورهما تحت السطح الذي هبط عليه البساط سأل أحدهما «وما قولك في هذه الحكاية أن أحدهم يحاول خطف الأميرة؟».

«حسن، أظنها حقيقية»، قال الآخر، «إن كان هذا سؤالك. يقولون إن ساحر البلاط قد جازف كثيرًا لإرسال التحذير، يا له من مسكين، وهو الذي لا يغامر لأجل شيء».

التقت عينا الجندي بعيني عبدالله مرة أخرى، ولفظ فمه شتيمة قاسية. «لا عليك»، همس عبدالله. «ثمة طرق أخرى لنيل المكافأة».

وانتظرا حتى قطع الخادمان الفناء ودخلا النزل. ثم طلب عبدالله من البساط أن يهبط إلى الفناء، ففعل طائعًا. حمل عبدالله البساط ولف قمقم الجني داخله، وحمل الجندي رزمته والقطتين. ودخلوا النزل محاولين أن يبدو عليهما الغلظة والاحترام.

التقاهم صاحب النزل هناك، ولما كان عبدالله يقظًا إلى ما قاله الخادمان، فقد التقاه حاملًا قطعة ذهبية بين إصبعه وإبهامه. تنبه صاحب النزل إلى ذلك، وحملقت عيناه المتحجرتان بالقطعة الذهبية بتركيز جديد جعل عبدالله يشك في أنه لم يرَ وجهيهما. وكان عبدالله

شديد التهذيب، وكذا كان صاحب النزل. وقد أخذهم إلى غرفة فسيحة جميلة في الطابق الثاني، ووافق على إرسال العشاء إليهما في الأعلى وعلى تجهيز الحمام.

«وستحتاج القطتان...»، بدأ الجندي.

فركل عبدالله كاحل الجندي بقوة. «وهذا كل شيء، يا أسد أصحاب النُزل»، قال. «ولو استطاع طاقمك النشط المتيقظ أن يأتي لنا بسلة ووسادة وطبق من السلمون، يا أكثر المضيفين عونًا، ستجزِل الساحرة القوية التي سنسلم إليها هاتين القطتين الموهوبتين جدًّا غدًا العطاء لأي امرئ يجلب هذه الأغراض».

«سأرى ما يسعني فعله يا سيدي»، قال صاحب النزل. فنفحه عبدالله قطعة ذهبية بفتور. انحنى الرجل بقوة وتراجع خارجًا من الغرفة، تاركًا عبدالله يشعر بالرضا الشديد عن نفسه.

«لا حاجة بك إلى أن تبدو متعجرفًا!»، قال الجندي غاضبًا. «وماذا يفترض بنا أن نفعل الآن؟ فأنا رجل مطلوب هنا والملك يعرف كل شيء عن العفريت».

دغدغ مشاعر عبدالله معرفته أنه المسيطر على الأمور الآن بدلًا من الجندي. «آه، ولكن أيعرف الملك بوجود قلعة مليئة بالأميرات المختطفات تحوم في الأعلى لاستقبال ابنته؟»، قال. «أنت تنسى يا صاحبي أن الملك لا يستطيع التكلم إلى العفريت شخصيًّا. بوسعنا استغلال هذا الأمر».

«كيف؟»، سأل الجندي. «أتستطيع التفكير في وسيلة نمنع بها العفريت من اختطاف الطفلة؟ أو وسيلة ندخل بها القلعة لأجل هذا؟!».

«لا، ولكن يبدو لي أن ساحرًا قد يعرف هذه الأمور»، قال عبدالله. «أرى أن علينا تعديل فكرتك السابقة. وعوضًا عن العثور على واحد من سحرة الملك والتضييق عليه، فلعلنا نسأل عن أمهر السحرة وندفع إليه ليساعدنا».

«حسن، ولكن عليك أن تفعل ذلك»، قال الجندي. «أي ساحر يتقن عمله سيعرف أني سترانغي من فوره ويستدعي العسس قبل أن أتمكن من الفرار».

جلب صاحب النزل طعام القطتين بنفسه، ودخل مسرعًا يحمل وعاء من القشدة، وسمكة سلمون مخلية من الحسك بحذر وطبقًا من صغار الرنغة. وتبعته زوجته، امرأة متحجرة العينين مثله، تحمل سلة ناعمة من الأسل ووسادة مطرزة. فحاول عبدالله ألا يبدو متعجرفًا مرة أخرى. «جزيل الشكر لكما يا أشهر أصحاب النزل»، قال. «سأبلغ الساحرة عن عظيم اهتمامكما».

«هذا صحيح يا سيدي»، قالت صاحبة النزل. «فنحن في كنغزبري نعرف كيف نحترم السحرة».

فانتقل عبدالله من العجرفة إلى المذلة، فقد أدرك الآن أنه كان عليه التظاهر بأنه ساحر. فأفصح عن مكنوناته قائلًا «أرجو أن

تكون هذه الوسادة محشوة بريش الطاووس فقط. فالساحرة نيّقة جدًّا».

«نعم يا سيدي»، قالت صاحبة النزل. «أعرف هذا جيدًا».

سعل الجندي، ففهم عبدالله وقال «أنا وصديقي، إلى جانب القطتين، حُمِّلنا رسالة إلى ساحر. ونفضّل أن نسلّمها لساحر البلاط، لكنا سمعنا أقاويل عن الحظ التعس الذي أصاب ساحر البلاط».

«هذا صحيح»، قال صاحب النزل منحيًا زوجته جانبًا. «لقد اختفى واحد من سحرة البلاط يا سيدي. ولكن لحسن الحظ لم يزل عندنا اثنان. أستطيع أن أرشدك إلى ساحر البلاط الآخر الساحر سولمن إن شئت يا سيدي»، ونظر نظرة ذات مغزى إلى يدي عبدالله.

تنهد عبدالله وأخرج أكبر القطع النقدية عنده، وكان هذا المبلغ المناسب. فدلّه صاحب النزل بحرص وأخذ القطعة الفضية، واعدًا بتحضير العشاء والحمام سريعًا. كانت مياه الحمام ساخنة والعشاء لذيذًا، فسرّ عبدالله. أثناء اغتسال الجندي وتنظيفه صغيرون، نقل عبدالله نقوده من السترة إلى حزام المال وهذا ما أشعره بارتياح أكبر.

شعر الجندي بالارتياح أيضًا، فقد جلس بعد العشاء رافعًا قدميه على الطاولة، يدخن غليون الصلصال الطويل. وقد حل رباط حذائه من قمقم الجني مبتهجًا ولوح به لصغيرون ليلعب به.

«لا شك في هذا»، قال. «فالمال له سطوة في هذه المدينة. هل ستتحدث إلى ساحر البساط هذا المساء؟ كلما أسرعت كان أفضل في نظري».

وافقه عبدالله. «أتساءل عن أجره»، قال.

«كبير»، قال الجندي. «إلا إن استطعت القول إنك تسديه صنيعًا بأن تقص عليه ما قاله العفريت. كل شيء»، واصل قوله متفكرًا، مدورًا رباط الحذاء بعيدًا عن مخالب صغيرون المنقضة. «أرى ألا تخبره عن الجني أو البساط إن استطعت إلى ذلك سبيلًا. فرجال السحر يحبون الأشياء السحرية كما يحب صاحب النزل الذهب. ولا تريده أن يطلب هذين أجرًا له. لم لا تتركهما هنا عند ذهابك؟ سأحرسهما لك».

تردد عبدالله. بدا الكلام معقولًا، لكنه لم يثق بالجندي.

«بالمناسبة»، قال الجندي. «أدين لك بقطعة ذهبية».

«حقًّا؟»، قال عبدالله. «هذا أكثر الأخبار عجبًا أسمعه منذ قالت لي زهرة في الليل إني امرأة!».

«رهاننا»، قال الجندي. «لقد جلب البساط عفريت الجن، وجلب معه من المتاعب أكبر مما يطيق الجني عادة. وأنت تفوز، إليك»، وألقى إلى عبدالله بقطعة ذهبية عبر الغرفة.

أمسك بها عبدالله ودسها في جيبه وضحك. كان الجندي نزيهًا، على طريقته. فنزل الدرج مبتهجًا، تملأ رأسه أفكار لحاقه بزهرة في

الليل قريبًا، فصادفته صاحبة النزل وأخبرته ثانية كيف يصل إلى بيت الساحر سولمن، فخرج وقد نقدها قطعة فضية أخرى بلا تردد.

لم يكن البيت ببعيد عن النزل، لكنه يقع في الحي القديم، وهذا يعني أن الطريق إليه سيكون عبر زقاقات صغيرة محيرة وباحات خفية. كان هذا وقت الشفق، وقد احتلت السماء الزرقاء الداكنة فوق القباب والأبراج نجمة أو نجمتان كبيرتان سائلتان، لكن كنغزبري مُنارة بكرات فضية كبيرة من المصابيح تطفو في الأعلى كالأقمار.

كان عبدالله ينظر إليها، متسائلًا إن كانت تلك آلات سحرية، حين لمح ظلًّا أسود ذا أربعة أرجل يمشي على السطوح بجانبه. قد تكون أي قطة سوداء خرجت لتصيد طعامها في الشوارع المرصوفة، لكن عبدالله عرف أنها بُهرة الليل، فلا يمكن أن يخطئها من مشيتها. بادئ الأمر، لما اختفت في الظل الأسود العميق لقمّة مسنمة، ظن أنها تلاحق حمامة جاثمة لتصيد طعامًا غير مناسب آخر لصغيرون. لكنها عاودت الظهور عندما بلغ منتصف الطريق من الزقاق التالي، تتسلق على امتداد متراس فوقه، فظن أنها تتبعه.

ودخل الفناء الضيق ذا الأشجار الموضوعة في أحواض في وسطه وآخره ورآها تقفز في السماء لتدخل الفناء أيضًا، ولم يعلم السبب. وظل يراقبها لما بلغ نهاية الزقاق التالي، لكنه لم يرها إلا مرة واحدة على قوس فوق باب. وحين دخل الباحة المرصوفة بالحصى

حيث يقع بيت ساحر البلاط، لم يجد لها أثرًا. رفع عبدالله كتفيه وتقدم نحو باب البيت.

كان بيتًا أنيقًا صغيرًا له نوافذ زجاجها معين الشكل وعلى جدرانه القديمة غير المنتظمة رسمت أشكال سحرية متداخلة. فقد كانت أبراج شاهقة من اللهب الأصفر تضطرم في نصب نحاسية على جانبي الباب الأمامي. أمسك عبدالله بالمقرعة التي كانت وجهًا ينظر شزرًا وفي فمه حلقة، وقرع الباب بقوة.

فتح الباب خادمٌ له وجه طويل صارم. «أخشى أن الساحر شديد الانشغال يا سيدي»، قال. «ولا يستقبل زبائن إلى أجل غير مسمى»، وأخذ يغلق الباب.

«كلا، انتظر أيها الخادم المخلص وأروع الخدم المبززين!»، قال عبدالله معترضًا. «ما سأقوله ليس بأقل شأنًا من الخطر المحدق بابنة الملك!».

«يعرف الساحر بالموضوع كله يا سيدي»، قال الرجل، وتابع إغلاقه للباب.

فوضع عبدالله قدمه في الفراغ برشاقة. «يجب أن تسمعني، أيها الخادم اللبيب»، قال، «جئت...».

ومن خلف الخادم قال صوت امرأة شابة «لحظة يا مانفرد. أعرف أن هذا مهم»، فانفتح الباب ثانية.

ففغر عبدالله فاه حالما اختفى الخادم من أمام الباب وعاد إلى

الظهور في الردهة داخلًا. فقد أخذ محله عند الباب شابة بارعة الجمال لها عقيصة سوداء ووجه مشرق. رأى عبدالله منها ما يكفي في نظرة واحدة ليدرك أنها، بأسلوبها الأجنبي الشمالي، جميلة بقدر زهرة في الليل، لكنه شعر بعدئذ بوجوب أن يغض النظر عنها باحترام. كانت حاملًا. النساء في زنزيب لا يظهرن بهذه الحال المثيرة، ولم يعرف عبدالله أين ينظر.

«أنا زوجة الساحر، لتي سولمن»، قالت الشابة. «فيم مجيئك؟».

انحنى عبدالله، وجعله ذلك يبقي عينيه على عتبة الباب. «يا أيها القمر المزهر على كنغزبري الجميلة»، قال، «اعلمي أني عبدالله، ابن عبدالله، تاجر بساط من زنزيب البعيدة، أحمل أخبارًا يود زوجك سماعها. أبلغيه يا بهاء بيت الساحر، أنني تحدثت هذا الصباح إلى العفريت المارد هاسرل حول ابنة الملك الغالية».

لم تعرف لتي سولمن طباع أهل زنزيب من غير ريب، فقالت «يا رب السماوات! أعني يا لتهذيبك! وأنت تقول الحقيقة، ألست كذلك؟ أرى أن عليك التحدث إلى بِن في التو واللحظة. ادخل من فضلك».

فتراجعت عن الباب لتفسح الطريق لدخول عبدالله، فخطا خطوة إلى الأمام داخلًا البيت مخفضًا نظره. ولما فعل هبط شيء على ظهره، ثم حلق ثانية بعد شق كبير من المخالب، وظل يمشي على رأسه ليحط بخبطة على جبين لتي. وملأ المكان صوت مثل صوت الرافعة المعدنية.

«بُهرة الليل!»، قال عبدالله غاضبًا، متعثرًا إلى الأمام.

«صوفي!»، صرخت لتي وهي تتعثر إلى الوراء والقطة بين ذراعيها. «أوه يا صوفي، لقد قلقت حد الموت! مانفرد، استدع بن حالًا. لا يهمني ما يفعله، هذه حالة عاجلة!».

الفصل السادس عشر

وفيه تقع أشياء غريبة لبُهرة الليل وصغيرون

وقع اضطراب وصخب كبيران. وقد ظهر خادمان آخران لحق بهما شاب ثم شاب آخر يلبسون ثيابًا زرقًا طويلة، كأنهم تلاميذ الساحر. ركض كل هؤلاء الناس، أما لتي فقد ركضت جيئة وذهابًا إلى الردهة وبُهرة الليل بين ذراعيها، تصرخ بأوامرها. في خضم هذا كله، وجد عبدالله مانفرد يقوده إلى مقعد ويقدم إليه كأس نبيذ بحفاوة. ولمَّا كان هذا ما يفترض بعبدالله أن يفعله، فقد جلس ورشف النبيذ، دهشًا من الفوضى.

وأثناء تفكيره بأنها ستدوم إلى الأبد، توقف كل شيء. فقد ظهر من مكان ما رجل طويل آمر يلبس ثوبًا أسود. «ما الذي يحدث بحق السماء؟»، قال هذا الرجل.

وإذ أوجز هذا مشاعر عبدالله بأكملها، فقد وجد نفسه محبًّا لهذا الرجل. كان له شعر أحمر باهت ووجه متعب مغضن. وأوحى الثوب الأسود لعبدالله بأن هذا هو الساحر سولمن من غير شك؛ وقد

بدا شبيهًا بالساحر أيًا كان ما يلبسه. نهض عبدالله من مجلسه وانحنى، فنظر إليه الساحر نظرة غموض فظ والتفت إلى لتي.

«إنه من زنزيب يا بن»، قالت لتي، «ويعرف شيئًا عن الخطر المحدق بالأميرة. وجلب معه صوفي، إنها قطة! انظر! عليك أن تعيدها إلى حالها في التو واللحظة يا بن!».

كانت لتي من هؤلاء السيدات اللاتي يبدون أجمل كلما ازددن انفعالًا. لم يفاجأ عبدالله لمّا قادها الساحر سولمن بهدوء بمرفقها وقال «طبعًا يا حبي»، وأتبع ذلك بقبلة على جبينها. ودعا ذلك عبدالله إلى التساؤل تعسًا إن كان سيحظى بفرصة لتقبيل زهرة في الليل يومًا هكذا، أو أن يردف مثلما أردف الساحر «اهدئي، تذكري الطفل».

ثم قال الساحر وهو ينظر إلى الوراء «ألا يستطيع أحد إغلاق الباب؟ لا بد أن نصف كنغزبري عرفت بما يجري الآن».

حبب هذا الساحر إلى عبدالله أكثر من ذي قبل. والأمر الوحيد الذي منعه من النهوض وإغلاق الباب كان خشيته من أن تكون العادة هنا ترك الباب مفتوحًا في الأزمات. فانحنى ثانية ووجد الساحر يستدير ليواجهه.

«وما الذي حدث أيها الشاب؟»، سأل الساحر. «كيف عرفت أن هذه القطة هي أخت زوجتي؟».

باغت السؤال عبدالله. فقد أوضح -عددًا من المرات- أنه لم يعرف أن بُهرة الليل كانت بشرية، ناهيك بأنها أخت زوجة ساحر

البلاط، لكنه لم يكن واثقًا بأن أحدًا أصغى إليه. فقد كانوا كلهم فرحين برؤية بُهرة الليل وظنوا أن عبدالله أتى بها إلى البيت بدافع الصداقة الخالصة. ورأى الساحر سولمن، بعيدًا عن طلبه مبلغًا كبيرًا، أنه مدين لعبدالله بشيء ما، ولما اعترض عبدالله بأن الأمر ليس كذلك، قال «تعالَ واشهد تحولها إذن».

قال هذا بأسلوب ودود واثق فأحبه عبدالله أكثر فأكثر وسمح لهم باقتياده، مع الآخرين، إلى غرفة كبيرة تقع في مؤخرة البيت؛ غير أن إحساسًا راود عبدالله أنها تقع في مكان آخر، فقد مالت الأرض والجدران بصورة لم تكن معهودة.

لم ير عبدالله سحرًا من قبل. فنظر حوله باهتمام، إذ عجت الغرفة بأدوات سحرية معقدة. وكان أقرب شيء إليه أشكال مخرّمة تنفث أدخنة رقيقة. وبجانبها شموع كبيرة غريبة موضوعة في علامات معقدة، وخلفها صور غريبة صنعت من الصلصال الرطب. وأبعد قليلًا، رأى نافورة لها خمسة أنابيب تسقط في أشكال هندسية غريبة، وقد أخفى هذا جزئيًا أشكالًا أكثر غرابة، تجمعت في البعيد خلفها.

«لا مجال للعمل هنا»، قال الساحر سولمن ماشيًا. «يجب أن تعمل هذه من تلقاء نفسها أثناء تحضيراتنا في الغرفة الأخرى. أسرعوا جميعًا».

فأسرع الجميع إلى غرفة أصغر في الخلف كانت فارغة إلا من بعض المرايا المدورة المعلقة على الجدران. أنزلت لتي بُهرة الليل

بحذرعلى حجر أزرق مخضر في الوسط، إذ جلست بجد تنظف دخل ساقيها الأماميتين وتبدي لامبالاة كاملة، أما الآخرون ومنهم لتي والخدم فقد انهمكوا في بناء خيمة حولها من قضبان فضية طويلة.

وقف عبدالله مستندًا إلى الجدار مراقبًا. وقد ساوره شيء من الندم لأنه أكد للساحر بأنه لا يدين له بشيء، فقد كان عليه انتهاز الفرصة ليسأله كيف يصل إلى القلعة في السماء. لكنه فكر في هذا، وما دام لم يصغِ إليه أحد، فقد كان الأفضل أن ينتظر حتى تهدأ الأمور. أثناء ذلك غدت القضبان الفضية شكلًا من النجوم الفضية الهيكلية وراقب عبدالله، حائرًا لانعكاس المشهد في كل المرايا، الصغيرة والمشغولة والناتئة. فقد انحنت المرايا انحناء غريبًا كالجدران والأرضيات.

أخيرًا صفق الساحر بيديه الكبيرتين النحيلتين. «حسن»، قال. «تستطيع لتي مساعدتي هنا. أما الآخرون فاذهبوا إلى الغرفة الأخرى واحرصوا على بقاء علامات حماية الأميرة في أماكنها».

هرع التلامذة والخدم، فبسط الساحر سولمن ذراعيه. ورام عبدالله المراقبة عن كثب وأن يتذكر ما حدث بوضوح. ولكنه لم يعد واثقًا بما يحدث عندما بدأ السحر. إذ عرف أن أشياء تحدث، ولكن لا يبدو أنها تحدث. كان الأمر كالإصغاء إلى الموسيقى وأنت لا تميز النغمات. بين الفينة والأخرى، كان الساحر سولمن ينطق كلمة غريبة عميقة تملأ الغرفة ورأس عبدالله بالغبش، وهذا ما صعّب عليه رؤية ما يحدث. غير أن قسطًا كبيرًا من عناء عبدالله كان سببه المرايا على الجدران.

إذ ظلت تعرض صورًا صغيرة مدورة تبدو كالانعكاسات لكنها ليست كذلك، أو ليس تمامًا. كلما التقت المرايا بعيني عبدالله، أظهرت إطار القضبان الذي يشع بالضوء الفضي في شكل جديد- نجمة، أو مثلث، أو سداسي، أو رمز آخر فظ وسري - أما القضبان الحقيقية أمامه فلم تشع قط. مرة أو مرتين أظهرت المرايا الساحر سولمن باسطًا ذراعيه، لكن ذراعيه في الغرفة كانتا على جانبيه. وأظهرت المرايا لتي مرات عدة تقف ساكنة متشابكة اليدين باديًا عليها القلق العظيم. وكلما نظر عبدالله إلى لتي الحقيقية، وجدها تتحرك تومئ إيماءات غريبة وهادئة كل الهدوء. لم تظهر بُهرة الليل في المرايا قط، وصعبت رؤية شكلها الصغير الأسود على نحو غريب وسط القضبان في الواقع أيضًا.

ثم توهجت كل القضبان فجأة بضوء فضي ضبابي وامتلأ الفراغ داخلها بالسديم. نطق الساحر آخر كلمة عميقة وتراجع.

«اللعنة!»، قال أحد من داخل القضبان. «لا أستطيع شمكم أبدًا!».

جعل هذا الساحر يبتسم ولتي تضحك من قلبها. وبحث عبدالله عن الذي يضحكهما هكذا واضطر إلى الإشاحة بنظره من فوره. الشابة الجاثية داخل الإطار، لم تكن تلبس شيئًا من الثياب، وهو أمر مبرر. وقد عرف من اللمحة التي رآها بها أن الشابة بيضاء مثلما كانت لتي سمراء، لكنها تشبهها فيما عدا ذلك. ركضت لتي إلى جانب الغرفة وعادت جالبة ثوب ساحر أخضر.

ولما تجرأ عبدالله على النظر، كانت الشابة تلبس الثوب مثل المبذل ولتي تحاول عناقها ومساعدتها على الخروج من الإطار في الوقت نفسه.

«أوه يا صوفي! ماذا حدث؟»، ظلت تقول.

«لحظة»، قالت صوفي لاهثة. فقد كانت تواجه مشقة في الوقوف على قدمين بادئ الأمر، غير أنها عانقت لتي ثم تهادت إلى الساحر وعانقته أيضًا. «أشعر بالغرابة من دون ذيل!»، قالت. «ولكن شكرًا جزيلًا يا بن». ثم تقدمت نحو عبدالله، وباتت تمشي بسهولة أكبر. تراجع عبدالله إلى الجدار، خشية أن تعانقه أيضًا، لكن صوفي قالت «لا بد أن تتساءل عن سبب لحاقي بك. الحقيقة أنني أضل الطريق نحو كنغزبري دومًا».

«يسعدني أن أكون في الخدمة، يا أجمل المتحولات»، قال عبدالله بشيء من الفتور. لم يكن متأكدًا من تآلفه مع صوفي أكثر من تآلفه مع بُهرة الليل. فقد فاجأته بأنها شابة صعبة المراس جدًّا، بقدر أخت زوجة أبيه الأولى فاطمة.

لم تزل لتي تطلب أن تعرف ما الذي حوّل صوفي إلى قطة والساحر سولمن يقول قلقًا «أمعنى هذا أن هاول يتجول على هيئة حيوان أيضًا يا صوفي؟».

«لا، لا»، قالت صوفي، وبدا عليها القلق الشديد فجأة. «الست أدري أين هاول. لقد كان هو من حولني إلى قطة كما ترون».

«ماذا؟ حولك زوجك إلى قطة؟»، قالت لتي متعجبة. «أهذا أحد شجاراتكما إذن؟».

«نعم، لكنه مبرر جدًّا»، قالت صوفي. «حدث هذا عندما سرق أحدهم القلعة المتحركة. لم نُخطر بالأمر إلا نصف يوم، ذلك لأن هاول كان يعمل على رقية عِرافة للملك. وبينت لنا أن شيئًا شديد القوة يسرق القلعة ثم سيخطف الأميرة ڤالريا. فقال هاول إنه أنذر الملك من فوره. هل فعل؟».

«نعم قطعًا»، قال الساحر سولمن. «نُحرس الأميرة في كل لحظة. لقد استدعيت الشياطين ونصبت علائم الحراسة في الغرفة المجاورة. لن تتاح الفرصة لما يهددها بأن يدخل».

«حمدًا للرب!»، قالت صوفي. «لقد انزاح هذا العبء عن كاهلي. إنه عفريت الجن، أتعلم؟».

«حتى عفريت الجن لن يتمكن من الدخول»، قال الساحر سولمن. «ولكن ماذا فعل هاول؟».

«لقد أقسم»، قالت صوفي. «بلهجة أهل ويلز. ثم صرف مايكل والتلميذ الجديد، وأراد إبعادي أيضًا لكني قلت إني سأبقى ما دام هو وكالسيفر باقيين. وسألته إن كان يستطيع أن يلقي عليَّ رقية فلا يراني عفريت الجن؟ وتشاجرنا حول هذا و...».

ضحكت لتي. «ولماذا لا يفاجئني هذا؟»، قالت.

تورد وجه صوفي وأمالت رأسها متحدية. «حسن، ظل هاول

يقول إنني سأكون في أمان أكبر إن كنت بعيدة في ويلز مع أخته، وهو يعلم أنني لا آلفها، وظللت أقول إني سأكون بذات نفع إذا استطعت البقاء في القلعة دون أن يراني اللص. على أية حال...» ودست وجهها في يديها، «...أخشى أننا كنا نتجادل حين جاء العفريت. فقد ملأ المكان ضجيج هائل وأظلم كل شيء واضطرب. أتذكر هاول يصرخ بكلمات رقية القطة -لقد هذر بها على عجل- ثم صاح بكالسيفر...».

«كالسيفر هو عفريت النار عندهما»، قالت لتي موضحة لعبدالله بتهذيب.

«صاح بكالسيفر أن يخرج وينقذه لأن عفريت الجن شديد القوة على واحد منهما»، واصلت صوفي حديثها. «ثم رفعت القلعة من فوقي مثلما يرفع غطاء صحن الجبن. ولم أعرف إلا أني تحولت قطة في الجبال شمالي كنغزبري».

تبادل ساحر البلاط ولتي نظرات حائرة من فوق رأس صوفي المطأطئ. «ولماذا في تلك الجبال؟»، سأل الساحر سولمن. «لم تكن القلعة في مكان قريب منها».

«لا، لقد كانت في أربعة أماكن في وقت واحد»، قالت صوفي. «أظنني ألقيت في مكان ما في المنتصف. لكان الأمر أسوأ، غير أني وجدت الكثير من الفئران والطيور لآكلها».

تلوى وجه لتي في قرف. «صوفي!»، قالت متعجبة. «فئران!».

«ولم لا؟ هذا ما تأكله القطط»، قالت صوفي رافعة رأسها متحدية مرة أخرى. «الفئران لذيذة، لكني لم أحب الطيور كثيرًا، فالريش يخنقني. ولكن..»، ازدردت ريقها ودفنت رأسها في كفيها ثانية. «لكنه حدث في وقت سيئ لي. ولد مورغان بعد أسبوع من هذا، وقد كان هرًّا طبعًا..».

وأصاب هذا لتي بالفزع أكثر من أكل أختها للفئران. فانفجرت بالبكاء وطوقت صوفي بذراعيها. «أوه يا صوفي! ماذا فعلت؟».

«ما تفعله القطط عادة، طبعًا»، قالت صوفي. «أطعمته وغسلته كثيرًا. لا تقلقي يا لتي، فقد تركته مع الجندي صديق عبدالله. سيقتل ذلك الرجل أي امرئ يؤذي هره. ولكن»، قالت للساحر سولمن، «أحسب أن عليَّ إحضار مورغان الآن فتعيده إلى حاله ثانية».

كان الساحر سولمن منفعلًا بقدر لتي. «ليتني علمت بالأمر!»، قال. «لو كانت ولادته على هيئة قط جزءًا من الرقية نفسها، فقد يسهل تحويله. لا بد أن نعرف».، وسار نحو واحدة من المرايا المدورة وصنع حركات دائرية بكلتا يديه.

بدت المرآة -كل المرايا- في الحال تعكس غرفة النزل، وكل واحدة تعكس زاوية مختلفة، كأنها معلقة على الجدران هناك. نظر عبدالله من واحدة إلى الأخرى وبدا قلقًا مما رأى بقدر قلق الثلاثة الآخرين. فقد كان البساط السحري، لسبب ما، ممدودًا على الأرض. وعليه يستلقي طفل عارٍ مكتنز وردي. ورغم صغر سن الطفل، فقد رأى عبدالله أنه يتمتع بشخصية قوية مثل صوفي، وكان يظهر هذه

الشخصية. كانت ساقاه وذراعاه تلكم الهواء، وقسمات وجهه تتلوى غضبًا، وفمه حفرة حانقة مربعة. ورغم أن الصور في المرايا صامتة، فقد كان واضحًا أن مورغان مزعج جدًا.

«من ذلك الرجل؟»، قال الساحر سولمن. «لقد رأيته من قبل».

«جندي سترانغي، يفعل الأعاجيب»، قال عبدالله يائسًا.

«لا بد أنه يذكرني بأحد ما»، قال الساحر.

كان الجندي يقف قرب الطفل الصارخ ويبدو عليه الفزع والعجز. لعله كان يرجو أن يفعل الجني شيئًا. على أية حال، كان يحمل قمقم الجني بيد، لكن الجني كان خارج القمقم في نفثات متفرقة من الدخان الأزرق المتلاشي، وكل نفثة تشكل وجهًا يضع يديه على أذنيه، عاجزًا كالجندي.

«أوه يا للطفل الحبيب المسكين!»، قالت لتي.

«تعنين الجندي المبارك المسكين»، قالت صوفي. «مورغان حانق. لم يكن إلا هرًّا والهريرات تفعل أكثر مما يفعله الأطفال بكثير. إنه غاضب لأنه لا يستطيع المشي. بن، أتظن أن بوسعك...؟».

وغطى على بقية سؤال صوفي ضجيجٌ يشبه تمزق قطعة كبيرة من الحرير، واهتزت الغرفة. قال الساحر سولمن شيئًا وتقدم نحو الباب، وعندها كان عليها التنحي على عجل. فقد اخترق الجدار المجاور للباب حشد كامل من الأشياء الصارخة الباكية، وانقضّت على الغرفة واختفت في الجدار المقابل. لقد كانت مسرعة جدًّا فلم

يرها أحد بوضوح، ولكن لم يبدُ أن أيًا منها بشري. لمح عبدالله لمحة مغبشة أرجلًا مخلبة كثيرة، وشيئًا يتحرك دون أرجل، وكائنات لها عين واحدة غريبة وأخرى لها أعين كثيرة في عناقيد. رأى رؤوسًا ذات أنياب، وألسنة مدلاة، وأذناب ملتهبة. وكان أحدها، وهو يتحرك أسرع من الجميع، كرة متدحرجة من الطين.

لقد اختفت. وفتح الباب تلميذ منفعل. «سيدي، سيدي، لقد انهارت علامات الحراسة كلها! لم نستطع الإمساك...».

أمسك الساحر سولمن بذراع الشاب وهرع به إلى الغرفة المجاورة، مناديًا من خلفه «سأعود حين أستطيع! الأميرة في خطر!».

نظر عبدالله ليعرف ما الذي يجري للجندي والطفل، لكن المرايا المدورة لم تعرض شيئًا إلا وجهه القلق، ووجه صوفي ولتي اللذين يماثلانه قلقًا، كلها تحملق إلى المرايا.

«اللعنة!»، قالت صوفي. «أتستطيعين تشغيلها يا لتي؟».

«كلا. لا يفعل هذا إلا بن»، قالت لتي.

فكر عبدالله في البساط الممدود وقمقم الجني في يد الجندي. «في هذه الحال إذن، يا توءم اللآلئ»، قال، «ويا أجمل السيدات، سأسرع، بعد إذنكما لي، بالعودة إلى النزل قبل أن نسمع شكاوى كثيرة بسبب الضجيج».

ردت صوفي ولتي معًا أنهما قادمتان أيضًا. لم يستطع عبدالله لومهما، لكنه كاد يفعل بعد لحظات. فما كان بوسع لتي أن تسرع في

قطع الشوراع وهي على هذه الحال. ولما اندفع ثلاثتهم عبر أنقاض الرقى المخربة وفوضاها في الغرفة المجاورة، فقد أفرد الساحر سولمن لحظة من إعداد أشياء جديدة في الأنقاض بصورة سريعة ليأمر مانفرد بإخراج العربة. وركض مانفرد لفعل ذلك، فأخذت لتي صوفي إلى الأعلى لتلبس ثيابًا لائقة.

ترك عبدالله يذرع الردهة. والفضل للجميع، فقد انتظر هناك أقل من خمس دقائق، لكنه حاول أثناء ذلك فتح الباب الأمامي عشر مرات، ليجد أن رقية تبقيه مغلقًا. وحسب أنه سيجن، وكأنما مر قرن قبل أن تنزل صوفي ولتي، وكلتاهما تلبس ثيابًا أنيقة للخروج، وفتح مانفرد الباب لتظهر عربة مفتوحة يجرها حصان كميت جميل، تنتظر في الخارج على الحصى.

أراد عبدالله أن يقفز قفزة طائرة إلى العربة ويسوط الحصان، لكن هذا لم يكن لائقًا. فاضطر إلى الانتظار حتى ساعد مانفرد السيدتين على ركوب العربة ثم صعد إلى مقعد الراكب. انطلقت العربة تقعقع بأناقة على الحصى وعبدالله لم يزل يحشر نفسه في المقعد بجانب صوفي، لكن هذا لم يكن سريعًا في نظره. فلم يطق أن يفكر فيما يفعله الجندي.

«أرجو أن يتمكن بن من نصب علائم حراسة جديدة على الأميرة بسرعة»، قالت لتي بقلق وعربتهم تدرج مدوية في الساحة المفتوحة.

وما كادت الكلمات تخرج من فمها حتى وقع وابل من

الانفجارات الصاخبة، مثل ألعاب نارية سيئة الإطلاق. وأخذ جرس يقرع في مكان ما، فزعًا سريعًا غونغ-غونغ-غونغ.

«ما هذا؟»، سألت صوفي، ثم أجابت على سؤالها وهي تشير وتصرخ «أوه اللعنة! انظرا، انظرا، انظرا!».

رفع عبدالله رأسه إلى حيث أشارت. فرأى جناحين أسودين منشورين يطمسان النجوم فوق أقرب القباب والأبراج. وفي الأسفل، من أعالي أبراج عديدة، صدر وميض صغير وعدد من الانفجارات والجنود يطلقون النار على هذين الجناحين. كان عبدالله سيقول لهم إن هذه الأشياء لا تجدي نفعًا في قتال عفريت الجن. انعطف الجناحان برباطة جأش وطافا في الأعلى، ثم تلاشيا في الزرقة الداكنة لسماء الليل.

«هذا صديقك عفريت الجن»، قالت صوفي، «أظننا ألهينا بن في لحظة حرجة».

«لقد تعمد العفريت أن تفعلي ذلك، أيتها السنورية سابقًا»، قال عبدالله. «إن كنت تذكرين، فقد قال وهو يغادر إن أحدنا سيساعده في اختطاف الأميرة».

انضمت أجراس أخرى في أنحاء المدينة إلى جرس الإنذار. وركض الناس في الشوارع ونظروا إلى الأعلى. صلصلت العربة في صخب أكبر وأجبرت على الإبطاء أكثر فأكثر حين تجمع الناس في الشوارع. كأن الجميع يعرفون تمامًا ما حدث. «لقد اختفت

الأميرة!» سمع عبدالله. «لقد اختطف شيطان الأميرة ڤالريا!» وبدا الحزن والخوف على الناس، لكن واحدًا أو اثنين قالا «لا بد من شنق ساحر البلاط! لماذا يُدفع إليه إذن؟».

«أوه يا ربي!»، قالت لتي. «لن يصدق الملك لحظة أن بن عمل جاهدًا لإيقاف حدوث هذا!».

«لا تقلقي»، قالت صوفي. «حالما نحضر مورغان، سأذهب لإخبار الملك عن كل شيء».

صدقها عبدالله، فجلس وتململ نافد الصبر.

وبعد ما بدا كأنه قرن لكنه لم يكن إلا خمس دقائق، شقت العربة طريقها في فناء النزل المزدحم. كان غاصًا بالناس المحملقين إلى الأعلى «رأيت جناحيه»، سمع رجلًا يقول «كان طائرًا كالوحش والأميرة معلقة ببراثنه».

توقفت العربة، فأظهر عبدالله نفاد صبره إذ قفز من العربة صارخًا «أفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق يا قوم! فهاتان ساحرتان جاءتا لأمر عظيم!» وبالصراخ المتكرر والدفع استطاع أخذ صوفي ولتي إلى باب النزل وإدخالها. كانت لتي شديدة الحرج.

«ليتك لم تقل ذلك!»، قالت. «لا يحب بن أن يعرف الناس أني ساحرة».

«لن يكون عنده متسع من الوقت للتفكير في هذا الآن»، قال عبدالله. ودفع الاثنتين متجاوزًا صاحب النزل إلى السلالم. «هاتان

الساحرتان اللتان حدثتك عنهما، أيها المضيف الكريم»، قال للرجل. «إنهما قلقتان على قطتيهما»، وقفز صاعدًا الدرج. ثم أخذ لتي وبعدها صوفي وأسرع إلى القلبة التالية، وفتح باب الغرفة. «لا تفعل شيئًا متهورًا...» بدأ كلامه وتوقف إذ أدرك أن في الداخل صمتًا مطبقًا.

كانت الغرفة فارغة.

الفصل السابع عشر

وفيه يصل عبدالله إلى القلعة في الهواء أخيرًا

كان بين بقايا العشاء على الطاولة وسادة في سلة، وعلى أحد الأسرَّة نقرة مجعدة وغيمة من دخان التبغ فوقها، كأن الجندي مستلقٍ هناك يدخن حتى اللحظة الأخيرة. كانت النافذة مغلقة، وأسرع إليها عبدالله بغية فتحها والإطلالة منها -دونما سبب حقيقي سوى أن هذا كل ما أمكنه التفكير فيه- ووجد نفسه يطأ صحنًا مليئًا بالقشدة. كان الصحن مقلوبًا تسيل منه قشدة بيضاء مصفرة كثيفة في خطوط طويلة عبر البساط السحري.

وقف عبدالله ينظر إليه، كان البساط موجودًا على الأقل. فما معنى هذا؟ لا أثر للجندي ولا أثر قطعًا للطفل المزعج في أي ركن في الغرفة. ولا كان فيها أثر لقمقم الجني، مثلما أدرك وهو ينقِّل نظره بسرعة في كل مكان خطر له.

«أوه لا!»، قالت صوفي وقد وصلت إلى الباب. «أين هو؟ لا يمكن أن يكون ابتعد ما دام البساط هنا».

تمنى عبدالله لو أنه يستطيع أن يكون واثقًا هكذا. «من غير رغبة في إفزاعك، يا أم أنشط الأطفال»، قال، «عليَّ القول إن الجني ليس هنا أيضًا».

غضنت جبين صوفي تقطيبة صغيرة غامضة. «أي جني؟».

ولما تذكر عبدالله أن بُهرة الليل، صوفي، بدت غافلة دومًا عن أمر الجني، فقد وصلت لتي إلى الغرفة تلهث ضاغطة يدها على جانبها. «ما الأمر؟»، قالت منقطعة الأنفاس.

«ليسا هنا»، أجابت صوفي. «أحسب أن الجندي أخذ مورغان إلى صاحبة النزل. لا بد أنها تحسن رعاية الأطفال».

قال عبدالله، وهو يشعر كمن يتعلق بقشة «سأذهب لأرى». فقد قال في نفسه إن صوفي تبدو محقة دومًا، وأسرع نازلًا القلبة الأولى من الدرج. هذا ما سيفعله معظم الرجال إذا واجهوا طفلًا صارخًا فجأة، دائمًا على فرض أن الرجل ليس عنده جني في قمقم.

كانت القلبة الأدنى تعج بالناس الصاعدين، رجال يلبسون أحذية مقعقعة وبزات رسمية. كان صاحب النزل يقودهم إلى الأعلى قائلًا «في الطابق الثاني أيها المحترمون. إن وصفكم ينطبق على السترانغي، إذا قص جديلته، وجلي أن الشاب هو شريكه في الجرم الذي تكلمتم عنه».

استدار عبدالله وركض صاعدًا درجتين في كل مرة على أطراف أصابعه.

«كارثة كبيرة أيتها الفاتنتان!»، قال لاهثًا للتي وصوفي. «صاحب النزل -صاحب خان ناكث للعهد- يرافق العسس ليمسكوا بنا أنا والجندي. ماذا نفعل الآن؟».

حان الوقت لتتولى امرأة صعبة المراس زمام الأمور. وسر عبدالله بأن تكون هذه صوفي، التي تصرفت على الفور. أغلقت الباب وأحكمت مزلاجه. «أقرضيني منديلك»، قالت للتي ومررته إليها لتي، فجثت صوفي ومسحت القشدة عن البساط السحري به. «تعال إلى هنا»، قالت لعبدالله. «اركب هذا البساط معي ومُره أن يأخذنا إلى مكان مورغان. ابقي هنا يا لتي، وعرقلي صعود العسس. لا أظن البساط قادرًا على حملك».

«حسن»، قالت لتي. «أريد العودة إلى بن قبل أن يبدأ الملك في لومه على أية حال. ولكني سأوبخ صاحب النزل أولًا. سيكون هذا تمرينًا جيدًا من أجل الملك». ولمّا كانت صعبة المراس مثل أختها، فقد قوّمت كتفيها وأبرزت مرفقيها وهذا يوحي بأن صاحب النزل ومعه العسس سيواجهون وقتًا عصيبًا.

سر عبدالله من لتي أيضًا. فقرفص على البساط وشخر برفق، فارتعش البساط. كانت رعشة تبرّم. «يا جوهر البُسُط ودُرّها وزبرجدها»، قال عبدالله، «يعتذر إليك هذا الريفي الأخرق البائس بحرقة لسكب القشدة على نسيجك النفيس...».

قرع الباب قرعًا ثقيلًا. «افتحوا، باسم الملك!»، جأر أحد من الخارج.

ما كان في الوقت متسع لتملق البساط أكثر. «أتوسل إليك أيها البساط»، همس عبدالله، «خذنا أنا وهذه السيدة إلى حيث أخذ الجندي الطفل».

اهتز البساط حانقًا، لكنه أطاع. فقد انطلق إلى الأمام كعادته، ماضيًا عبر النافذة المغلقة. كان عبدالله شديد اليقظة هذه المرة ليرى زجاج النافذة الداكن وإطارها لحظة، مثل سطح الماء، وهما يمران عبره ثم حلّق فوق الكرات الفضية التي أضاءت الشارع. ولكنه شك أن تكون صوفي رأت، فقد تشبثت بذراع عبدالله بكلتا يديها وظن أنها تغمض عينيها.

«أكره المرتفعات!»، قالت. «أرجو ألا يكون بعيدًا».

«سيحملنا هذا البساط الفاخر بأقصى سرعته، أيتها الساحرة المبجلة»، قال عبدالله محاولًا أن يطمئنها هي والبساط في آن واحد. ولم يكن واثقًا بأن هذا طمأن أيًا منهما، إذ استمرت صوفي تتشبث بذراعه تشبثًا مؤلمًا، وهي تقول كلمات قصيرة لاهثة من الهلع، أما البساط فقد ارتفع في حركة رشيقة مدوّخة فوق أبراج كنغزبري ومصابيحها، والتف متخبطًا في طريقه حول ما بدا أنه قباب القصر وأخذ دورة أخرى حول المدينة.

«ماذا يفعل؟»، قالت صوفي لاهثة. وجلي أنها تغمض عينيها تمامًا.

«اهدئي، يا أجلّ الساحرات»، طمأنها عبدالله. «إنه في طواف

ليقطع الأعالي مثلما تفعل الطيور». وفي سره كان واثقًا أن البساط قد ضل الطريق. ولكن لما ظهرت مصابيح كنغزبري وقبابها للمرة الثالثة في الأسفل، عرف أنه رمى رمية من غير رامٍ وكان تخمينه صائبًا. فقد كانوا على علو بضعمئة قدم. في الدورة الرابعة، التي كانت أوسع من الثالثة -رغم أنها مدوخة بقدرها- كانت كنغزبري مجموعة بديعة من المصابيح بعيدًا بعيدًا في الأسفل.

اهتز رأس صوفي لما اختلست نظرة إلى الأسفل، واشتدت قبضتها على ذراع عبدالله، «يا إلهي وتبًّا!»، قالت. «ما زلنا نرتفع! أحسب أن ذلك الجندي التعيس أخذ مورغان ولحق بالعفريت!».

كانا على علو شاهق فخشي عبدالله أن تكون محقة. «لقد تمنى أن ينقذ الأميرة بلا شك»، قال، «طمعًا في المكافأة المجزية».

«ولكن لا يحق له أن يأخذ الطفل معه!»، قالت صوفي. «انتظر حتى أراه! ولكن كيف فعل ذلك من دون البساط؟».

«لا بد أنه أمر جني القمقم ليتبع العفريت، يا قمر الأمهات»، أوضح عبدالله. وسألته صوفي مرة أخرى «أي جني؟».

«أؤكد لكِ يا أذكى العقول الساحرة، أنني أملك جنيًّا مثلما أملك هذا البساط، ولا يبدو أنكِ رأيتيه قبلًا»، قال عبدالله.

«سأصدق كلامك إذن»، قالت صوفي. «استمر في الكلام. تكلم، وإلا نظرت إلى الأسفل وإن نظرت إلى الأسفل عرفت أنني سأقع من علٍ!».

وإذ كانت لم تزل متشبثة بذراع عبدالله، فقد عرف أنها لو سقطت لسقط معها. باتت كنغزبري الآن نقطة سديمية مضيئة، تظهر على هذا الجانب ثم على الجانب الآخر، والبساط يواصل لولبته إلى الأعلى. كان بقية إنغري حولها مثل طبق كبير أزرق داكن. جعل التفكير في هبوط كل هذه المسافة عبدالله مذعورًا بقدر صوفي. وأخذ يقص عليها على عجل مغامراته، كيف التقى زهرة في الليل وكيف حبسه السلطان، وكيف أخرج رجال كابول عقبة الجني من بركة الواحة -الذين كانوا كالملائكة- وكيف شق عليه أن يتمنى أمنية لا يفسدها لؤم الجني.

عندئذ رأى الصحراء بحرًا شاحبًا جنوبي إنغري، ورغم علوها الشاهق الذي يصعب منه معرفة أي شيء في الأسفل. «أدرك الآن أن الجندي قال إني كسبت الرهان بغية إقناعي بنزاهته»، قال عبدالله مستاء. «أظنه أراد دومًا أن يسرق الجني وربما البساط أيضًا».

كانت صوفي مهتمة، وقد أرخت قبضتها عن ذراعه أخيرًا، فارتاح عبدالله. «لا يمكنك أن تلوم الجني على كرهه الجميع»، قالت. «تذكر شعورك في تلك الزنزانة».

«لكن الجندي...»، قال عبدالله.

«أمر آخر!»، قالت صوفي. «انتظر حتى أمسك به بيدي! لا أحتمل الناس الذين يرأفون بالحيوانات ويخدعون كل بشري يصادفونه! ولكن، عودًا إلى الجني الذي قلت إنه لك؛ يبدو كأن

عفريت الجن تعمد أن يكون ملكك. أتظنه كان جزءًا من المؤامرة أن يستغل عاشقين تعيسين لينتقم من أخيه؟».

«أظن ذلك»، قال عبدالله.

«حين نصل إلى قلعة الغيوم، إن كنا ذاهبين إلى هناك»، قالت صوفي، «فقد نتمكن من الاعتماد على مجيء عشاق تيسين آخرين يساعدوننا».

«ربما»، قال عبدالله حذرًا. «لكني أذكر، يا أشد القطط فضولًا، أنكِ كنتِ تهربين إلى الآجام حين تكلم العفريت، والعفريت لم ينتظر إلّاي».

ورغم ذلك، فقد نظر إلى الأعلى. لقد أخذ البرد يشتد وبدت النجوم شديدة القرب. كان في زرقة السماء الداكنة شيء من التفضض يوحي بأن نور القمر يحاول البزوغ من مكان ما، كان شديد الجمال. فابتهج قلب عبدالله وهو يظن أنه قد يكون في طريقه أخيرًا لإنقاذ زهرة في الليل.

لسوء الحظ فقد نظرت صوفي إلى الأعلى أيضًا، فأحكمت قبضتها على ذراعه. «تكلم»، قالت. «أنا مذعورة».

«عليكِ أن تتكلمي أيضًا، يا أشجع من يُلقي الرُّقى»، قال عبدالله. «أغمضي عينيك وأخبريني عن أمير أوشنستان الذي خطبت له زهرة في الليل».

«لا أظنها خطبت له»، قالت صوفي وهي تهذر، فقد كانت

مذعورة حقًّا. «ابن الملك ليس إلا طفل. صحيح أن أخا الملك موجود، الأمير جستن، لكنه يفترض به أن يتزوج بالأميرة بياتريس أميرة سترانغيا، غير أنها رفضت سماع الأمر وهربت. أتظن العفريت خطفها؟ أحسب أن سلطانكم كان يود الحصول على بعض الأسلحة التي يصنعها سحرتنا هنا، ولكنه ما كان ليحصل عليها. فهم لا يسمحون للمرتزقة بأخذها إلى الجنوب حين يذهبون. بل إن هاول يقول إنهم يجب ألا يرسلوا مرتزقة. هاول...»، وتلاشى صوتها. وارتجفت يداها على ذراع عبدالله «تكلم!»، قالت متذمرة.

أصبح التنفس أصعب. «لا أستطيع إلا بشق الأنفس أيتها السلطانة القوية اليدين»، قال عبدالله منقطع النفس. «أظن الهواء قليلًا هنا. ألا تستطيعين أن تلوحي تلويحات سحرية تساعدنا على التنفس؟».

«لا على الأرجح. تظل تناديني ساحرة، لكني جديدة على الحرفة»، قالت صوفي معترضة. «لقد رأيت. حين كنت قطة، كل ما استطعت فعله أن أغدو أكبر»، لكنها تركت ذراع عبدالله لحظة بغية صنع حركات خرقاء فوق رأسها. «حقًّا أيها الهواء!»، قالت. «هذا مشين! عليك أن تجعلنا نتنفس أحسن من الآن وإلا متنا. تجمع واسمح لنا بتنشقك!»، تشبثت بعبدالله ثانية. «أهذا أفضل؟».

كأنما زاد الهواء حقًّا، رغم أن الجو أبرد من ذي قبل. دهش عبدالله لأن أسلوب صوفي في إلقاء الرقية فاجأه فهو لا يشبه أساليب الساحرات في شيء، بل إنه لم يكن يختلف عن أسلوبه في

إقناع البساط ليتحرك، ولكن كان عليه الإقرار بأنه ناجح. «أجل. شكرًا جزيلًا يا قائلة الرقى».

«تكلم!»، قالت صوفي.

كانا على ارتفاع شاهق اختفى معه العالم في الأسفل عن الأنظار. لم يجد عبدالله صعوبة في فهم خوف صوفي، فالبساط يطير عبر فراغ مظلم، أعلى وأعلى، وأيقن عبدالله أنه لو كان وحده لصرخ. «تكلمي أنت يا سيدة السحر القوية»، قال مرتجفًا. «أخبريني عن الساحر هاول زوجك».

اصطكت أسنان صوفي، لكنها قالت فخورة «إنه أفضل ساحر في إنغري أو أي مكان آخر. لو كان عنده الوقت لهزم ذلك العفريت. وهو ماكر وأناني ومغرور كالطاووس وجبان ولا يمكنك أن تجبره على فعل شيء».

«حقًا؟»، سأل عبدالله. «غريب أن تعددي بهذا الفخر قائمة عيوبه، يا أكثر السيدات عشقًا».

«وماذا تقصد بالعيوب؟»، سألت صوفي غاضبة. «لقد كنت أصف هاول فقط. إنه من عالم مختلف تمامًا، كما تعلم، يدعى ويلز، وأرفض أن أصدق أنه ميت... أوه!».

وأنهت كلامها بنحيب حين اندفع البساط إلى الأعلى فيما بدا غشاوة شفافة لغيمة. داخل الغيمة، تبين أن الشفافية رقائق جليد أمطرتها بوابل من الفضة وجذاذات ودوائر من العاصفة الثلجية.

كان كلاهما يلهث لما انطلق البساط كالسهم خارجًا منها. ثم لهثا ثانية متعجبين.

فقد كانا في بلاد جديدة تستحم بنور القمر ذي اللون الذهبي الذي يصبغ قمر الحصاد. ولما أفرد عبدالله لحظة للنظر إلى القمر، لم يره في أي مكان. كان النور ينبع من السماء الزرقاء الفضية، مرصعًا بنجوم مشرقة ذهبية كبيرة. لكنه لم يستطع النظر إلا تلك اللمحة، فقد خرج البساط قرب بحر شفاف سديمي وكان يسعى إلى جانب موجات تتكسر على صخور غائمة. وبصرف النظر عن قدرتها على الرؤية من خلال كل موجة كأنها حرير أخضر مذهب، فقد كان ماؤها حقيقيًا وقد يغرق البساط. كان الهواء دافئًا، والبساط، فضلًا عن ثيابهما وشعرهما، أثقلته أكداس من الثلج الذائب. شغل عبدالله وصوفي، في الدقائق القليلة الأولى، بكنس الثلج عن أطراف البساط إلى المحيط الشفاف، إذ غرقت في السماء أسفل وتلاشت.

قفز البساط أخف إلى الأعلى وتسنى لهما أن ينظرا حولهما، فشهقا ثانية. إذ رأيا جزرًا ونتوءات صخرية وخلجانًا من الذهب الكامد الذي رآه عبدالله في غروب الشمس، يتمدد حولهما إلى مسافة بعيدة فضية، إذ التزما الهدوء والسكون مفتونين بمنظر كمنظر الفردوس. تكسرت الأمواج الصافية على شاطئ غيمة بأرق الهمسات، التي زادت الصمت صمتًا.

كان الكلام في مكان كهذا خطأ. وكزت صوفي عبدالله وأشارت.

هناك، على أقرب رأس غائم انتصبت قلعة، مجموعة من الأبراج البهية الشاهقة ذات النوافذ المظلمة المفضضة. كانت مصنوعة من الغيم. مرت بهما، وهما ينظران، عدة أبراج ثم تلاشت عن الوجود، وأخرى انكمشت واتسعت. وتحت أنظارهما، كبرت مثل بقعة إلى حصن منيع هائل، ثم أخذت تتغير ثانية.

لكنها لم تزل موجودة ولم تزل قلعة وبدا أنها المكان الذي يأخذهما إليه البساط.

كان البساط يمضي بسرعة الهرولة، لكن برفق، ماكثًا على الشاطئ كأنه ليس آبهًا بأن يُرى. كانت خلف الأمواج شجيرات من غيوم، مخضبة بالأحمر والفضي كأعقاب الغروب. فكمن البساط خلف هذه، مثلما كمن خلف الأشجار في سهل كنغزبري، وهو يطوف الخليج ليصل إلى النتوء الحجري.

وفي طريقه ظهرت آفاق جديدة من البحور الذهبية، إذ تحركت في البعيد أشكال دخانية قد تكون سفنًا، أو قد تكون مخلوقات من غيوم تهتم بشؤونها. وتسلل البساط في صمت هامس مطبق خارجًا إلى الرأس البحري، حيث لا مزيد من الشجيرات. هنالك تسلل مقتربًا من أرضية الغيوم، التي كان لكثير منها شكل سطوح كنغزبري، لم يكرهها عبدالله. وأمامهما كانت القلعة تتغير ثانية، إذ امتطت حتى غدت سرادقًا عملاقًا. دخل البساط الدرب المشجر الطويل المؤدي إلى بواباتها، فكانت قبابها تعلو وتبرز، وأنتأت منارة ذهبية كامدة كأنها تراقب وصولهما.

كان الدرب المشجر محفوفًا بأشكال من الغيوم بدا أنها تراقب وصولهما أيضًا. وخرجت الأشكال من أرضية الغيوم مثلما يرى المرء كثيرًا ندفة من الغيم تلتف إلى الأعلى بعيدًا عن الكتلة الرئيسة. ولكن بخلاف القلعة، لم تغير هذه أشكالها. بل تسلقت كل واحدة إلى الأعلى، في هيئة حصان بحر نوعًا ما، أو الفرسان في لعبة شطرنج، عدا أن وجوهها كانت أكثر فراغًا وانبساطًا من وجوه الخيول، وكانت محاطة بعنمات ملتفة لم تكن غيمًا ولا شعرًا.

نظرت صوفي إلى كل واحد أثناء مرورهما بها في ازدراء متزايد. «لا يعجبني ذوقه في اختيار التماثيل»، قالت.

«أوه، اصمتي أيتها السيدة المفوّهة!»، همس عبدالله. «هذه ليست بالتماثيل، بل مئتا حارس من الملائكة الذين تكلم عنهم عفريت الجن!».

جذب صوتاهما انتباه أقرب الأشكال الغائمة، فتململ تململًا سديميًّا، وفتح عينين كبيرتين من حجرين كريمين أزرقين وانحنى يعاين البساط وهو ينسل متجاوزًا إياه.

«إياك أن تجرؤ على إيقافنا!»، قالت له صوفي. «لقد جئنا لأخذ الطفل فقط».

طرفت العينان الكبيرتان. وجلي أن الملاك لم يعتد أن يكلمه أحد بهذه الحدّة، فأخذ جناحان أبيضان غائمان ينبسطان على جانبيه.

وقف عبدالله على عجل على البساط وانحنى. «سلامًا يا أشرف

مبعوثي السماوات»، قال. «ما تقوله السيدة بهذه الفظاظة هو الحق. أرجو أن تصفح عنها، فهي من الشمال. لكنها، مثلي، أتت مسالمة. لقد أخذ عفريت الجن طفلها ولم نأتِ إلا بغية أخذه ونتقدم إليهم بشكرنا المتواضع الصادق».

خفف هذا من غضب الملاك، وعاد جناحاه إلى الجانبين الغائمين، ورغم أن رأسه الغريب استدار ليراقبهما والبساط ينسل بهما، فلم يحاول إيقافهما. ولكن الملاك في منتصف الطريق قد فتح عينيه أيضًا، والتفت جاراه لينظرا أيضًا. لم يجرؤ عبدالله على الجلوس ثانية. فثبّت قدميه ليتوازن وانحنى لكل زوج من الملائكة كلما مر بهم. لم يكن هذا بالأمر السهل، فقد عرف البساط، مثلما عرف عبدالله، أن الملائكة قد تكون مخيفة، فتحرك أسرع فأسرع.

وأدركت صوفي أيضًا أن قليلًا من التهذيب سيكون مفيدًا. فأومات برأسها لكل ملاك وهما يمران بها. «مساء الخير»، قالت. «الغروب جميل اليوم. مساء الخير». لم يكن عندها وقت لكلام أكثر، لأن البساط أسرع فوق آخر قطعة من الدرب المشجر. وعندما وصل بوابات القلعة -المغلقة- غاص عبرها مثل جرذ في أنبوب صرف. وغمرت عبدالله وصوفي رطوبة ضبابية ثم خرجا إلى ضياء ذهبي هادئ.

ووجدا أنهما في حديقة. هنا هبط البساط على الأرض، رخوًا مثل منشفة صحون، حيث مكث. كانت تسري على امتداده رعشات قصيرة، كأنه بساط يرتعد خوفًا، أو يلهث من الكدّ، أو من كليهما.

وإذ كانت الأرض في الحديقة صلبة ولم تبدُ مصنوعة من الغيم، فقد وطئها عبدالله وصوفي حذرين. كان مرجًا صلبًا تنمو فيه أعشاب خضراء فضية. وعلى مبعدة، بين أسيجة صورية، دفقت نافورة رخامية. نظرت صوفي إلى هذا، ونظرت حولها وأخذت تعبس.

انحنى عبدالله ولف البساط بأناة، مربتًا عليه ومكلمًا إياه بهدوء «أحسنت صنعًا يا أكثر الدمقس إقدامًا». قال له. «اهدأ اهدأ ولا تخف. لن أسمح لأي عفريت، مهما كان قويًا، بأن يؤذي خيطًا من نسيجك النفيس أو هدبًا من حاشيتك».

«تبدو مثل ذلك الجندي وهو يقيم الدنيا ولا يقعدها من أجل مورغان حين كان صغيرون»، قالت صوفي. «القلعة هناك».

وانطلقا نحوها، وصوفي تنظر في خوف حولها وتنخر نخرة أو اثنتين، وعبدالله يحمل البساط برفق على كتفه. كان يربت عليه بين الفينة والأخرى ويشعر بزوال ارتعاشاته وهما يمشيان. سارا بعض الوقت، لأن الحديقة، رغم أنها ليست من الغيم، تغيرت واتسعت حولها. وأصبحت أسيجة الوشيع مصاطب من الزهور الوردية الفاتحة وتبين أن النافورة -التي شاهداها بوضوح من بعيد كل الوقت- من البلور أو لعلها من الزبرجد. بضع خطوات أُخر، وغدا كل شيء في أصص مزينة، وتسلقت الأوراق ذات المعترشات على عُمد مصقولة. وغدا نخير صوفي أعلى. وكان جوف النافورة، البعيدة جدًّا عنهما، من الفضة محلاة بالياقوت.

«لقد فعل هذا العفريت ما يحلو له بقلعة شخص ما»، قالت صوفي. «لقد كان هذا حمامنا، ما لم أفقد صوابي تمامًا».

شعر عبدالله بوجهه يتوهج. وسواء أكان هذا حمام صوفي أم لا، فقد كانت الحدائق مستوحاة من أحلام يقظته. كان هاسرل يسخر من عبدالله، مثلما سخر منه طوال الوقت. عندما تحولت النافورة أمامهما إلى نبيذ ذهبي متلألئ تجعل الياقوتات لونه داكنًا. فاستاء عبدالله بقدر استياء صوفي.

«ليس هذا ما يجب أن تكون عليه الحديقة، وإن غضضنا الطرف عن التغييرات المربكة»، قال غاضبًا. «يجب أن تكون الحديقة شبيهة بالطبيعة، فيها أجزاء برية، منها منطقة كبيرة للجريس».

«صحيح تمامًا»، قالت صوفي. «انظر إلى النافورة الآن! يا له من أسلوب لاستخدام الحمام!».

كانت النافورة من الذهب الأبيض مع الزمرد. «بهرجة رخيصة!»، قال عبدالله. «حين أصمم حديقتي...».

وقاطعه صراخ طفل، فأخذ كلاهما يركض.

الفصل الثامن عشر

وهو مليء بالأميرات

علت صرخات الطفل، وما خامرهما شك في الاتجاه. فركض صوفي وعبدالله ناحيته على امتداد رواق معمّد، فقالت صوفي منقطعة الأنفاس «هذا ليس مورغان، بل هو طفل أكبر».

ظن عبدالله أنها محقة، فقد سمع كلمات بين تلك الصرخات، رغم أنه لم يفهم ما هي. ولا شك في أن مورغان، ولو صرخ بأعلى صوته، ما كان له رئتان كبيرتان يصنع بهما هذا الضجيج كله. وبعدما أصبحت الصرخات عالية جدًّا لا تحتمل، تحولت إلى نشيج حاد. ثم غدا النشيج واه واه واه! ثابتة متبرمة. وإذ غدا الصوت لا يطاق حقًّا، رفع الطفل أو الطفلة صوته أو صوتها في صرخات جنونية من جديد.

تبع عبدالله وصوفي الصوت حتى آخر الرواق وخرجا منه إلى ردهة كبيرة من غيم. هنالك وقفا حذرين خلف عمود فقالت صوفي «هذه غرفتنا الرئيسة. لا بد أنهم فجروها كما يفجرون بالونًا!».

كانت ردهة كبيرة جدًّا، والطفل الصارخ في وسطها. كانت في الرابعة من عمرها، لها عقصات فاتحة وتلبس منامة بيضاء. كان وجهها أحمر، وفمها مربع أسود، تلقي بنفسها على الأرضية المصنوعة من الحجر السماقي الأخضر ثم تقف ثانية لترمي نفسها من جديد. ولو كان لطفل أن يغضب غضبًا شديدًا لكانت هذه. وقد بكى معها رجع الصدى في الردهة الكبيرة.

«هذه الأميرة ڤالريا»، همست صوفي لعبدالله. «عرفت ذلك».

وحول الأميرة الباكية كانت هيئة هاسرل الضخمة تحوم. عفريت آخر، أصغر بكثير وأفتح، كان يتخفى وراءه. «افعل شيئًا!» صرخ العفريت الصغير. ولولا أن صوته كان شبيهًا بصوت أبواق فضية لما كان مسموعًا. «إنها تفقدني صوابي!».

أحنى هاسرل سحنته الكبيرة ناحية وجه ڤالريا الباكي. «أيتها الأميرة الصغيرة»، قال لها متوددًا بصوته الهادر. «كفي عن البكاء، فلن نؤذيك».

كان جواب الأميرة ڤالريا بأن وقفت أولًا وصرخت في وجه هاسرل، ثم رمت نفسها على الأرض وتدحرجت وركلت.

«واه واه واه!»، زعقت. «أريد البيت! أريد أبي! أريد مربيتي! أريد عمي جستن! واااااه!».

«أيتها الأميرة الصغيرة!»، تودد إليها هاسرل يائسًا.

«لا تتملقها فقط!»، صرخ العفريت الثاني، الذي كان دَلزل

من غير شك. «اسحرها بشيء ما! أحلام حلوة، رقية صمت، ألف دمية دب محشوة، طن من حلوى التوفي! أي شيء!».

استدار هاسرل إلى أخيه، وقد روّح جناحاه المبسوطان عواصف حانقة طيّرت شعر ڤالريا وجعلت منامتها ترفرف.

تعين على عبدالله وصوفي أن يتشبثا بالعمود وإلا طيّرتهما قوة الريح إلى الوراء.

لكن هذا لم يؤثر في نوبة غضب الأميرة ڤالريا، بل إنها رفعت صراخها. «لقد جربت كل هذا يا أخي!»، قال هاسرل هادرًا.

كانت الأميرة ڤالريا تطلق صرخات منتظمة «أمي! أمي! إنهما يؤذياني!» وتعين على هاسرل أن يرفع صوته ليصبح رعدًا مدويًا.

«ألا تعلم»، قال مرعدًا، «أنه ما من سحر يوقف طفلًا وهو في هذه الحال؟».

سد دَلزل أذنيه بيديه الفاتحتين، أذنين مدببتين لهما هيئة الفطر. «لا أطيق هذا!»، قال زاعقًا. «اجعلها تنام مئة عام!».

هز هاسرل رأسه موافقًا، والتفت عائدًا إلى الأميرة ڤالريا وهي تصرخ وتخبط على الأرض فبسط يده الضخمة فوقها.

«يا إلهي!»، قالت صوفي لعبدالله. «افعل شيئًا!».

ولمَّا لم يكن عبدالله يعرف ما يفعله، ولمَّا شعر سرًّا أن أي شيء يوقف هذا الضجيج الفظيع كان فكرة حسنة، لم يفعل شيئًا سوى

الابتعاد عن العمود حائرًا. ولحسن الحظ، وقبل أن يكون لسحر هاسرل أي أثر ملحوظ في الأميرة ڤالريا، جاء جمع من الناس. وقاطع الصياح صوت عالٍ مزعج.

«ما كل هذه الجعجعة؟».

نظر كلا العفريتين إلى الوراء. كان الوافدون كلهم من النساء وكلهن يبدو عليهن الاستياء الشديد، ولكن بقولك هذا، فأنت تذكر الأمرين اللذين يشتركن فيهما كلهن. لقد وقفن في صف، ثلاثين أو نحوها، ينظرن باتهام إلى العفريتين، وقد كنّ طويلات وقصيرات، مكتنزات ونحيلات، شابات وكبيرات، من كل لون أنجبه بنو البشر. تفحصت عينا عبدالله الصف في عجب. لا بد أن هؤلاء الأميرات المختطفات، وهذا ثالث أمر يشتركن فيه جميعًا. وقد اصطففن من الأميرة الضئيلة الصفراء الصغيرة الأقرب إليه، إلى الأميرة المسنة المحنية الظهر في المنتصف، ويلبسن كل لون من الثياب، من فساتين الحفلات إلى النسيج الصوفي الخشن.

كانت المتحدثة أميرة متوسطة قوية البنية تقف متقدمة الأخريات قليلًا. وكانت تلبس ثياب ركوب الخيل، ووجهها الذي كان مسمرًّا ومخططًا بعض الشيء بسبب الرياضة في الهواء الطلق، ذكيًا صريحًا. نظرت إلى العفريتين بازدراء خالص. «يا للسخافة!»، قالت. «كائنان كبيران قويان مثلكما، وتعجزان عن إسكات طفلة تبكي!»، وتقدمت نحو ڤالريا وصفعتها صفعة حارة على عجيزتها المرتجة. «اخرسي!».

نجح ذلك. لم تتلقَ ڤالريا صفعة في حياتها من قبل، فتدحرجت واعتدلت كأنها ركلت. وحملقت إلى الأميرة الصريحة بعينين مدهوشتين متورمتين «لقد ضربتني!».

«وسأضربك ثانية إن طلبته»، قالت الأميرة الصريحة.

«سأصرخ»، قالت ڤالريا، واستحال فمها إلى مربع مرة أخرى، وأخذت نفسًا عميقًا.

«كلا، لن تفعلي»، قالت الأميرة الصريحة. وحملت ڤالريا وألقت بها سريعًا بين يدي أميرتين خلفها. فتحلقتا، ومعهما أخريات حول ڤالريا، وهن يصدرن أصواتًا مهدئة. ومن وسط الحشد أخذت ڤالريا تصرخ مرة أخرى، ولكن بصورة لم تكن مقنعة جدًا. تخصرت الأميرة الصريحة والتفتت إلى العفريتين بازدراء. «أترينان؟»، قالت. «كل ما تحتاجانه هو القليل من الحزم وبعض اللطف، ولكن لا ينتظر من أحدكما أن يفهم هذا!».

تقدم دَلزل نحوها. ورأى عبدالله أن دَلزل، وقد زالت عنه حرقته، كان وسيمًا. ولولا أذناه الفطريتان أو قدماه ذواتا البراثن، لكان رجلًا طويلًا ملائكي الوجه. فقد غطت رأسه خصل ذهبية وكان جناحاه ذهبيين أيضًا، رغم صغرهما وهيئتهما القزمة. وامتط فمه شديد الحمرة بابتسامة عذبة. كان له جمال سماوي يماثل قلعة الغيم الغريبة حيث يعيش. «خذن الطفلة من فضلكن»، قال، «وهدِّئنها، أيتها الأميرة بياترس، يا أذكى زوجاتي».

كانت الأميرة الصريحة بياتريس تشير إلى الأميرات الأخريات ليأخذن ڤاليريا، لكنها ردت بحدّة على هذا «لقد أخبرتك يا فتاي»، قالت، «أنك لست بزوج لأي واحدة منا. بوسعك أن تسمينا كذلك حتى يزرق وجهك، لكن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا. نحن لسنا بزوجاتك ولن نكون أبدًا!».

«تمامًا!»، قالت جل الأميرات الأخريات، في صوت واحد حازم أجش. كلهن، عدا واحدة، استدرن وابتعدن، آخذات الأميرة ڤاليريا الباكية معهن.

أشرق وجه صوفي بابتسامة الرضا. فهمست «يبدو أن الأميرات يحسنّ تصريف أمورهن!».

لم يستطع عبدالله الانتباه إليها. فقد كانت الأميرة الماكثة زهرة في الليل. لقد كانت، كعادتها، أجمل ضعفين مما يتذكرها، وهي تبدو شديدة العذوبة والحزن، وعيناها السوداوان تنظران إلى دَلزل نظرات جادة. انحنت بتهذيب، فطرب قلب عبدالله لرؤيتها. كأنها عمد الغمام من حوله قد تحركت في ظهور وخفاء. فدق قلبه فرحًا، إنها بخير! إنها هنا! وكانت تكلم دَلزل.

«اغفر لي أيها العفريت العظيم، إن مكثت لأسألك سؤالًا»، قالت وقد كان صوتها رخيمًا ومرحًا مثل نافورة باردة، أكثر مما يتذكره عبدالله.

استجاب دَلزل بشيء من الخوف، وهذا ما أثار حنق عبدالله.

«أوه لست أنت مرة أخرى!»، قال زاعقًا، وعندئذ هاسرل، الواقف مثل عمود أسود في الخلف، طوى ذراعيه وابتسم ابتسامة خبيثة.

«بلى إنها أنا، أيها الخاطف العنيد لبنات السلاطين»، قالت زهرة في الليل، ورأسها محني بتهذيب. «أنا هنا لأسألك عن الشيء الذي أثار بكاء الطفلة».

«وأنّى لي أن أعرف؟»، سأل دَلزل. «أنت تسألينني دومًا أسئلة لا أعرف إجابتها! لماذا تطرحين هذا السؤال؟».

«لأن»، أجابت زهرة في الليل، «يا سارق ذرية الحكام، أسهل طريقة لتهدئة طفلة أن تعالج سبب غضبها. هذا ما أعرفه من طفولتي، إذ كان لي نوبات غضب كثيرة».

غير صحيح طبعًا! خطر لعبدالله. إنها تكذب لسبب ما. فلا يعقل أن من لها طبعها العذب أن تصرخ يومًا لأجل شيء! لكنه استشاط غضبًا لرؤية دَلزل يصدق هذا دون عناء.

«أراهن أنك كنت كذلك!»، قال دَلزل.

«فما السبب إذن، يا فاجع الشجعان؟»، ألحت عليه زهرة في الليل. «أكانت رغبتها في العودة إلى قصرها، أو أن تحصل على دميتها، أو لأنك أثرت خوفها بوجهك أو...؟».

«لن أعيدها إن كان هذا ما ترمين إليه»، قاطعها دَلزل. «إنها واحدة من زوجاتي».

«أناشدك إذن أن تعرف ما الذي يسكتها يا آسر الشريفات»، قالت زهرة في الليل بأدب. «فمن غير معرفتك هذا، قد لا تتمكن ثلاثون أميرة من إسكاتها». الحقيقة أن صوت الأميرة ڤالريا كان يعلو من بعيد -واه واه واااااه- وهي تتكلم. «أتكلم إليك من خبرتي»، قالت زهرة في الليل، «فقد صرخت ليلًا ونهارًا، لأسبوع كامل حتى بُحّ صوتي، لأني نفدت عندي الأحذية المفضلة».

وأدرك عبدالله أن زهرة في الليل كانت تقول الحقيقة بحذافيرها. حاول أن يصدق الأمر، ولكنه مهما حاول جاهدًا فلم يتخيل محبوبته زهرة في الليل تستلقي على الأرض وتركل وتصرخ.

لم يجد دَلزل عناء في تصديق هذا، بل ارتعد والتفت غاضبًا إلى هاسرل. «فكر، ألا تستطيع؟ أنت من أحضرها. لا بد أنك تعرف ما الذي يسكتها».

تغضنت سحنة هاسرل السمراء الكبيرة يائسًا. «يا أخي، لقد أحضرتها عبر المطبخ لأنها كانت صامتة شاحبة من الخوف وظننت أن الحلوى ستسعدها. لكنها ألقت الحلوى إلى كلب الطاهي وظلت صامتة. بدأ بكاؤها، كما تعرف، بعد أن وضعتها بين الأميرات الأخريات، وصراخها بعد أن طلبت إحضارها...».

رفعت زهرة في الليل إصبعًا. «آه»، قالت.

فالتفت إليها كلا العفريتين. «عرفت الأمر»، قالت. «لا بد أنه كلب الطاهي. كثيرًا ما يكون السبب حيوانًا عند الأطفال. لقد

اعتادت أن تعطى كل ما تريد وهي تريد الكلب. مر طاهيك، يا ملك الخاطفين، أن يجلب حيوانه إلى غرفنا وسيتوقف الضجيج، أؤكد لك هذا».

«حسن جدًّا»، قال دَلزل. «افعل ذلك!»، زعق بهاسرل.

انحنت زهرة في الليل. «أشكرك!»، قالت واستدارت وابتعدت بوقار.

هزت صوفي ذراع عبدالله. «لنتبعها».

لم يتحرك عبدالله ولا أجاب، بل حملق إلى زهرة في الليل، لا يكاد يصدق أنه يراها حقًّا، كما أنه لا يصدق أن دَلزل لم يلقِ بنفسه عند قدميها ويعشقها. وكان عليه أن يعترف بأن هذا مريح، ولكن...!

«إنها محبوبتك، أليس كذلك؟» قالت صوفي بعد نظرة واحدة إلى وجهه. فهز عبدالله رأسه موافقًا. «لك ذوق رفيع»، قالت صوفي. «هلم الآن قبل أن يريانا!».

وتسللا خلف الأعمدة في الاتجاه الذي سارت فيه زهرة في الليل، ناظرين بعين يقظة إلى الردهة الكبيرة وهما يذهبان. في الطرف القصي كان دَلزل يجلس شكسًا على عرش يعلو قلبة من العتبات. ولدى عودة هاسرل من المطبخ أشار إليه دَلزل بأن يجثو قرب العرش. لم ينظر أي منهما في اتجاه عبدالله وصوفي، اللذين سارا خفية نحو ممر مقنطر لم تزل ستارته تتمايل بعد أن رفعتها زهرة في الليل ودخلت منها. ودفعا الستارة ولحقا بها.

كان خلفها غرفة كبيرة حسنة الإضاءة، تغص بالأميرات على نحو محير. ومن مكان ما بينهن نشجت الأميرة ڤاليريا «أريد العودة إلى البيت الآن!».

«اهدئي يا عزيزتي، ستعودين قريبًا»، قالت إحداهن.

فقال صوت الأميرة بياتريس «لقد أحسنت البكاء يا ڤاليريا. نحن فخورات بك، ولكن كفي عن البكاء الآن، هيا أيتها الفتاة المطيعة».

«لا أستطيع!»، نشجت ڤاليريا، «لقد اعتدت الأمر!».

كانت صوفي تنظر إلى أرجاء الغرفة في غضب يتزايد. «هذه خزانة مكانسنا!»، قالت. «حقًّا!».

لم ينتبه إليها عبدالله لأن زهرة في الليل كانت قريبة جدًّا، تنادي بنعومة «بياتريس!».

سمعتها الأميرة بياتريس وبرزت من بين الحشد. «لا تقولي لي»، قالت. «لقد نجحت. جيد. لا يعرف هذان العفريتان ما يصيبهما إن كنت توبخينهما يا زهرة. ثم إن الأمور تمضي جيدًا إن وافق ذلك الرجل...».

عندئذ لاحظت وجود عبدالله وصوفي. «من أين برزتما أنتما الاثنان؟»، قالت.

فاستدارت زهرة في الليل. ولوهلة عندما رأت عبدالله، كان في وجهها كل ما تمناه: الإكبار والبهجة والحب والفخر. عرفتُ أنك

ستأتي لإنقاذي! قالت عيناها السوداوان. ثم اختفى كل شيء، وهذا ما آلمه وحيره. فقد أصبح وجهها رائقًا مهذبًا، وانحنت انحناءة لائقة. «هذا الأمير عبدالله من زنزيب»، قالت، «لكني لا أعرف السيدة».

أيقظ سلوك زهرة في الليل عبدالله من دواره. وخطر له أنها الغيرة من صوفي بلا شك، فانحنى هو أيضًا وأسرع لإيضاح الأمر.

«هذه السيدة، يا درة بين لآلئ تاج الملك، زوجة ساحر البلاط هاول وجاءت إلى هنا تبحث عن ابنها».

فأدارت الأميرة بياتريس وجهها الألمعي المسفع نحو صوفي.

«أوه، إنه ابنك!»، قالت. «أيحدث أن هاول معك؟».

«لا»، قالت صوفي بائسة. «أرجو أن يكون هنا».

«أخشى أن لا أثر له»، قالت الأميرة بياتريس. «خسارة. كان سيساعدنا وإن ساعد في هزيمة بلادي. ولكن ابنك عندنا. تعالي معي من هنا».

تقدمت الأميرة بياتريس صوفي إلى مؤخرة الغرفة، متجاوزتين جمعًا من الأميرات اللاتي يحاولن تهدئة ڤالريا. ولما ذهبت زهرة في الليل معها، تبعها عبدالله. وازداد توتره لما رأى زهرة في الليل لا تكاد تنظر إليه، بل تميل رأسها بأدب لكل أميرة في مرورها. «أميرة ألبريا»، قالت برسمية. «أميرة فرقطان. الليدي وريثة ثاياك. هذه أميرة پشستان وبجانبها جميلة إنهيكو. وخلفها ترى آنسة دورمياند».

إن لم تكن غيرة فما الأمر إذن؟ تساءل عبدالله تعيسًا.

كان في مؤخرة الغرفة مقعد طويل عريض عليه وسائد. «رف بواقي القماش!» قالت صوفي غاضبة. كانت ثلاث أميرات يجلسن على المقعد، الأميرة المسنة التي رآها عبدالله من قبل، وأميرة بليدة تغوص في معطف، والأميرة الصفراء الضئيلة تجثم بينهن. كان ذراعا الأميرة الضئيلة الشبيهتان بالغصنين ملتفتين على الجسد الوردي المكتنز لمورغان.

«هذه، بقدر ما نجيد لفظ الاسم، سمو أميرة تساپفان»، قالت زهرة في الليل بجفاء. «وعلى يمينها أميرة نورلاند العالية، وعلى يسارها درة جهام».

بدت الأميرة الضئيلة لتساپفان مثل طفلة تحمل دمية كبيرة جدًّا عليها، ولكنها كانت ترضع مورغان من رضاعة كبيرة، بأشد الطرق خبرة وعلمًا.

«إنه بخير معها»، قالت الأميرة بياتريس. «وكان أمرًا مفيدًا لها، فقد أزال همها. تقول إن لها من الأطفال أربعة عشر».

رفعت الأميرة الضئيلة رأسها بابتسامة خجلى «وكلهم أوراد [أولاد]»، قالت بلثغة صغيرة.

كانت يدا مورغان وأصابع قدمه تنقبض وتنبسط، وبدا مثالًا للطفل السعيد. نظرت إليه صوفي لحظة. «من أين حصل على هذه الرضاعة؟»، سألت كأنها تخاف أن تكون مسمومة.

رفعت الأميرة الضئيلة نظرها ثانية، وابتسمت وأفردت إصبعًا صغيرًا وأشارت.

«إنها لا تتكلم لغتنا جيدًا»، قالت الأميرة بياتريس موضحة. «ولكن الجني فهمها».

كانت إصبع الأميرة الشبيهة بالغصن تشير إلى الأرض قرب المقعد، حيث تحت قدميها المتدليتين، انتصب قمقم أزرق بنفسجي مألوف. نزل عبدالله لأخذه، ونزلت درة جهام الخرقاء في اللحظة نفسها، بيد قوية قوة مفاجئة.

«توقفا!»، قال الجني من الداخل وهما يتصارعان من أجله. «لن أخرج! سيقتلني هذان العفريتان هذه المرة بلا ريب!».

أمسك عبدالله القمقم بكلتا يديه ورجه، فجعلت رجته المعطف الملفوف يسقط عن الأميرة. ووجد عبدالله نفسه ينظر إلى عينين كبيرتين زرقاوين في وجه مخطط داخل لبدة من الشعر الأشيب. تغضن الوجه ببراءة حين ابتسم له الجندي ابتسامة خائفة وترك قمقم الجني.

«أنت!»، قال عبدالله بقرف.

«واحد من رعاياي المخلصين»، قالت الأميرة بياتريس. «جاء لإنقاذي. صحيح أنه أخرق بعض الشيء. علينا أن نخفيه».

أخذت صوفي عبدالله والأميرة بياتريس جانبًا. «دعاني أغايظه»، قالت.

الفصل التاسع عشر

وفيه يعرض طاهٍ وجندي وتاجر بُسُط أسعارهم

مر وقت وجيز من ضجيج عالٍ غمر الأميرة ڤالريا تمامًا، جاء جله من صوفي التي بدأت بكلمات خفيفة من قبيل «لص» و«كاذب» وصعَّدتها إلى اتهامات صارخة للجندي بجرائم لم يسمع بها عبدالله من قبل، ولعل الجندي لم يفكر في ارتكابها أيضًا. رأى عبدالله، وهو يصغي، أن صوت الرافعة المعدنية التي اعتادت صوفي إطلاقه حين كانت بُهرة الليل كان أجمل حقًّا من هذا الصوت الذي تصدره الآن. غير أن الجندي أصدر صوتًا هو الآخر، وقد كان جاثيًا على ركبة واحدة ويداه أمام وجهه ويجأر بصوت يعلو ويعلو «بُهرة الليل، أعني سيدتي! دعيني أشرح لك يا بُهرة الليل، إه، يا سيدتي!».

واستمرت الأميرة بياتريس تضيف بصوت حاد «كلا، دعني أشرح أنا!».

وزاد عدد من الأميرات اللغط بقولهن «أوه اهدئوا من فضلكم وإلا سمعكما العفريتان!».

حاول عبدالله إيقاف صوفي بهز ذراعها متوسلًا. غير أن شيئًا لم يكن ليوقفها على الأرجح، لولا أن مورغان أبعد فمه عن الرضاعة، ونظر حوله في استياء وأخذ يبكي أيضًا. أغلقت صوفي فمها بسرعة ثم فتحته لتقول «حسن إذن، اشرح».

وفي الهدوء النسبي، هدّأت الأميرة الضئيلة مورغان وعادت إلى إرضاعه ثانية.

«لم أنوِ جلب الطفل»، قال الجندي.

«ماذا؟»، قالت صوفي. «كنت ستهجر طفلي...».

«لا، لا»، قال الجندي. «قلت للجني أن يضعه حيث يعتني به أحد وأن يأخذني إلى حيث أميرة إنغري. لن أنكر أني كنت أسعى إلى المكافأة». قال مناشدًا عبدالله. «ولكنك تعرف الجني، أليس كذلك؟ وكل ما عرفته بعد ذلك، أننا كنا هنا».

رفع عبدالله قمقم الجني ونظر إليه. «لقد حققت له أمنيته»، قال الجني من الداخل عابسًا.

«وكان الرضيع يصرخ حتى بح صوته»، قالت الأميرة بياتريس. «فأرسل دَلزل هاسرل ليعرف ما هذا الصوت، وكل ما استطعت التفكير فيه هو القول إن هذه الأميرة ڤالريا في نوبة غضب. ثم كان علينا أن نوقف صراخ ڤالريا. وهنا بدأت زهرة في التخطيط».

التفتت ناحية زهرة في الليل، التي شغلها أمر آخر من غير شك، ولم يكن لهذا الأمر الآخر علاقة بعبدالله، ورأى عبدالله ذلك

حزينًا. كانت تحدق عبر الغرفة «أحسب أن الطاهي هنا مع الكلب يا بياتريس»، قالت.

«أوه جيدا!»، قالت الأميرة بياتريس. «هلموا بنا جميعًا»، وسارت نحو وسط الغرفة.

كان رجل يعتمر قبعة طاهٍ طويلة يقف هناك. كان رجلًا أشيب أعور ذا ندبات، وكلبه ملتصق بساقيه، ينبح على أي أميرة تقترب. ولعل هذا أظهر أنه إحساس الطاهي أيضًا. فقد بدا شديد الارتياب في كل شيء.

«جمال!»، صاح عبدالله. ثم رفع قمقم الجني ونظر إليه ثانية.

«حسن، لقد كان أقرب مكان ليس بزنزيب»، قال الجني معترضًا.

فرح عبدالله كثيرًا برؤية صديقه القديم سالمًا فلم يجادل الجني. بل تقدم متجاوزًا عشر أميرات، وقد نسي تهذيبه تمامًا، وأمسك جمال بيديه «صديقي!».

نظرت عين جمال الواحدة. فانهمرت منها دمعة حين عصر يد عبدالله أيضًا. «أنت بخير!»، قال. قفز كلب جمال على قائمتيه الخلفيتين ووضع كفيه الأماميين على بطن عبدالله، لاهثًا لهاث المحب. فملأ الهواءَ أنفاس لها رائحة الحبار المألوفة.

وسرعان ما بدأت ڤالريا صراخها مرة أخرى. «لا أريد هذا الكلوب! رائحته نتنة!».

«أوه اصمتي!»، قالت ست أميرات على الأقل. «تظاهري يا عزيزتي. نحن بحاجة إلى مساعدة الرجل».

«لا... أريد..!» صرخت الأميرة ڤالريا.

فابتعدت صوفي من حيث كانت تميل منتقدة الأميرة الضئيلة وتقدمت نحو ڤالريا. «كفي عن ذلك يا ڤالريا»، قالت. «أنت تذكرينني، أليس كذلك؟».

وكان واضحًا أن ڤالريا تذكرها. فقد هرعت إلى صوفي وطوقت ساقيها بذراعيها، وانفجرت في بكاء أشد حرقة. «صوفي، صوفي، صوفي! خذيني إلى البيت!».

جلست صوفي على الأرض وعانقتها. «اهدئي اهدئي. سنأخذك إلى البيت قطعًا. علينا تدبير الأمر أولًا. هذا غريب جدًّا»، قالت للأميرات المتحلقات. «أشعر أني ذات خبرة مع ڤالريا، لكني أخاف حتى الموت من إسقاط مورغان».

«ستتعلمين»، قالت الأميرة المسنة من نورلاند العالية، وهي تجلس بجانبها. «قيل لي إن الجميع يتعلمن».

خطت زهرة في الليل إلى وسط الغرفة. «صديقاتي»، قالت، «وأنتم أيها الرجال الثلاثة اللطيفون، علينا أن نتباحث معًا ونناقش المأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه ونخطط للخروج منه سريعًا. ولكن قبل كل شيء سيكون من الحكمة أن نضع رقية للصمت عند الباب. فليس من صالحنا أن يتناهى الصوت إلى

خاطفينا». وتحولت عيناها، بفتور وذكاء، ناحية قمقم الجني في يد عبدالله.

«لا!»، قال الجني. «حاولوا أن تجعلوني أفعل شيئًا وسأحولكم كلكم إلى ضفادع!».

«سأفعلها أنا»، قالت صوفي. وتقدمت متثاقلة وڤالريا ما تزال متشبثة بتنورتها وذهبت ناحية الباب، إذ أمسكت الستارة ملء يدها. «لست قماشًا يسمح بخروج الأصوات، صحيح؟»، قالت للستارة. «أرى أن تكلمي الجدران وتوضحي هذا تمامًا. أخبريها بألا يتمكن أحد من سماع كلمة مما نقول في هذه الغرفة».

وهمست جل الأميرات همسات الاستحسان والارتياح لهذا. لكن زهرة في الليل قالت «اغفري لي ميلي إلى النقد، أيتها الراقية الماهرة، لكني أحسب أن على العفريتين أن يسمعا شيئًا وإلا ساورهما الشك».

وطافت أميرة تساپفان الضئيلة ومورغان يبدو ضخمًا بين يديها. وناولت الصبي صوفي بحذر، فبدا الذعر على وجه صوفي وأمسكت مورغان كأنها تمسك قنبلة توشك أن تنفجر. ولم يعجب هذا مورغان، فلوح بذراعيه، والأميرة الضئيلة تضع كلتا يديها الصغيرتين على الستارة، وارتسمت على وجهه علائم القرف فقال «تجشؤ!».

فقزت صوفي وكادت أن تسقط مورغان. «يا رب السماوات!»، قالت. «لا علم لي بأن الأطفال يفعلون هذا!».

ضحكت ڤالريا من كل قلبها. «أخي يتجشأ، كل الوقت».

صنعت الأميرة الضئيلة حركات تظهر أنها انتهت من اعتراض زهرة في الليل، فاستمع الكل بإنصات. وتناهى إليهم من بعيد همهمة وطنين مبهجان لأميرات يتحدثن معًا. بل كان بينها صرخة عارضة تبدو مثل صراخ ڤالريا.

«مثالي»، قالت زهرة في الليل. وابتسمت ابتسامة ودودة للأميرة الضئيلة وتمنى عبدالله لو أنها تبتسم هكذا له. «فليجلس الجميع الآن، لا بد من وضع خطة الهرب».

أطاع الجميع كل على طريقته، فقد قرفص جمال وكلبه بين ذراعيه، باديًا عليه الارتياب. وجلست صوفي على الأرض تحمل مورغان بين ذراعيها بلا إتقان وڤالريا تتكئ عليها. كانت ڤالريا سعيدة الآن. جلس عبدالله متربعًا بجانب جمال، وجاء الجندي وجلس بعيدًا عنه بمجلسين، إذ أحكم عبدالله قبضته على قمقم الجني وتشبث بالبساط فوق كتفه بيده الأخرى.

«إن الفتاة زهرة في الليل أعجوبة حقيقية»، قالت الأميرة بياتريس. «فقد جاءت هنا وهي لا تعرف شيئًا ما لم تقرأه في كتاب، وتتعلم طوال الوقت. استغرق منها الأمر يومين لتقيّم دَلزل، ذلك العفريت التعيس يخاف منها حد الموت الآن. قبل مجيئها كل ما استطعت فعله أن أبين للمخلوق أننا لن نكون زوجاته. لكنها ذات طموح كبير. وعزمت أمرها على الهرب منذ البداية، وقد كانت تخطط طوال الوقت لنتمكن من إشراك الطاهي ليساعدنا.

وهاقد نجحت. انظروا إليها! إنها تصلح لأن تحكم إمبراطورية، ألا توافقوني؟».

هز عبدالله رأسه موافقًا بحزن وراقب زهرة في الليل وقد وقفت تنتظر أن يهدأ الجميع. كانت ما تزال تلبس الثياب الشفافة التي كانت تلبسها حين انتزعها هاسرل من حديقتها الليلية. وما زالت نحيلة وأنيقة وجميلة كعادتها. كانت ثيابها الآن مجعدة وبالية بعض الشيء. لم يشك عبدالله في أن كل تجعيدة، وكل مزق مثلث وكل خيط متدلٍّ يعني شيئًا جديدًا تعلمته زهرة في الليل. تصلح لأن تحكم إمبراطورية حقًّا! قال في نفسه. وقارن زهرة في الليل بصوفي، التي أزعجته لأنها صعبة المراس، وعرف أن زهرة في الليل تفوقها في ذلك بضعفين. ومثلما يعرف عبدالله، لم يزد هذا زهرة في الليل إلا روعة. وما أتعسه هو تحاشيها بأدب وحذر الإشارة إليه بأي صورة. وتمنى أن يعرف السبب.

«المشكلة التي تواجهنا»، قالت زهرة في الليل عندما انتبه عبدالله. «أننا في مكان لا ينفعنا خروجنا منه. لو تمكنا من التسلل خارج القلعة دون أن يدرك العفريتان ذلك، أو أن يمنعنا ملائكة هاسرل، فلن نفعل شيئًا سوى الغوص في الغيوم وأن نسقط سقوطًا مروعًا إلى الأرض، التي تبعد مسافة طويلة في الأسفل. وإن استطعنا قهر هذه الصعاب بصورة ما...» هنا التفتت عيناها إلى القمقم في يد عبدالله، ومن ثم إلى البساط على كتفه، متفكرة، ولكنها للأسف لم تنظر إلى عبدالله «... فلا شيء يمنع دَلزل من إرسال أخيه ليعيدنا. لذا

فإن جوهر أي خطة يجب أن يكون قهر دَلزل. نعرف أن قوته الكبرى تنبع من كونه سرق حياة أخيه هاسرل، لذا يجب أن يطيعه هاسرل أو يموت. وهذا يعني أن علينا، بغية الهرب، أن نجد حياة هاسرل ونعيدها إليه. أيتها السيدات الكريمات، أيها السادة المحترمون وأيها الكلب المبجل، أدعوكم إلى عرض أفكاركم حول هذا».

أحسنت القول يا زهرة أمنياتي! قال عبدالله في نفسه حزينًا عندما جلست زهرة في الليل بلباقة.

«ولكنا لا نعرف مكان حياة هاسرل بعد!»، ثغت أميرة فرقطان البدينة.

«صحيح»، قالت الأميرة بياتريس. «ولا أحد يعرف مكانها إلا دَلزل».

«ولكن المخلوق اللعين يرمي التلميحات دومًا»، تذمرت أميرة ثاياك الشقراء.

رفعت صوفي نظرها وقالت «أي تلميحات؟».

ساد لغط مربك لمّا حاولت نحو عشرين أميرة أن يخبرن صوفي في وقت واحد. وأرهق عبدالله أذنيه ليلتقط واحدًا من التلميحات وكانت زهرة في الليل تنهض لتعيد النظام، عندما قال الجندي بصوت عالٍ «أوه اخرسن، كلكن!».

فساد الصمت المطبق، والتفتت عينا كل أميرة ناحيته في غضب ملكي جامد.

وجد الجندي هذا مسليًا جدًّا فقال «متعجرفات! انظرن إليَّ مثلما شئتن يا سيداتي، ولكن فكرن أثناء ذلك إن كنت وافقت على مساعدتكن في الهرب. لم أفعل، ولماذا أفعل؟ لم يؤذني دَلزل في شيء».

قالت الأميرة المسنة من نورلاند العالية «ذلك لأنه لم يجدك بعد يا صديقي الطيب. أتود الانتظار لترى ما سيحدث لك إن عرف بأمرك؟».

«سأجازف»، قال الجندي. «من جانب آخر فقد أساعدكن -أحسبكن لن تبتعدن من غير مساعدتي- شرط أن تكافئ إحداكن جهودي».

جلست زهرة في الليل على ركبتيها استعدادًا للوقوف قالت بإبائها الجميل «تكافئ جهودك بأي صورة، أيها المرتزق الخسيس؟ كلنا لنا آباء أثرياء جدًّا. ستمطرك المكافآت حالما نعود إليهم. أتود أن تتعهد لك كل واحدة منا بمبلغ؟ يمكن تدبير هذا».

«ولن أرفض»، قال الجندي. «لكن هذا ليس ما قصدته يا جميلتي. لقد وُعدت، لدى بدء هذه المغامرة، أني سأحصل على أميرة لي. وهذا ما أريده، أن أتزوج أميرة. لا بد أن تقبل بي إحداكن. وإن لم تستطعن أو لم تقبلن، فاعتبرنني خارج الموضوع وسأنطلق لأصالح دَلزل ويمكنه استئجاري لحراستكن».

وساد صمت أكثر غضبًا وجمودًا وملكية من ذي قبل إن أمكن القول، حتى تمالكت زهرة في الليل نفسها ونهضت وقالت

«أصدقائي، نحتاج كلنا إلى مساعدة هذا الرجل، ولو كان ذلك من أجل مكرِه الهمجي الوضيع. فما لا نريده أن يُسلَّط علينا همجي مثله لحراستنا. لذا فإني أصوت على أن يسمح له باختيار زوجة له من بيننا. من يعارض؟».

كان جليًا أن كل الأميرات يعترضن بشدة. بل صوبت نظرات جامدة نحو الجندي، الذي ابتسم وقال «إن ذهبت إلى دَلزل وقدمت له نفسي لأحرسكن، فكنَّ واثقات أنكن لن تخرجن أبدًا. فأنا واعٍ لكل حيلة، أليس هذا صحيحًا؟»، سأل عبدالله.

«صحيح يا أمكر العرفاء»، قال عبدالله.

همست الأميرة الضئيلة همسات صغيرة. «تقول إنها متزوجة سلفًا، وعندها أربعة عشر طفلًا»، قالت الأميرة المسنة التي تفهم همسها.

«فلترفع يدها كل من لم تتزوج من فضلكن»، قالت زهرة في الليل، ورفعت يدها بكثير من الإصرار.

رفعت ثلثا الأميرات أيديهن مترددات كارهات. فالتفت رأس الجندي ببطء وهو ينظر إليهن، وقد ذكرت عبدالله النظرة على وجهه بصوفي، حين كانت بُهرة الليل، وهي توشك على تناول السلمون والقشدة. توقف قلب عبدالله والرجل ينقل عينيه الزرقاوين من أميرة إلى أخرى. كان جليًا أنه سيختار زهرة في الليل. فقد برز جمالها مثل زنبقة في ضوء القمر.

«أنت»، قال الجندي أخيرًا وأشار. ودهش عبدالله وارتاح لما وجد أنه يشير إلى الأميرة بياتريس.

فقالت الأميرة بياتريس وقد دهشت مثله «أنا؟».

«أجل، أنت»، قال الجندي. «لقد تمنيت دومًا أميرة جميلة متسلطة صريحة مثلك، ولأنك من سترانغيا فهذا يجعلك الاختيار المثالي».

احمر وجه الأميرة بياتريس بقدر حمرة الشوندر الفاقع، ولم يجعلها ذلك أجمل. «ولكن... ولكن»، قالت ثم تمالكت نفسها «أيها الجندي الطيب، أبلغك أني يفترض بي الزواج بالأمير جستن من إنغري».

«سيكون عليك أن تقولي له إنك خطبت إذن»، قال الجندي. «السياسة، أليس كذلك؟ يخيل إليَّ أنك ستكونين سعيدة بالتملص من الأمر».

«حسن، أنا...»، قالت الأميرة بياتريس. ودهش عبدالله لدى رؤيته الدموع في عينيها، فبدأت قولها من جديد. «أنت لا تعني هذا!»، قالت. «أنا لست جميلة المحيا أو أيًا من هذه الصفات».

«هذا يلائمني»، قال الجندي. «متواضعة. ماذا أفعل بأميرة صغيرة جميلة ضعيفة؟ أرى أنك ستساندينني في كل خديعة أعزم عليها. وأراهن أنك تجيدين رفو الجوارب أيضًا».

«صدق أو لا تصدق، أجيد ذلك حقًا»، قالت الأميرة بياتريس. «وأصلح الأحذية. أأنت جاد حقًا؟».

«نعم»، قال الجندي.

ودار كلاهما ليواجها بعضهما بعضًا، وتبين أن كليهما كان جادًّا. ونسيت بقية الأميرات نوعًا ما أن يتصرفن بجمود وملكية، إذ مالت كل واحدة منهن إلى الأمام ليراقبن بابتسامات استحسان رقيقة. وارتسمت على وجه زهرة في الليل الابتسامة نفسها إذ قالت «بوسعنا الآن استئناف نقاشنا، إلا إن كان لدى أحد آخر أي اعتراض؟».

«أنا.. أنا أفعل»، قال جمال. «أعترضُ».

فتأوهت كل الأميرات. احمر وجه جمال مثلما احمر وجه الأميرة بياتريس وزرّ عينه الوحيدة، لكن مثال الجندي جرأه.

«أيتها السيدات الجميلات»، قال، «إننا خائفان أنا وكلبي. فحتى انتزاعنا إلى الأعلى هنا لنعد لكُنَّ الطعام، كنا نجري في الصحراء وفي أعقابنا جِمال السلطان. لا نريد أن نعود إلى ذلك. ولكن إن استطعتن أيتها الأميرات الرائعات الهرب من هنا، فماذا نفعل؟ العفريتان لا يأكلان الطعام الذي أعده. لست أقصد الحط من شأن أحد، إن ساعدتكن في الهرب، فإننا سنفقد عملنا أنا وكلبي. الأمر بهذه البساطة».

«أوه يا إلهي»، قالت زهرة في الليل ولم يبدُ أنها تعرف ما تقول أيضًا.

«هذا مؤسف، فهو طاهٍ بارع»، قالت أميرة مكتنزة تلبس ثوبًا واسعًا أحمر، وربما كانت جميلة إنهيكو.

«إنه كذلك حقًّا»، قالت الأميرة المسنة من نورلاند العالية. «تسري في أوصالي رعدة كلما تذكرت الطعام الذي ظل هذان العفريتان يسرقانه لأجلنا حتى جاء»، والتفتت نحو جمال. «كان لجدي طاهٍ من راشپت»، قالت، «ولم أذق يومًا شيئًا لذيذًا كالحبار المقلي الذي يعده ذلك الرجل حتى جئت أنت! بل أنت أبرع منه. ساعدنا على الهرب يا رفيقي، وسأعينك بلمحة عين، أنت وكلبك. ولكن»، أردفت لما أضاءت ابتسامة وجه جمال المغضن، «تذكر من فضلك أن أبي العجوز يحكم بلدة صغيرة فقط. سيكون لك مقر ومتاع، لكني لا أستطيع دفع أجر كبير».

ظلت الابتسامة واسعة ثابتة على ملامح جمال. «سيدتي الرائعة الرائعة»، قال، «لست أبحث عن الأجر، بل الأمان. ومقابل هذا سأعد لك طعامًا يصلح للملائكة».

«هممم»، قالت الأميرة المسنة. «لست واثقة بما يأكله هؤلاء، ولكن ها قد سوينا الأمر. أيرغب أحد منكما أنتما الاثنان في شيء قبل أن يقدم المساعدة؟».

ونظر الجميع إلى صوفي.

«ليس حقًّا»، قالت صوفي بشيء من الحزن. «عندي مورغان، وما دام هاول ليس هنا، فلا أحتاج شيئًا آخر. سأساعدكن بكل الأحوال».

فنظر الجميع إلى عبدالله.

نهض وانحنى. «يا أقمارًا لأعين ملوك كثيرين»، قال، «لا يحق لامرئ تافه مثلي أن يفرض أي شرط مقابل مساعدتي على أحد مثلكن. فتقديم العون بلا مقابل هو الأجمل، كما تقول لنا الكتب». وكان قد وصل إلى هنا في خطابه لَمّا أدرك أنه كلام فارغ، فهو يريد شيئًا ما، يريده بشدة. فغيّر أسلوبه على عجالة. «وسأقدم العون بلا مقابل»، قال، «مجانًا مثلما يهب النسيم أو يسقي المطر الزهور. سأفني نفسي من أجلكن أيتها الكريمات ولا أطلب في المقابل إلا مكافأة صغيرة، أقل ما يمنح...».

«الفظ الدرّة أيها الشاب!»، قالت الأميرة المسنة من نورلاند العالية. «اذكر ما تريد».

«أريد التكلم لخمس دقائق على انفراد مع زهرة في الليل»، اعترف عبدالله.

فنظر الجميع إلى زهرة في الليل، وقد رفعت رأسها في شموخ.

«هيا يا زهرة»، قالت الأميرة بياتريس. «خمس دقائق لن تقتلك!».

وبدا جليًّا أن زهرة في الليل ترى أنها قد تقتلها! قالت مثلما تقول أميرة لحظة شنقها «حسن»، ونظرت نظرات أكثر جمودًا ناحية عبدالله وسألت «الآن؟».

«أو عاجلًا، يا يمامة أمنياتي»، قال منحنيًا بحزم.

هزت زهرة في الليل رأسها بجفاء ومشت إلى ركن من الغرفة، باديًا عليها العذاب الشديد. «هنا»، قالت وعبدالله يتبعها.

انحنى ثانية بحزم أكبر. «قلت على انفراد يا حلم تنهيداتي»، أشار.

جعدت زهرة في الليل باستيائها إحدى الستائر المعلقة قربها. «ما زالوا يستطيعون سماعنا»، قالت بجفاء داعية إياه خلفها.

«لكنهم لن يرونا، يا أميرة حبي»، قال عبدالله داخلًا خلف الستارة.

وجد نفسه في كهف صغير، ووصله صوت صوفي واضحًا «هذا الحجر المخلخل الذي اعتدت إخفاء النقود تحته. أرجو أن يتسع لهما المكان». وأيًا كان المكان مرة، فقد بات خزانة ثياب الأميرات. كانت سترة ركوب معلقة خلف زهرة في الليل حين قاطعت ذراعيها وواجهت عبدالله. عباءات ومعاطف وتنانير داخلية ذات أطواق واضح أنها تلبس تحت الثوب الفضفاض الأحمر الذي تلبسه جميلة إنهيكو تدلت حول عبدالله وهو يقابل زهرة في الليل. ولكن، خطر لعبدالله، لم تكن أصغر ولا أكثر ازدحامًا من خيمته في زنزيب وقد كانت حميمة.

«ماذا أردت أن تقول؟»، سألت زهرة في الليل ببرود.

«أن أسأل عن سبب هذا الجفاء!»، أجاب عبدالله بحرقة. «ما الذي فعلته حتى لا تنظري إليّ ولا تكلميني؟ ألم آتِ إلى هنا على جناح السرعة لإنقاذك؟ ألم أقتحم أنا، دونًا عن كل العشاق التعسين، كل خطر لأصل إلى هذه القلعة؟ ألم أخض أصعب

المغامرات، سامحًا لأبيك بتوعدي، وللجندي بخداعي وللجني بالسخرية مني، لا لشيء إلا لرغبتي في أن أهبَّ لمساعدتك؟ ماذا أفعل بعد؟ أم أني أخلص إلى أنك وقعت في غرام دَلزل؟».

«دَلزل؟!»، تعجبت زهرة في الليل. «إنك تهينني الآن! لقد أضفت الإهانة إلى الجرح! أرى أن بياتريس كانت محقة وأنك لم تحبني حقًّا!».

«بياتريس؟!»، دوى صوت عبدالله. «وما أدراها بمشاعري؟».

مدت زهرة في الليل رأسها قليلًا، رغم أنها أبدت الغضب أكثر من الخجل. ساد صمت مطبق. بل إن الصمت كان شديد الإطباق فأدرك عبدالله أن ستين أذنًا لثلاثين أميرة -كلا، ثمانٍ وستين أذنًا إن احتسبنا صوفي والجندي وجمال وكلبه وافترضنا أن مورغان نائم- كل هذه الآذان كانت في تلك اللحظة تركز على ما يقوله هو وزهرة في الليل.

«تحدثوا إلى بعضكم»، صاح بهم.

فصار الصمت قلقًا، وكسرته الأميرة المسنة بقولها «أكثر ما يغيظ في كوننا في الأعلى هنا فوق الغيوم أنه ليس عندنا طقس نتحدث عنه».

انتظر عبدالله حتى أعقب قولها طنين متردد لأصوات أخرى ثم عاد إلى زهرة في الليل. «حسن، وماذا قالت الأميرة بياتريس؟».

رفعت زهرة في الليل رأسها عجرفة. «قالت إن رسوم الرجال

والكلام الجميل أمور جميلة، لكنها لا تستطيع إلا أن تقول إنك لم تحاول أدنى محاولة لتقبيلي».

«يا لها من امرأة صفيقة!»، قال عبدالله. «عندما رأيتك أول مرة، ظننتك حلمًا، ظننتك ستتلاشين».

«لكن»، قالت زهرة في الليل، «عندما رأيتني ثاني مرة بدوت واثقًا بأني حقيقية».

«قطعًا»، قال عبدالله، «ولكن لم يكن ذلك عدلًا، فإن كنت تذكرين، لم تري رجالًا على قيد الحياة إلا أباك وأنا».

«بياتريس»، قالت زهرة في الليل، «تقول إن الرجال الذين لا يفعلون سوى تزويق الكلام أزواج سيئون».

«اللعنة على الأميرة بياتريس»، قال عبدالله. «وما رأيك؟».

«أرى»، قالت زهرة في الليل، «أرى أني أود معرفة السبب الذي جعلك تراني لا أتمتع بالجاذبية فلا تقدم على تقبيلي».

«لم أرك غير جذابة!»، جأر عبدالله. ثم تذكر الثماني والستين أذنًا خلف الستائر، وأردف في همس قوي «إن أردت أن تعرفي... لم أقبل في حياتي شابة قط، وأنت شديدة الجمال في عيني ولم أرد أن أخطئ في شيء!».

ارتسمت على ثغر زهرة في الليل ابتسامة صغيرة تؤذن بظهور غمزة عميقة. «وكم شابة قبلت حتى الآن؟».

«ولا واحدة!»، تذمر عبدالله. «ما زلت غرًّا!».

«وأنا كذلك»، اعترفت زهرة في الليل. «رغم أني أعرف ما يكفي كي لا أظنك امرأة. كان هذا غباء!».

وضحكت ضحكة مقرقرة، فقرقر عبدالله. ثم أخذ كلاهما يضحكان ضحكًا عاليًا، حتى قال عبدالله لاهثًا «أحسب أن علينا أن نتمرن!».

بعدئذ ساد صمت من خلف الستائر، ودام الصمت طويلًا فنضبت أحاديث الأميرات إلا الأميرة بياتريس التي يبدو أن عندها الكثير مما تقوله للجندي. نادت صوفي أخيرًا «هل انتهيتما؟».

«من غير شك»، قالت زهرة في الليل، وهتف عبدالله «قطعًا!».

«لنخطط للأمر إذن»، قالت صوفي.

لم تكن الخطط بمشكلة في نظر عبدالله وهو في هذه الحال. وخرج من خلف الستارة يمسك يد زهرة في الليل، ولو اختفت القلعة في هذه اللحظة، لعرف أنه قادر على المشي على الغيوم تحته، أو على الهواء إن فشل في الأولى. ولمّا كانت هذه هي الحال، فقد سار على أرضية تافهة من الرخام وتولى زمام الأمور.

الفصل العشرون

وفيه يُعثر على حياة العفريت ثم تخبأ

بعد عشر دقائق، قال عبدالله «ها قد رتبنا أمورنا يا أفاضل الناس وأذكاهم، يبقى على الجني...».

فانسكب دخان بنفسجي من القمقم وانتشر في موجات حانقة على امتداد الأرضية الرخامية. «لن تستغلوني!»، صاح الجني. «قلت ضفادع وأنا أعنيها! وضعني هاسرل في هذا القمقم، ألا تفهمون؟ إن فعلت شيئًا ضده، فسيضعني في مكان أسوأ!».

نظرت إليه صوفي وعبست في وجه الدخان. «الجني موجود حقًّا!».

«ولكني لا أطلب منك إلا قواك في الرجم بالغيب لتخبرني أين خبئت حياة هاسرل»، أوضح عبدالله. «لست أطلب منك أمنية».

«لا!»، هدر الدخان البنفسجي.

حملت زهرة في الليل القمقم ووازنته على ركبتيها. فتدفق الدخان إلى الأسفل في نفخات وبدا أنه يحاول التسلل من شقوق

الأرضية الرخامية. «يقول المنطق»، قالت زهرة في الليل، «إن كل رجل طلبنا عونه طلب مقابلًا، فلا بد أن يطلب الجني مقابلًا أيضًا. ولا بد أن هذا طبع الرجال. أيها الجني، إن وافقت على مساعدة عبدالله في هذا، فأعدك بالمكافأة التي يمليها عليَّ المنطق».

أخذ الدخان البنفسجي، مراوغًا، يعود منسلًّا إلى داخل القمقم. «أوه حسن»، قال الجني.

وبعد دقيقتين، رفعت الستارة المسحورة المؤدية إلى غرفة الأميرات جانبًا وخرج الجميع إلى الردهة الكبيرة، في هرج ومرج للفت انتباه دَلزل آخذات عبدالله وسطهن أسيرًا يائسًا.

«دَلزل، يا دَلزل!»، هذرت الأميرات الثلاثون. «أهكذا تحرسنا؟ عليك أن تخجل من نفسك!».

نظر إليهن دَلزل. كان يتكئ على جانب عرشه الكبير ليلعب الشطرنج مع هاسرل. فأجفل قليلًا لِما رأى وأشار إلى أخيه أن يبعد رقعة الشطرنج. لحسن الحظ أن جمع الأميرات كان كثيفًا فلم يرَ صوفي ودرة جهام رابضتين وسطه، رغم أن عينيه الجميلتين وقعتا على جمال وضاقتا دهشة. «ما الأمر الآن؟»، قال.

«رجل في غرفتنا!»، صرخت الأميرات. «رجل فظيع كريه!».

«أي رجل؟» زعق دَلزل. «أي رجل يجرؤ على ذلك؟».

«هذا!»، زعقت الأميرات.

جُرَّ عبدالله إلى الأمام بين الأميرة بياتريس وأميرة ألبريا، وليس

عليه من الثياب إلا التنورة الداخلية المطوقة التي كانت معلقة خلف الستارة. كانت هذه التنورة جزءًا أساسيًّا من الخطة. وقد كان تحتها شيئان هما قمقم الجني والبساط السحري. فرح عبدالله أنه احترز هكذا عندما نظر إليه دَلزل، ولم يعرف قبلًا أن عيني العفريت قد تشتعلان لهبًا. كانت عينا دَلزل مثل تنورين مزرقين.

وزاد سلوك هاسرل من قلق عبدالله، فقد ارتسمت على سحنة هاسرل الضخمة ابتسامة خبيثة وقال «آه! أنت ثانية!»، ثم صالب ذراعيه الكبيرتين وبدت عليه السخرية حقًّا.

«كيف دخل هذا الرجل إلى هنا»، سأل دَلزل بصوته البوقي.

وقبل أن يتسنى لأحد أن يجيب، أدت زهرة في الليل دورها باندفاعها خارجة من بين الأميرات الأخريات ملقية نفسها بأناقة على عتبات العرش. «ارحمه أيها العفريت العظيم!»، قالت باكية. «لقد جاء لإنقاذي فقط!».

ضحك دَلزل مزدريًا. «فالرجل أحمق إذن. سألقي به إلى الأرض».

«افعل ذلك أيها العفريت العظيم، ولن أدعك يهنأ لك بال!»، قالت زهرة في الليل.

لم تكن تمثل، بل كانت تعني ما تقول، وعرف دَلزل ذلك. فسرت رعشة في جسمه الشاحب النحيل وأمسكت أصابعه ذات المخالب بمسندي العرش. غير أن عينيه اتقدتا غضبًا. «سأفعل ما أشاء!»، قال زاعقًا.

«فشَأْ أن تكون رحيمًا!»، قالت زهرة في الليل، «أعطه فرصة على الأقل!».

«اهدئي يا امرأة!»، زعق دَلزل. «لم أقطع أمري بعد. أريد أن أعرف كيف دخل إلى هنا أولًا».

«متنكرًا في هيئة كلب الطاهي طبعًا»، قالت الأميرة بياتريس.

«وكان عاريًا تمامًا عندما تحول إلى رجل!»، قالت أميرة ألبريا.

«أمر مريع»، قالت الأميرة بياتريس. «كان علينا أن نلبسه ثياب الجميلة».

«قربنه»، أمر دَلزل.

فدفعت الأميرة بياتريس ومساعدتها عبدالله نحو عتبات العرش، وعبدالله يسير بخطوات وئيدة صغيرة راجيًا أن ينتبه إلى العفريت التنورة الداخلية. وكان السبب أن الشيء الثالث تحت التنورة هو كلب جمال. كان محصورًا بقوة بين ساقي عبدالله كيلا يهرب. وهذا الجزء من الخطة يقضي بإخفاء كلب واحد، فلم تثق أي من الأميرات بأن دَلزل لن يرسل هاسرل ليبحث عنه ويثبت أن الجميع يكذبون.

نظر دَلزل إلى عبدالله شزرًا، وتمنى عبدالله كثيرًا ألا يكون لدَلزل قوى، فقد سمى هاسرل أخاه بالضعيف. ولكن خطر لعبدالله أن العفريت الضعيف أقوى بأضعاف من أي رجل. «أتيت هنا على هيئة كلب؟» زعق دَلزل. «كيف؟».

«بالسحر، أيها العفريت العظيم»، قال عبدالله. وعزم على تقديم شرحًا مفصلًا في هذه اللحظة، ولكن تحت تنورة الجميلة الداخلية، نشب صراع خفي. تبين أن كلب جمال يكره العفاريت أكثر من كرهه لكثير من بني البشر. وأراد أن ينطلق نحو دَلزل «لقد اتخذت هيئة كلب طاهيك»، بدأ عبدالله شرحه. أخذ كلب جمال عندئذ يتحرق للذهاب إلى دَلزل فخشي عبدالله أن يخرج. واضطر إلى إحكام ركبتيه أكثر من ذي قبل. فرد الكلب بنباح مزمجر مدوٍّ. «أرجو عفوك!»، قال عبدالله لاهثًا، وقد تفصد العرق على محياه. «فما زلت كلبًا بصورة ما ولا أستطيع كبح نفسي عن النباح بين الحين والآخر».

أدركت زهرة في الليل أن عبدالله يواجه متاعب فانفجرت في عويلها «آه يا أكرم الأمراء! أن تتخذ هيئة كلب لأجل خاطري! اعفُ عنه أيها العفريت النبيل! اعفُ عنه!».

«اهدئي يا امرأة»، قال دَلزل. «وأين ذاك الطاهي؟ أخرجوه إليَّ».

وجرّت أميرة فرقطان ووريثة ثاياك جمالًا إلى الأمام، يضرب كفيه وينشج. «يا أيها العفريت المبجل، ليس لي علاقة بالأمر، أقسم لك!»، ناح جمال. «لا تؤذني! لم أعلم أنه ليس بكلب حقيقي!» وكاد عبدالله يقسم إن جمالًا كان خائفًا خوفًا حقيقيًا. وربما كان، لكنه حاضر الذهن تمامًا، وربّت على رأس عبدالله. «كلب لطيف»، قال. «صديقي المطيع». ثم خرَّ زاحفًا على عتبات العرش كعادة أهل زنزيب. «أنا بريء، أيها العظيم!»، هذر، «بريء! فلا تؤذني!».

هدأ الكلب لدى سماع صوت سيده، وكف عن النباح. فاستطاع عبدالله أن يرخي ركبتيه قليلًا. «أنا بريء أيضًا، يا جامع الصبايا النبيلات»، قال، «لقد أتيت لإنقاذ التي أحبها. لا بد أن تأخذك الرأفة بإخلاصي، لأنك تحب أميرات كثيرات!».

حك دَلزل ذقنه حائرًا. «حب؟»، قال. «لا، لا أفهم الحب. لا أفهم كيف لشيء أن يدفع أحدًا ليضع نفسه محلك أيها الفاني».

ابتسم هاسرل، وقد قرفص سريعًا داكنًا على عتبات العرش، بخبث أكثر من ذي قبل. «ماذا تريدني أن أفعل بهذا المخلوق يا أخي؟»، جعجع. «أحمّره؟ أخرِج روحه وأجعلها جزءًا من الأرضية؟ أمزقه إربًا..؟».

«لا، لا! كن رحيمًا يا دَلزل العظيم!»، قالت زهرة في الليل من فورها. «امنحه فرصة على الأقل! إن فعلت فلن أسألك أي سؤال ولن أشتكي أو أعظك مرة أخرى. سأكون هادئة مهذبة!».

قبض دَلزل على ذقنه مرة أخرى بادية عليه الحيرة. وأحس عبدالله بارتياح أكبر. لقد كان دَلزل عفريتًا ضعيفًا حقًّا، ضعيف الشخصية على أية حال. «إن كنت سأمنحه فرصة...»، قال.

«إن أردت نصحي يا أخي»، قاطعه هاسرل، «لا تعطه. إنه مخادع، هذا الفتى».

عندئذ علا صوت زهرة في الليل في عويل عظيم آخر ولطمت صدرها، فقال عبدالله عبر الضجيج «دعني أخمن أين خبأت حياة

أخيك يا دَلزل العظيم. وإن فشلت في معرفة المكان فاقتلني، وإن نجحت فستتركني أرحل في سلام».

سلَّى هذا دَلزل كثيرًا. وانفتح فمه مظهرًا أسنانًا مدببة فضية، ورنت ضحكته في الردهة الغائمة مثل فرقة من الأبواق. «ولكنك لن تعرف أبدًا أيها الفاني الصغير!»، وضحك. ثم، مثلما كررت الأميرات على مسامع عبدالله، لم يقاوم دَلزل إعطاءه التلميحات. «لقد خبأت تلك الحياة في مخبأ ذكي»، قال مرحًا. «يمكنك أن تنظر إليها ولا تراها. لا يستطيع هاسرل رؤيتها، وهو عفريت. فأي أمل يبقى لك؟ لكني، لأتسلى، أحسب أني سأجعلك تخمن ثلاث مرات قبل أن أقتلك. خمن حالًا. أين خبأت حياة أخي؟».

ألقى عبدالله نظرة سريعة إلى هاسرل ليرى إن كان عازمًا على التدخل. لكنه مقرفص هناك يبدو غامضًا. كانت الخطة ناجحة حتى الآن. وكان في صالح هاسرل ألا يتدخل، واعتمد عبدالله على هذا. فأحكم ركبتيه على الكلب وداس على التنورة متظاهرًا بالتفكير. وما كان يفعله حقًّا أنه كان يرج قمقم الجني. «تخميني الأول أيها العفريت العظيم...»، قال ونظر إلى الأرض كأن الحجر السماقي قد يوحي إليه. أيتراجع الجني عن وعده؟ للحظة خائفة بائسة، ظن عبدالله أن الجني تخلى عنه كعادته وأنه سيتعين عليه المجازفة بالتخمين من تلقاء نفسه. ثم ارتاح ارتياحًا عظيمًا لَمَّا رأى خصلة من الدخان البنفسجي تتسلل من تحت تنورة الجميلة، حيث كان ساكنًا مراقبًا بجانب قدم عبدالله الحافية.

«تخميني الأول أنك خبأت حياة هاسرل على القمر»، قال عبدالله.

ضحك دَلزل مسرورًا. «خطأ! لكان عثر عليها! لا، إنها أوضح من ذلك بكثير، وأقل وضوحًا بكثير. فكر في لعبة «ابحث عن النعال» أيها الفاني!».

عرف عبدالله من هذا أن حياة هاسرل كانت في القلعة، مثلما ظنت جل الأميرات. وتظاهر بنجاح أنه يفكر مليًّا. «تخميني الثاني أنك أعطيتها لواحد من الملائكة الحراس ليحتفظ بها»، قال.

«خطأ مرة ثانية!»، قال دَلزل أكثر سرورًا من المرة الأولى. «لأعادها الملائكة إليه في الحال. إنه أذكى من ذلك بكثير أيها الفاني الصغير. لن تخمن أبدًا. عجيب ألا يستطيع أحد أن يرى ما تحت أنفه!».

عندئذ، في دفقة إلهام، تأكد عبدالله أنه عرف أين حياة هاسرل حقًّا، فأحبته زهرة في الليل. كان ما زال يمشي في الهواء، وقد أوحي إليه وعرف. لكنه خائف حد الموت من الخطأ. ولما حان الوقت ليمسك بيده حياة هاسرل، عرف أن عليه أن يمضي في الأمر، لأن دَلزل لن يعطيه فرصة ثانية. ولذلك كان بحاجة إلى أن يؤكد له الجني تخمينه. كانت خصلة من الدخان ما تزال هنا، قريبة لا مرئية، وإن كان عبدالله قد خمن، فلا بد أن الجني قد عرف أيضًا.

«إر»، قال عبدالله، «إه».

تسللت خصلة الدخان بهدوء عائدة إلى تحت التنورة الداخلية، إذ دغدغت أنف كلب جمال، فعطس.

«أتيشو!»، صاح عبدالله وقد غطى على خيط صوت الجني الهامس «إنها الحلقة في أنف هاسرل!».

«أتيشو!»، قال عبدالله وتظاهر بأنه خمن خطأ. وهنا غدت خطته خطرة جدًّا. «إن حياة أخيك في واحد من أسنانك يا دَلزل العظيم».

«خطأ!»، زعق دَلزل. «حرِّره يا هاسرل!».

«اعف عنه!»، ناحت زهرة في الليل حين بدأ هاسرل بالنهوض وعلامات القرف والخيبة مرتسمة على وجهه.

كانت الأميرات مستعدات لهذه اللحظة. فدفعت عشر أيدٍ ملكية الأميرة ڤالريا خارج الجمع إلى عتبات العرش.

«أريد كلوبي!»، قالت ڤالريا. كانت هذه لحظتها الكبرى. ومثلما قالت لها صوفي، فقد وجدت ثلاثين خالة وثلاثة أعمام، وكلهم توسلوا إليها أن تصرخ بأعلى ما تستطيع. لم يطلب منها أحد من قبل أن تصرخ، كما أن كل الخالات الجديدات وعدنها بصندوق من السكاكر إذا أتقنت أداء نوبة غضب متقنة. ثلاثون صندوقًا، كان هذا جديرًا بأن تبذل جهدها من أجله، فربّعت فمها. ونفخت صدرها، وبذلت فيها كل قوتها.

«أريد كلوبي! لا أريد عبدالله! أريد كلوبي!» وألقت بنفسها على عتبات العرش، وسقطت فوق جمال، ثم هبت واقفة على قدميها

وألقت بنفسها على العرش. فقفز دَلزل بسرعة إلى العرش ليبتعد عن طريقها، فجأرت به ڤالريا «أعد إليَّ كلوبي!».

في اللحظة نفسها، أعطت الأميرة الضئيلة الصفراء من تساپفان مورغان فرصة حارقة في المكان المناسب. كان نائمًا بين ذراعيها الصغيرتين، يحلم أنه عاد هرًّا. فاستيقظ مجفلًا ووجد أنه لم يزل طفلًا عاجزًا. لم يكن لغضبه حد، ففتح فمه وزأر، ودوّر قدميه غاضبًا، وخبطت يداه، وكان صخبه شديد القوة، ولو نافس مورغان ڤالريا لفاز عليها. ولما كانت هذه هي الحال فقد كان الضجيج لا يحتمل. وتردد الصدى في أرجاء الردهة، فضاعف الصراخ وأعاده إلى العرش ثانية.

«أعيدي الصدى إلى هذين العفريتين»، قالت صوفي بحديثها السحري. «لا تضاعفيه مرتين، بل ثلاثًا!».

كانت الردهة مستشفى للمجاذيب، وقد غطى العفريتان آذانهما المدببة بأيديهما. فزعق دَلزل «كفى! أسكتوهما! من أين جاء الطفل؟».

فقال هاسرل هادرًا «للنساء أطفال أيها العفريت الأحمق! ماذا كنت تحسب؟».

«أريد كلوبي!»، قالت ڤالريا، وهي تضرب مقعد العرش بقبضتيها.

وصارع صوت دَلزل الزاعق ليسمع «أعطها كلوبها يا هاسرل وإلا قتلتك!».

في تلك المرحلة من خطة عبدالله انتظر سرًّا -إن لم يُقتل حينئذ- أن يتحول إلى كلب. كان هذا ما يرمي إليه. فهذا، كما خطط، سيطلق سراح كلب جمال، وقد اعتمد على رؤية ليس كلبًا واحدًا بل اثنين يخرجان من تحت التنورة، ليزيدا الصخب صخبًا. لكن الصرخات وأضعافها الثلاثة شتتت انتباه هاسرل وأخيه. فالتفت هذه الناحية وتلك، سادًّا أذنيه وصارخًا من الألم، وكان صورة للعفريت الذي فقد صوابه. طوى أخيرًا جناحيه الكبيرين وأصبح كلبًا.

كان كلبًا ضخمًا، شيئًا بين الحمار وكلب البُلدُغ، له رقع بنية ورمادية، وفي أنفه الأفطس حلقة ذهبية. وضع هذا الكلب الضخم كفيه الأماميين العملاقين على مسند العرش وأخرج لسانًا مريّلًا هائلًا نحو وجه ڤالريا. كان هاسرل يحاول أن يكون ودودًا، ولكن لدى رؤية ڤالريا شيئًا كبيرًا وقبيحًا هكذا، صرخت أكثر من ذي قبل، وليس ذلك بالغريب. وأثار الصوت خوف مورغان، فاشتد صراخه هو الآخر.

مرت بعبدالله لحظة لم يعرف فيها ما يفعل، ثم مرت لحظة أخرى كان واثقًا بأن أحدًا لن يسمعه يصيح «أيها الجندي!»، قال هادرًا. «أمسك هاسرل، وليمسك أحدكم بدَلزل!».

كان الجندي متنبهًا لحسن الحظ، وقد كان بارعًا في هذا. ثم اختفت درة جهام في موجة من الثياب القديمة وقفز الجندي صاعدًا عتبات العرش. ركضت صوفي خلفه، مستدعية الأميرات. فطوقت بذراعيها ركبتي دَلزل النحيلتين البيضاوين، ولف الجندي ذراعيه

المفتولتين حول عنق الكلب. اندفعت الأميرات يرتقين العتبات خلفهم، إذ ارتمت معظمهن على دَلزل أيضًا، وكلهن راغبات في الانتقام، إلا الأميرة بياتريس التي سحبت ڤالريا خارج العراك وتولت المهمة الصعبة في إخراسها. وجلست الأميرة الضئيلة من تسايفان على الأرضية السماقية تهز مورغان ليعود إلى النوم.

حاول عبدالله أن يركض ناحية هاسرل. ولكنه حالما تحرك انتهز كلب جمال فرصته وهرب، وانطلق خارجًا من تحت التنورة ليشهد العراك الدائر. فقد كان محبًّا للعراك، كما أنه رأى كلبًا آخر، وقد كان يكره الكلاب أكثر من كرهه العفاريت أو بني البشر. ولم يهمه حجم الكلب، فقد أسرع يدمدم ليهجم. وكان عبدالله يحاول شق طريقه خارج التنورة، فقفز كلب جمال على عنق هاسرل.

كان هذا كثيرًا جدًّا على هاسرل، الذي ارتمى عليه الجندي. فتحول إلى عفريت مرة أخرى، وصنع حركة غاضبة، فطار الكلب بعيدًا، رأسًا على عقب، ليحط نابحًا على الجانب الآخر من الردهة. ثم حاول هاسرل النهوض، لكن الجندي تسلق ظهره، مانعًا إياه من بسط جناحيه الجلديين، فهاج هاسرل وماج.

«أبقِ رأسك خفيضًا يا هاسرل، أناشدك!»، صاح به عبدالله وهو يركل ليتحرر من التنورة الداخلية. ثم قفز العتبات وليس عليه من الثياب إلا إزاره وأمسك بأذن هاسرل اليسرى الكبيرة. حينئذ عرفت زهرة في الليل مكان حياة هاسرل، وفرح عبدالله فرحًا عظيمًا إذ رآها تقفز وتتعلق بأذن هاسرل اليمنى. تعلق كلاهما، يعلوان

في الهواء بين الحين والآخر كلما غلب هاسرل الجندي، وخبطهما إلى الأرض كلما غلب الجندي هاسرل، وذراعا الجندي القويتان ملتفتان حول عنق العفريت قربهما وبين الثلاثة وجه هاسرل الغاضب الكبير. لمح عبدالله، من حين إلى آخر، دَلزل واقفًا على مقعد عرشه تحت كومة من الأميرات، وقد بسط جناحيه الذهبيين الضعيفين. لم يكونا يصلحان للطيران، لكنه ضرب بهما الأميرات وصاح طالبًا العون من هاسرل.

كأنما ألهمت صرخات دَلزل الزاعقة هاسرل، فقد أخذ يغلب الجندي، وحاول عبدالله أن يحرر يدًا يمدها إلى الحلقة الذهبية التي تتدلى قريبًا من كتفه، تحت أنف هاسرل المعقوف. حرر عبدالله يده اليسرى، لكن يده اليمنى كانت تتعرق وتنزلق من على أذن هاسرل. فتشبث -بيأس- قبل أن ينزلق.

وراقب كلب جمال، فبعد استلقائه دقيقة نهض ثانية أكثر غضبًا من ذي قبل وقلبه يمتلئ حقدًا على العفريتين. رأى هاسرل وعرف عدوه، فركض من آخر الردهة يستشيط غضبًا وينبح، متجاوزًا الأميرة الضئيلة ومورغان، والأميرة بياتريس وڤالريا، وخلال دوامة الأميرات حول العرش، متجاوزًا الهيئة المقرفصة لسيده، وقفز على أقرب جزء من العفريت في متناوله. فنزع عبدالله يده في اللحظة المناسبة.

طقطقة! صوت أسنان الكلب. لقمة! صوت حلق الكلب. ثم ارتسمت على وجه الكلب نظرة حائرة، وسقط على الأرض وقد

انتابه فواق شديد. عوى هاسرل ألمًا وقفز إلى الأعلى واضعًا يديه على أنفه. وسقط الجندي على الأرض، وارتمى عبدالله وزهرة في الليل على الجانبين. اقترب عبدالله من الكلب ذي الحازوقة، لكن جمال وصل إليه أولًا وحمله بحنان.

«كلب مسكين، يا لكلبي المسكين! تماثل للشفاء بسرعة!» قال متوددًا وأخذه نازلًا به العتبات.

جر عبدالله الجندي الدائخ ووقف كلاهما أمام جمال. «توقفوا جميعًا»، صاح. «أدعوك إلى التوقف يا دَلزل! لدينا حياة أخيك!».

هدأ العراك على العرش، ووقف دَلزل وبسط جناحيه واتقدت عيناه كالتنورين. «لا أصدقك»، قال. «أين؟».

«في أحشاء الكلب»، قال عبدالله.

«ولكن انتظروا حتى غد»، قال جمال مهدئًا، لا يفكر في شيء إلا كلبه ذا الحازوقة. «عنده اضطراب في الأمعاء من إفراطه في تناول الحبار. كونوا شاكرين...».

ركله عبدالله ليخرسه. «لقد أكل الكلب الحلقة في أنف هاسرل»، قال.

وأكد له الخوف المرتسم على وجه دَلزل أن الجني كان على حق، وأن تخمينه صحيح. «أوه!»، قالت الأميرات، واتجهت كل الأنظار إلى هاسرل، الضخم المنحني، والدموع تملأ عينيه المخيفتين واضعًا كلتا يديه على أنفه. وسال دم العفاريت، الصافي المائل إلى الخضرة،

من بين أصابعه القرناء. «يجب أط احصط على هدا» [يجب أن أن أحصل على هذا]، قال هاسرل مذعورًا، «كاد طحت أنفي» [كان تحت أنفي].

ابتعدت الأميرة المسنة من نورلاند العالية عن حشد الأميرات حول العرش، وبحثت في كمها وناولت هاسرل منديلًا صغيرًا مخرمًا. «خذ»، قالت، «بلا ضغائن».

أخذ هاسرل المنديل قائلًا «شكرط لك» [شكرًا لك]، وضغطه على الطرف الممزق من أنفه. لم يأكل الكلب منه كثيرًا إلا الحلقة، وبعد أن مسح هاسرل المكان جيدًا، جثا بلا رشاقة وأشار عبدالله الواقف على عتبات العرش. «ماذا تريد مني أن أفعل الآن وقد عدت صالحًا؟»، سأل بحزن.



الفصل الحادي والعشرون

وفيه تهبط القلعة إلى الأرض

لم يحتج عبدالله أن يفكر مليًا في سؤال هاسرل. «عليك أن تنفي أخاك، أيها العفريت القوي، إلى مكان لا يعود منه»، قال.

انفجرت دموع دَلزل الزرقاء السائلة. «هذا ليس عدلًا!» بكى، وخبط بقدمه على العرش. «كلكم ضدي! أنت لا تحبني يا هاسرل! لقد خدعتني! بل لم تحاول التخلص من هؤلاء الثلاثة الذين تعلقوا بك!».

كان عبدالله متأكدًا من أن دَلزل محق. وبعد أن عرف القوة التي يملكها العفريت، أيقن أن هاسرل كان سيرمي بالجندي، إن لم يتحدث عن نفسه وعن زهرة في الليل، إلى أقاصي الأرض لو أراد ذلك.

«لم أكن أؤذي أحدًا!»، صاح دَلزل. «لي الحق في أن أتزوج، أليس كذلك؟».

وأثناء صراخه وخبطه همس هاسرل لعبدالله «في جنوبي المحيط

جزيرة جوالة، لا يعثر عليها إلا مرة كل مئة عام. فيها قصر وأشجار فاكهة كثيرة. أأرسل أخي إليها؟».

«وها أنت تريد إبعادي!»، صرخ دَلزل. «لم يبالِ أحد منكم كم سأشعر بالوحدة!».

«بالمناسبة»، همس هاسرل لعبدالله، «تحالف أقارب زوجة أبيك الأولى مع المرتزقة، واستطاعوا الفرار من زنزيب هربًا من غضب السلطان، لكنهم تركوا ابنتي الأختين. لقد حبس السلطان الفتاتين التعيستين، إذ كانا أقرب من استطاع العثور عليه من أقاربك».

«أخبار مروعة»، قال عبدالله. وفهم ما يلمح إليه هاسرل. «ربما تستطيع أيها العفريت القوي أن تحتفل بعودتك إلى جادة الصواب بإحضار الفتاتين إلى هنا».

فأشرق وجه هاسرل الخبيث، ورفع يدًا مخلبة كبيرة. ثم سمعت صفقة رعد أعقبها زعيق بناتي، ووقفت بنتا الأختين البدينتين هناك أمام العرش. كان الأمر بهذه السهولة. ورأى عبدالله أن هاسرل كان يحفظ قوته، ورأى وهو ينظر إلى شقي عيني العفريت الكبير -اللتين لم تزل زواياهما مغرورقتين بالدمع من أثر هجمة الكلب- أن هاسرل عرف أنه يعرف.

«لا مزيد من الأميرات!»، قالت الأميرة بياتريس. كانت تجثو قرب ڤالريا باديًا عليها الضيق.

«تأكدي أننا لا نفعل»، قال عبدالله.

ما كانت ابنتا الأختين لتبدوا مثل الأميرات، فقد كانتا تلبسان ثيابهما القديمة، ثوبًا ورديًا عمليًا!، وأصفر يوميًا، ممزقين ومبقعين من تجربتيهما، وغدا شعر كليهما أشعث. نظرتا نظرة واحدة إلى دَلزل الخابط الباكي فوقهما على العرش، ونظرة أخرى إلى القوام العملاق لهاسرل، ثم نظرة ثالثة إلى عبدالله عاريًا من الثياب إلا إزاره، فصرختا. وحاولت كل واحدة دفن وجهها في كتف الأخرى المكتنزة.

«فتاتان مسكينتان»، قالت الأميرة المسنة من نورلاند العالية. «هذا ليس بسلوك الأميرات».

«دَلزل!»، صاح عبدالله بالعفريت الباكي. «يا دَلزل الوسيم، يا صياد الأميرات، اهدأ لحظة وانظر إلى الهدية التي منحتك إياها لتأخذها في منفاك».

توقف دَلزل وسط نشيجه وقال «هدية؟».

أشار عبدالله. «انظر إلى العروسين، شابتين ريانتين وتحتاجان عريسًا».

مسح دَلزل دموعه المتلألئة على خده وعاين ابنتي الأختين كما اعتاد زبائن عبدالله الحاذقين معاينة بُسُطه. «عروسان ملائمتان!»، قال. «وبديتان بدانة رائعة! وماذا تستفيد؟ أليستا عروستيك فتتخلى عنهما؟».

«لا فائدة لي أيها العفريت اللامع»، قال عبدالله. بدا له، وقد

تخلى أقارب الفتاتين عنهما، أن واجبه في التفرغ لهما. ولكنه أردف ليكون في مأمن «إنهما لك لتخطفهما يا دَلزل القوي». وسار إلى ابنتي الأختين وربت على ذراع مكتنزة لكل منهما. «سيدتيَّ»، قال. «يا بدريْ زنزيب، سامحاني من فضلكما على ذلك القسم التعس الذي يمنعني إلى الأبد من الاستمتاع بضخامتكما. ولكن ارفعا نظريكما وشاهدا الزوج الذي وجدته لكما ليكون بديلًا مني».

رفعت كلتاهما رأسهما ما إن قال كلمة زوج، وحملقتا إلى دَلزل. «إنه وسيم جدًّا»، قالت الزهرية.

«أحب الأزواج ذوي الأجنحة»، قالت الصفراء. «هذا مختلف».

«والأنياب مغرية»، تأملت الزهرية. «وكذلك المخالب، شرط أن يكون حذرًا على السجاد».

اتسعت ابتسامة دَلزل مع كل تعليق. «سأخطف هاتين في التو واللحظة»، قال. «لقد أعجبتاني أكثر من الأميرات. لماذا لا أجمع السيدات بدلًا من ذلك يا هاسرل؟».

وكشفت ابتسامة حب عن أنياب هاسرل «الخيار لك يا أخي»، وتلاشت ابتسامته. «إن كنت مستعدًّا فمن واجبي أن آخذك إلى منفاك الآن».

«لست أمانع الآن»، قال دَلزل وعيناه على ابنتي الأختين.

مد هاسرل يده ثانية، ببطء وحزن وبطء، في ثلاث رعدات، فاختفى دَلزل وابنتا الأختين عن الأنظار. فاحت رائحة خفيفة من

البحر وصوت خافت للنوارس. وبدأ مورغان وڤالريا البكاء ثانية. تنهد الجميع، وكانت تنهيدة هاسرل الأكبر. أدرك عبدالله بشيء من الدهشة أن هاسرل أحب أخاه صدقًا. ورغم أنه صعب على عبدالله أن يفهم كيف يحب أي أحد دَلزل، فإنه لم يلمه. ومن أنا لأعيب عليه؟ قال في نفسه، حين تقدمت إليه زهرة في الليل ووضعت يدها في يده.

زفر هاسرل تنهيدة أثقل وجلس على العرش، الذي كان ملائمًا لحجمه أكثر من حجم دَلزل - وجناحاه يبرزان حزينين على الجانبين. «ثمة أمر آخر»، قال وهو يتحسس أنفه متألمًا، وقد بدأ يبرأ.

«أجل، صحيح قطعًا!»، قالت صوفي. كانت تنتظر على عتبات العرش فرصة لتتكلم. «عندما سرقت قلعتنا المتحركة، أخفيت زوجي هاول. أين هو؟ أعده إليّ».

رفع هاسرل رأسه حزينًا، وقبل أن يتمكن من الرد علت أصوات الأميرات خوفًا. ابتعد جميع الواقفين أسفل العتبات عن التنورة الداخلية، فقد كانت تنتأ وتنتفخ صعودًا وهبوطًا في أطواقها مثل الكونسرتينا. «النجدة!»، قال الجني من الداخل. «أخرجوني! لقد وعدتموني!».

فوضعت زهرة في الليل يدها على فمها. «أوه! لقد نسيت أمره تمامًا!»، قالت وأسرعت كالسهم مبتعدة عن عبدالله، تنزل العتبات. فألقت التنورة جانبًا في لفافة من دخان بنفسجي. «أتمنى»، قالت، «أن تتحرر من قمقمك أيها الجني، أن تكون حرًّا إلى الأبد!».

ولم يضيّع الجني، كعادته وقته في الشكر، فقد انفجر القمقم بارتطام مدوٍّ. ومن داخل لفافات الدخان، نهض قوام أكثر صلابة.

صرخت صوفي لما رأت. «أوه بوركت الفتاة! شكرًا لك، شكرًا لك!» ووصلت إلى الدخان المتلاشي بسرعة حتى كادت تطيح بالرجل أرضًا. ولم يبدُ عليه الاعتراض، فقد حمل صوفي ودار بها مرة بعد أخرى. «أوه لماذا لم أعرف؟ لماذا لم أدرك؟» قالت صوفي لاهثة، وهي تدوس الزجاج المحطم.

«بسبب الرقية»، قال هاسرل متجهمًا. «ولو عرف أنه ساحر، لحرره أحدهم. ما كان لك أن تعرفي من يكون، ولا استطاع أن يخبر أحدًا».

كان ساحر البلاط هاول شابًّا أصغر من الساحر سولمن، ويفوقه أناقة، ويلبس بدلة فاخرة من الحرير البنفسجي، ويبدا شعره معها درجة مستحيلة من الأصفر. نظر عبدالله إلى عيني الساحر الفاتحتين في وجه الساحر النحيل. لقد رأى هاتين العينين من قبل، ذات صباح باكر. وشعر أنه كان عليه أن يعرف، وشعر أنه في موقف لا يحسد عليه. فقد استغل الجني، وشعر أنه يعرف الجني حق المعرفة. أيعني هذا أنه عرف الساحر؟ أم لا؟

لسبب ما، لم ينضم عبدالله إلى كل الذين تحلقوا حول الساحر هاول، ومنهم الجندي، يهنئونه ويحدثونه. ورأى الأميرة الضئيلة من تسابفان تمشي بهدوء بين الجمع الصاخب وتضع مورغان بوقار في يدي هاول. «شكرًا»، قال هاول. «وجدت أنه يجدر بي أخذه

معي أينما ذهبت لأحميه»، أوضح لصوفي. «آسف أني أخفتك».
وكان هاول يألف حمل الأطفال أكثر من صوفي، وقد هز مورغان مهدئًا ونظر إليه. وبادله مورغان النظر، بشيء من الحقد. «يا إلهي، إنه قبيح!»، قال هاول. «الولد سر أبيه».

«هاول!»، قالت صوفي. لكنها لم تكن غاضبة.

«لحظة»، قال هاول. وتقدم من عتبات العرش ونظر إلى هاسرل. «اسمعني أيها العفريت»، قال، «أريد أن أخاصمك، ماذا تقصد من وراء انتزاع قلعتي وحبسي في قمقم؟».

اتقدت عينا هاسرل في غضب برتقالي. «أتتخيل أن قواك تضاهي قواي أيها الساحر؟».

«لا»، قال هاول. «أريد تفسيرًا فقط». وجد عبدالله أنه أعجب بالرجل، وإذ عرف جبن الجني، فلم يساوره شك أن هاول يرتعد خوفًا من الداخل. ولكنه لم يظهر علامة على خوفه، بل ألقى بمورغان على كتفه البنفسجية وبادل هاسرل الحملقة.

«حسن»، قال هاسرل. «أمرني أخي أن أسرق القلعة. ولم يكن الخيار لي في هذا، لكن دَلزل لم يأمرني بشيء يخصك، سوى أن أحرص ألا تستعيد القلعة. ولو لا أنك رجل نزيه لنقلتك إلى الجزيرة التي يسكنها أخي الآن. لكني أعلم أنك استخدمت السحر لتهزم البلاد المجاورة..».

«هذا ليس عدلًا!»، قال هاول. «لقد أمرني الملك!» وبدا للحظة

مماثلًا لدَلزل ولا بد أنه أدرك ذلك، فتوقف. ثم قال حانقًا «أحسب أنه كان بوسعي أن أغير رأي صاحب الجلالة، لو خطر لي. إنك محق. ولكن لا تجعلني أمسك بك حيث أستطيع حبسك في قمقم، هذا كل شيء».

«لعلي أستحق هذا»، وافقه هاسرل. «بل أستحقه أكثر لأني تجشمت العناء لأجعل كل من شارك في الأمر يلقى المصير الذي أراه ملائمًا»، وأصبحت عيناه شقين وهما تنظران إلى عبدالله.، «أليس كذلك؟».

«كثير العناء أيها العفريت العظيم»، وافقه عبدالله. «كل أحلامي تحققت، وليست السعيدة منها فقط».

هز هاسرل رأسه. «والآن»، قال، «عليّ أن أترككم وقد فعلت أمرًا لازمًا صغيرًا». وارتفع جناحاه وأشارت يداه. وسرعان ما كان وسط سرب من الأشكال المجنحة الغريبة. حاموا كلهم فوق رأسه حول العرش مثل أحصنة بحر شفافة، بصمت تام إلا من الهمس الخافت لأجنحتهم المرفرفة.

«ملائكته»، قالت الأميرة بياتريس تشرح لـﭬالريا.

همس هاسرل للأشكال المجنحة ورحلت عنه فجأة مثلما ظهرت فجأة، وعادت إلى الظهور في السرب نفسه تهمس حول رأس جمال. تراجع عنها جمال مذعورًا، لكن هذا لم ينفع. فقد تبعه السرب، وذهبت الأشكال المجنحة، واحدًا تلو الآخر لتجثم

على أجزاء مختلفة من كلب جمال. وعندما حط كل منها، تقلصت واختفت بين شعيرات الكلب، حتى لم يبقَ منها إلا اثنان.

وجد عبدالله فجأة هذين الشكلين يحلقان عند عينيه. فأخفض رأسه، لكنهما لحقا به. وتكلم صوتان باردان صغيران، بصورة لا تسمعها إلا أذناه. «بعد تفكير طويل»، قالا، «وجدنا أننا نفضل هذا الشكل على الضفادع. نفكر في نور الخلود ولذا فإننا نشكرك»، وبعدما قالا ما قالاه أسرعا ليجثما على كلب جمال، إذ انكمشا أيضًا واختفيا في الجلد المغضن لأذنيه.

نظر جمال إلى كلبه بين ذراعيه. «ولماذا أحمل كلبًا مليئًا بالملائكة؟»، سأل هاسرل.

«لن يؤذوك أو يؤذوا كلبك»، قال هاسرل. «بل سينتظرون حتى تعود الحلقة الذهبية إلى الظهور. أحسبك قلت غدًا؟ لا بد أن تعرف أني قلق من غير شك فأقتفي أثر حياتي. عندما يعثر عليه ملائكتي سيجلبونه إلي أينما كنت»، وزفر زفرة كبيرة حركت شعر الجميع. «ولا أعلم أين سأكون»، قال. «عليَّ أن أجد مكانًا في المنفى في الأغوار السحيقة. كنت شريرًا، ولا أستطيع العودة إلى صفوف الجن الأخيار».

«أوه هيا أيها العفريت العظيم!»، قالت زهرة في الليل. «لقد عُلمت أن الصلاح هو الغفران. لا شك أن العفاريت الأخيار سيرحبون بعودتك».

هز هاسرل رأسه الكبير نفيًا. «أنتِ لا تفهمين أيتها الأميرة الذكية».

ووجد عبدالله أنه فهم هاسرل جيدًا. وربما كان لفهمه علاقة بوقاحته مع أقارب زوجة أبيه الأولى. «اسكتي يا حبي»، قال. «هاسرل يقصد أنه استمتع بشرّه ولم يندم عليه».

«هذا صحيح»، قال هاسرل. «لقد قضيت وقتًا ممتعًا في الأشهر الأخيرة أكثر مما عرفت في سنواتي المئات قبل ذلك. علمني دَلزل ذلك. ويجب أن أرحل الآن خشية أن أبدأ التسلية نفسها بين العفاريت الأخيار. ليتني أعرف أين أذهب».

وخطرت فكرة لهاول، فسعل. «لماذا لا تذهب إلى عالم آخر؟»، قال. «إذ يوجد مئات العوالم الأخرى كما تعرف».

ارتفع جناحا هاسرل وخفقا حماسًا، يحركان شعر كل أميرة في الردهة وثيابها. «حقًا؟ أين؟ علمني كيف أذهب إلى عالم آخر».

وضع هاول مورغان بين ذراعي صوفي الخرقاوين وقفز مرتقيًا عتبات العرش. وما عرضه على هاسرل كان بضع حركات غريبة وهزة رأس أو نحوها. وفهم هاسرل تمامًا، فرد بهز رأسه. ثم نهض عن العرش وسار، دون كلمة أخرى، عبر الردهة وعبر الحائط كأنه ضباب، وبدت الردهة الكبيرة خالية فجأة.

«ذهاب بلا عودة!»، قال هاول.

«أأرسلته إلى عالمك؟»، سألته صوفي.

«محال!»، قال هاول. «عندهم من القلق ما يكفي هناك. لقد أرسلته في الاتجاه المعاكس. وقد جازفت بألا تظهر القلعة ثانية». واستدار ببطء ناظرًا إلى الامتداد الغائم للردهة. «إنها هنا»، قال. «هذا يعني أن كالسيفر هنا في مكان ما. إنه الذي يحافظ على حركتها»، ثم نادى نداء رنانًا. «كالسيفر! أين أنت؟».

ومرة أخرى دبت الحياة في تنورة الجميلة. لكنها هذه المرة انتفخت من الجانبين على الأطواق لتتيح للبساط السحري أن يطير بحرية. اهتز البساط، مثلما كان كلب جمال يفعل. ثم دهش الجميع لما رأوه يسقط على الأرض ويبدأ بالانحلال. كاد عبدالله يبكي لهذه الخسارة. كان الخيط الطويل الذي يدوّم حرًّا أزرق اللون لامعًا لمعانًا غريبًا، كأن البساط ليس مصنوعًا من صوف عادي. الخيط الحر، وهو يجري جيئة وذهابًا عبر البساط، علا وعلا حتى غدا أطول إلى أن امتد بين السقف الغائم العالي والقماش الأجرد الذي نسج عليه.

أخيرًا، وبسقطة نافدة الصبر انقطع الطرف الآخر عن القماش وتقلص إلى الأعلى مع بقيته، إذ امتط خافقًا وانكمش ثانية، ثم تمدد في شكل جديد يشبه دمعة مقلوبة أو لهبًا. جاء هذا الشكل منجرفًا إلى الأسفل، ثابتًا وعازمًا. ولمّا اقترب من عبدالله رأى في مقدمته وجهًا له ألسنة لهب بنفسجية أو خضراء أو برتقالية. فهز عبدالله كتفيه جبريًّا، فقد بدا أنه بدد كل القطع الذهبية ليشتري عفريت نار لا بساطًا سحريًّا.

تكلم عفريت النار بفم بنفسجي خافق. «حمدًا للرب!»، قال. «لماذا لم ينادني أحد من قبل؟ أنا متألم».

«يا لكالسيفر المسكين!»، قالت صوفي. «لم أعرف!».

«أنا لا أكلمك»، رد الكائن الغريب ذو شكل اللهب. «لقد غرزت مخالبك فيَّ. ولا»، قال وهو يطير متجاوزًا هاول. «أنت أيضًا. لقد أقحمتني في هذا. لم أكن أنا من أراد مساعدة جيش الملك. أنا لن أتحدث إلا إليه»، قال متذبذبًا قرب كتف عبدالله وسمع شعره يحترق بهدوء، فقد كان اللهب ساخنًا. «هذا الوحيد الذي حاول ملاطفتي».

«منذ متى»، سأل هاول ساخرًا، «بتّ تحب الملاطفة؟».

«منذ أن عرفت حلاوة أن يقال إني لطيف»، قال كالسيفر.

«لكني لا أراك لطيفًا»، قال هاول. «فكن كذلك!» وأدار ظهره لكالسيفر مطوحًا بكميه الحريريين البنفسجيين.

«أتريد أن تكون ضفدعًا؟»، سأل كالسيفر. «لست الوحيد الذي يستطيع تحويل الآخرين إلى ضفادع، كما تعلم!».

نقر هاول بقدم تلبس حذاء بنفسجيًّا بغضب. «ربما»، قال، «قد يطلب منك صديقك الجديد أن تنزل هذه القلعة إلى حيث تعود».

شعر عبدالله بشيء من الحزن. كأن هاول يتعمد التأكيد على أنه هو وعبدالله لا يعرفان بعضهما بعضًا. لكنه قبل التلميح وانحنى. «أوه أيها الياقوت بين الكائنات السحرية»، قال، «يا لهب الأعياد

وشمعة بين البُسُط، العظيم مئة ضعف في شكلك الحقيقي مما كنت عليه وأنت بساط نفيس...».

«انطق الدرة!»، غمغم هاول.

«أتأذن بكرمك أن تعيد هذه القلعة إلى الأرض؟»، أنهى عبدالله كلامه.

«بكل سرور»، قال كالسيفر.

وشعر الجميع بهبوط القلعة، ونزلت بسرعة بادئ الأمر فتشبثت صوفي بذراع هاول وصاحت عدد من الأميرات، لأن المرء بهذا يترك بطنه عاليًا في السماء، مثلما وصفته الأميرة ڤالريا. وربما فقد كالسيفر مهارته بعد أن حبس في الهيئة الخاطئة وقتًا طويلًا. وأيًا كان السبب، فقد أبطأ الهبوط بعد دقيقة وأصبح هادئًا ولم يكد يلحظه أحد. وكان هذا أيضًا لأن القلعة بعد هبوطها صارت أصغر حجمًا على نحو ملحوظ. فقد تدافع الجميع وتشاجروا على مكان يتيح لهم التوازن.

تحركت الجدران إلى الداخل، متحولة من الحجر السماقي الغائم إلى الجص العادي. وتحرك السقف إلى الأسفل وتحولت قنطرته إلى عوارض سوداء كبيرة، وظهرت نافذة خلف المكان الذي كان فيه العرش. كان مظلمًا في البدء، وتقدم عبدالله نحوها متلهفًا، راجيًا أن ينال نظرة واحدة إلى البحر الشفاف وجزره التي بلون الغروب، ولكن لما غدت النافذة نافذة حقيقية ملموسة، لم يكن في الخارج إلا

السماء، تُغرق الغرفة التي لها حجم الكوخ بفجر صافٍ أصفر. كانت الأميرات محشورات واحدتهن قبالة الأخرى، وصوفي مسحوقة في زاوية تمسك هاول بذراع ومورغان بالأخرى، ووجد عبدالله نفسه محشورًا بين زهرة في الليل والجندي.

لم يقل الجندي كلمة منذ وقت طويل كما تبين لعبدالله. بل إنه يتصرف بغرابة شديدة. فقد أرخى خماره المستعار على وجهه وجلس منحنيًا على مقعد صغير ظهر قرب المصطلى بعدما انكمشت القلعة.

«أأنت على ما يرام؟»، سأله عبدالله.

«في أحسن حال»، قال الجندي. وبدا صوته غريبًا أيضًا.

شقت الأميرة بياتريس طريقها نحوه. «أوه ها أنت هنا!»، قالت. «ما خطبك؟ أتخشى أني سأخلف وعدي وقد عدنا إلى الحياة الطبيعية؟ أهذا هو الأمر؟».

«لا»، قال الجندي. «أو بالأحرى نعم. سيغضبك».

«بل لن يغضبني أبدًا»، ردت الأميرة بياتريس موبخة. «عندما أقطع وعدًا فأنا أفي به. ويستطيع الأمير جستن أن يذهب... ويصفّر».

«لكني أنا الأمير جستن»، قال الجندي.

«ماذا؟»، قالت الأميرة بياتريس.

ببطء وخوف رفع الجندي غطاء وجهه ونظر إلى الأعلى. كان

الوجه نفسه، والعينين الزرقاوين البريئتين تمامًا أو الماكرتين جدًا، أو كلا الأمرين، لكنه وجه أنعم وأكثر تحضرًا، وبدا منه نوع آخر من الجندية.

«لقد سحرني ذلك العفريت اللعين أيضًا»، قال. «أتذكر الأمر الآن. كنت أنتظر في أجمة فرق الاستطلاع لتنقل لي الأخبار»، قال كمن يعتذر. «كنا نلاحق الأميرة بياتريس -إه- أنت، كما تعرفين، دون أن يحالفنا الحظ، ثم طارت خيمتي فجأة وهنالك وقف عفريت الجن يحشر نفسه بين الأشجار. «سأخطف الأميرة»، قال، «وما دمت قد هزمت بلادها باستخدام السحر بغير عدل، فلا بد أن تكون واحدًا من الجنود المهزومين ولنرَ إن كان يعجبك الأمر». ثم وجدت نفسي أتجول في ساحة قتال ظانًّا أني جندي سترانغي».

«وماذا كرهت في ذلك؟»، قالت الأميرة بياتريس.

«حسن»، قال الأمير، «كان ذلك صعبًا. لكني مضيت قدمًا وتعلمت كل شيء مفيد ووضعت بعض الخطط. أرى أن عليَّ أن أفعل شيئًا لكل الجنود المهزومين. ولكن...» وارتسمت على وجهه ابتسامة كانت ابتسامة الجندي القديم. «إن أردت الحقيقة، فقد استمتعت كثيرًا وأنا أتجول عبر إنغري. وقضيت وقتًا ممتعًا وأنا مخادع، فأنا مثل العفريت حقًّا، والعودة إلى الحكم هي ما يثير حزني».

«طيب، يمكنني أن أساعدك في هذا الأمر»، قالت الأميرة بياتريس. «فأنا أعرف مقاليد الحكم».

«حقًا؟»، قال الأمير، ونظر إليها كما اعتاد أن ينظر، حين كان جنديًا، إلى الهر في قبعته.

لكزت زهرة في الليل عبدالله، بنعومة وسرور «هذا أمير أوشنستان!»، همست. «لا داعي إلى الخوف منه!».

بعد ذلك بوقت قصير نزلت القلعة إلى الأرض بخفة الريشة. كالسيفر الذي يطير عند العوارض الخفيضة للسقف قال إنه وضعها في حقول خارج كنغزبري. «وأرسلت رسالة إلى إحدى مرايا سولمن»، قال متعجرفًا.

وأثار هذا حفيظة هاول، فقال غاضبًا «وكذلك فعلت أنا. تتجشم عناء كبيرًا، صحيح؟».

«وصلته رسالتان إذن»، قالت صوفي، «فما المشكلة؟».

«يا للغباء!»، قال هاول وأخذ يضحك، وعندئذ أزَّ كالسيفر ضاحكًا هو الآخر وعادا صديقين. ولما فكر عبدالله بالأمر فقد عرف شعور هاول، فقد كان يستشيط غضبًا كل الوقت حين كان جنيًّا، وما زال يستشيط غضبًا، دون أحد يصب عليه غضبه إلا كالسيفر. ولعل كالسيفر انتابته المشاعر ذاتها، فقد كان لكليهما سحر شديد القوة ولا يمكنهما المجازفة بصب غضبهما على ناس عاديين.

وصلت الرسالتان كما تبين، فقد هتف أحد قرب النافذة «انظروا!»، وتجمع عندها الجميع ليروا بوابات كنغزبري تنفتح

لتخرج عربة الملك مسرعة خلف كتيبة من الجنود. لقد كان موكبًا، فقد تبعت عربة الملك عربات سفراء كثيرين، تزينها شعارات كثير من الدول التي اختطف هاسرل أميراتها.

التفت هاول نحو عبدالله. «شعرت أن عليَّ معرفتك جيدًا»، قال. وتبادلا النظر محرجين. «أتعرفني؟»، قال هاول.

انحنى عبدالله «بقدر ما تعرفني على الأقل».

«هذا ما أخشاه»، قال هاول مستاء. «حسن إذن أعلم أن بوسعي الاعتماد عليك لتلقي خطابًا جيدًا عند تدعو الحاجة. قد يكون هذا لازمًا عند وصول هذه العربات».

وكان. كان وقتًا مدهشًا جدًّا، وبح فيه صوت عبدالله. لكن الجزء الأكثر إدهاشًا، كما رأى عبدالله، أن كل أميرة، فضلًا عن صوفي وهاول وجستن، أصرت على إخبار الملك عن شجاعة عبدالله وذكائه، وظل عبدالله يود تصحيح ذلك. فلم يكن شجاعًا، بل تاه غبطة لأن زهرة في الليل أحبته.

أخذ الأمير جستن عبدالله جانبًا، إلى واحدة من غرف الانتظار الكثيرة في القصر. «اقبل الثناء»، قال. «لا أحد ينال المديح للأسباب الحقيقية. انظر إليَّ. يتحلق حولي أهل سترانغيا لأني أمنح المال لجنودهم القدامى، وأخي الملك مسرور لأني توقفت عن إزعاجه في أمر الزواج بالأميرة بياتريس. يظن الجميع أني أمير مثالي».

«أكنت تعارض زواجك بها؟»، سأل عبدالله.

«أوه نعم»، قال الأمير. «لم أكن قد التقيتها، وتشاجرنا أنا والملك حول ذلك وهددته أن ألقي به من سطح القصر. عندما اختفيت ظن أنني غادرت في نوبة غضب لبعض الوقت، بل إنه لم يقلق».

كان الملك مسرورًا جدًّا من أخيه، ومن عبدالله لإعادته ڤاليريا وساحر بلاطه، فأمر بحفل زفاف ثنائي فاخر اليوم التالي. فزاد هذا قدرًا كبيرًا من الاستعجال إلى الاضطراب. صنع هاول على عجل صورًا محاكية -مصنوعة من رق الكتابة- لمبعوث الملك أُرسلت بالسحر إلى سلطان زنزيب، يعرض عليه إحضاره إلى حفل زفاف ابنته. وعادت هذه الصورة المحاكية بعد نصف ساعة، وهي تبدو بالية تمامًا، تحمل خبر إعداد السلطان خازوقًا طوله خمسة وخمسون قدمًا لعبدالله إن أظهر وجهه في زنزيب ثانية.

ولما كانت هذه هي الحال، فقد ذهبت صوفي وهاول وتكلما إلى الملك. فأوجد الملك منصبين سماهما السفيرين الخارقين لمملكة إنغري ومنح هذين المنصبين لعبدالله وزهرة في الليل في ذلك المساء.

كان زفاف الأمير والسفير حدثًا تاريخيًا، إذ كان لكلٍّ من الأميرة بياتريس وزهرة في الليل أربع عشرة إشبينة، وقدم الملك العروسين بنفسه. كان جمال إشبين عبدالله، وحين أعطاه خاتم الزواج، قال هامسًا إن الملائكة غادروا في وقت سابق من هذا الصباح، آخذين حياة هاسرل معهم.

«والأمر الجيد الآخر»، قال جمال، «أن كلبي سيكف عن الحكاك».

كان الشخصان المهمان الوحيدان اللذان لم يحضرا الزفاف الساحر سولمن وزوجته. وكان لهذا علاقة غير مباشرة بغضب الملك. فقد كلمت لتي صعبة المراس الملك وحين أراد حبس سولمن، فاجأها المخاض قبل موعد ولادتها، وخاف الساحر سولمن أن يتركها. لكن لتي ولدت في يوم الزفاف ابنة دون أية متاعب.

«أوه جيدا!»، قالت. «عرفت أني استدعيت لأكون خالة».

كانت أولى مهام السفيرين الجديدين أن يأخذا الأميرات المختطفات إلى بلدانهن. منهن من كانت تعيش في بلاد بعيدة ولم يسمع أحد ببلدانهن، مثل الأميرة الضئيلة من تساپفان. أعطيت التعليمات للسفيرين بعقد معاهدات تجارية وأن يعرفا كل الأماكن الغريبة في طريقهما، كي تستكشف لاحقًا. تكلم هاول إلى الملك. الآن -لسبب ما- كانت كل إنغري تتكلم عن رسم خرائط للكرة الأرضية، واختيرت الفرق الاستكشافية ودربت.

وكان عبدالله دائم الانشغال، بالارتحال وتدليل الأميرات والجدل مع الملوك الأجانب، فلم يعترف لزهرة في الليل، وبدا دومًا أن لحظة واعدة ستأتي اليوم التالي. ولكنه أخيرًا، حين أوشكا على الوصول إلى بلاد تساپفان البعيدة، أدرك أنه لا يمكنه التأجيل أكثر.

فأخذ نفسًا عميقًا، وأحس بوجهه يشحب، فقال من غير تفكير «أنا لست أميرًا». ها قد قالها.

رفعت زهرة في الليل نظرها عن الخريطة التي ترسمها، وجعل

المصباح المظلل في الخيمة وجهها أجمل من المعتاد. «أوه، أعرف ذلك»، قالت.

«ماذا؟»، همس عبدالله.

«طبعًا حين كنت في القلعة في الهواء، كان عندي متسع من الوقت للتفكير فيك»، قالت. «وأدركت سريعًا أنك كنت تختلق الأمر لأنه يشبه حلم يقظتي كثيرًا، غير أنه في الاتجاه المعاكس. اعتدت أن أحلم أني فتاة عادية وأن أبي تاجر بُسُط في البازار. واعتدت تخيل أني أدير العمل من أجله».

«إنك أعجوبة!»، قال عبدالله.

«وأنت كذلك»، قالت وعادت إلى خريطتها.

عادا إلى إنغري في الوقت المحدد بقطيع إضافي من الخيول المحملة بصناديق من السكاكر التي وعدت بها الأميرات ڤالريا. كان بينها الشوكولاته والبرتقال المسكّر ورقائق جوز الهند والمكسرات بالعسل، لكن أروعها السكاكر من الأميرة الضئيلة؛ طبقة فوق طبقة من الحلوى الرفيعة كالورق التي تسميها الأميرة الضئيلة أوراق الصيف. جاءت هذه في صندوق جميل استخدمته ڤالريا لحليها عندما كبرت قليلًا. والغريب أنها كفت عن الصراخ، ولم يفهم الملك الأمر، ولكن حين يقول لك ثلاثون شخصًا أن تصرخي، فيجعلك هذا تقلعين عن الفكرة من أصلها، كما قالت ڤالريا لصوفي.

عاش هاول وصوفي -بكثير من الشجارات، ولا بد من الاعتراف بذلك، رغم قولهما إنهما أسعد حالًا هكذا- في القلعة المتحركة ثانية. كان أحد جوانبها قصر جميل في تشپنغ ڤالي. ولدى عودة عبدالله وزهرة في الليل، منحهما الملك أرضًا في تشپنغ ڤالي أيضًا، وإذنًا ببناء قصر هناك. كان البيت الذي بنياه متواضعًا، بل له سقف من التبن. لكن حدائقهما غدت من أعاجيب البلاد. وقيل إن عبدالله حصل على مساعدة واحد من سحرة البلاط في تصميمها، وإلا أنى لسفير أن يكون له أجمة يكبر فيها الجريس طوال العام؟

انتهت



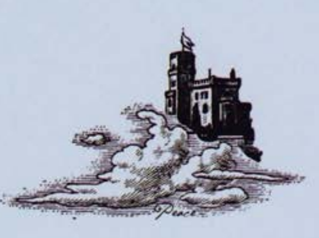
تستلهم ديانا وين جونز في هذا الجزء من عالم هاول أجواء ألف ليلة وليلة، فتخلق لنا شخصية عبدالله تاجر البُسط الذي يزجي وقته الممل في أحلام يقظة مفعمة بالحركة والألوان والروائح والحظ السعيد! ورغم أن هذا الجزء نشر بعد أربع سنوات من إصدار قلعة هاول، فإننا ننتقل معه عبر الزمن، مثلما ينتقل عبدالله على بساطه السحري، لنعيش في عالم الليالي الساحر والجن والعفاريت "الزرق"، والأماني التي يحققها الجني بعد لأي وجهد!

لا تنسى الكاتبة ما بدأته في الجزء الأول من حديث عن الفشل. فعبدالله مؤمن، بقدر ما آمنت صوفي، بحظه التعس لذلك يلجأ إلى أحلام اليقظة، يملؤها بكل ما لم تنله يده في الحياة الواقعية.

يوحي العنوان بالأحلام التي لا تتحقق لأنها تفتقر لأساس متين، مثل القلعة المعلقة في الهواء. لكن أحلام عبدالله سافرت به بعيدًا بعيدًا، لينتقل فجأة من عالم الصحراء إلى أجواء إنغري بلاد هاول. في هذه الرحلة يتغير عبدالله، مثلما تغيرت صوفي قبله، فيسعى سعيًا حثيثًا لجعل أحلام اليقظة واقعًا مفعمًا بالحركة والألوان والروائح والحظ السعيد!

تغدو كل رحلة خطوة نحو السعادة، ويتحول كل حلم إلى حجر يبني صرحًا. من قال إن الأحلام لا تبني قلاعًا؟!

المترجمة









www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com